سلسلة " الحقيقة الصعبة "

دار لأجل المعرفة، ديارعقل لبنان

(قياس ١٧×٢٤ سم)

١. **قسّ ونبيّ** بحث في نشأة الإسلام، أبو موسى الحريري، ٢٠٠١، ٢١٤ ص.

٢. **نبيّ الرحمة**، بحث في مجتمع مكّة، أ.م. الحريري، ١٩٨٥، ٢٠٨ ص.

٣. **عالم المعجزات**، بحث في تاريخ القرآن، أ.م. الحريري، ١٩٨٦، ٢٥٠ ص.

٤. **أعربيٌّ هو؟** بحث في عروبة الإسلام، أ.م.الحريري، ٢٠٠٧، ٢٥٤ ص.

٥. **العلويّون النّصَيريّون**. بحث في العقيدة والتاريخ، أ.م. الحريري، ٢٧٢ ص.

٦. **بين العقل والنبيّ**، بحث في العقيدة الدرزيّة، أنور ياسين، ١٩٨١، ٤٦٤ ص.

٧. **رسائل الحكمة**، حمزة بن عليّ، وآخرون ط ٥، ١٩٨٦، ٨٦٤ ص.

٨. **مصادر العقيدة الدرزيّة**، حامد بن سيرين، ١٩٨٥، ٥٧٦ ص.

٩. **السلوك الدرزي**، أنور ياسين، ١٩٨٦، ٢١٨ ص.

١٠. **مذبحة الجبل**، (حسر اللّثام عن نكبات الشام، تاريخ الحرب الأهليّة الدامية في لبنان سنة ١٨٦٠)، شاهين مكاريوس، ١٩٨٣، ٢١٠ ص.

١١. **المسيحيّة في ميزان المسلمين** (ردّ على كتاب "الإسلام والمسيحيّة في الميزان" لـ شريف محمّد هاشم)، أ.م. الحريري، ١٩٨٩، ٢٥٦ ص.

١٢. **نزعنا القناع**، ردّ على كتاب، أ جوزف قزّي، ١٩٩٧، ٣٦٠ ص .

١٣. **رغبات النفس والجسد**. (الحياة الجنسيّة في الإسلام) أ.م. الحريري، ٢٨٨ ص.

١٤. **موازين الحقيقة**، (ردّ على ردود)، أ.م. الحريري، ٢٠٠٠، ٢٣٦ ص.

١٥. **نصارى القرآن ومسيحيّوه**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.

١٦. **المسيحيّة في ردود المسلمين** أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٢، جزآن في ٦٤٠ ص.

١٧. **مسيح القرآن ومسيح المسلمين**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٢٤ ص.

١٨. **بين المسيحيّة والإسلام**، أ.جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٤١٤ ص.

١٩. **هذا هو الإسلام**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٧، ١٤٠٠ ص.

٢٠. **الشيعة الاثنا عشريّة**، أ. جوزف قزّي، ٢٠٠٦، ٢٤٠ ص.

٢١. **محنتي مع القرآن ومع الله في القرآن**، عبّاس عبد النور، دمنهور، ٣٥٠ ص.

٢٢. **تبرئة الله**، أ. جوزف قزّي، ٢٣٦ ص.

مقدّمــة

غايتي من هذا البحث تبـرئةُ اللّه ممّا يُنسب إليه من أديانٍ ومذاهبَ وشــرائعَ وكتبٍ، قيل أنّ اللّه نفسَه هو الذي نزّلها على البـشر، وأنّه هو الذي اللّه اختار له شـعباً ورذل آخَرين، وميّز إنساناً وقرّبه منه ورفضَ آخَر.

لهذا يتــوجّب علينا، قبل كلّ شيء، مـعرفـة حقيـقة الأديان والأنبيـاء والكتب المنزَلة، كـما يتوجّب عليـنا أيضاً معرفة علاقة اللّه بنا وعلاقتنا به.

أوّلاً – تعريف الدِّين

١ . الدِّين ظاهرة إنســانيّة، روحيّـة واجتـماعـيّة، لازمتِ الإنسان منذ إن وُجد، وتلازمه حيثما يُوجد.

٢ . وهو، بمفـهومـه التقليـديّ الواسع، مجـموعـة معـتقدات وعبـادات وصلوات وشعائر وفـرائض وطقوس وأعـياد، يمارســها الإنســان إرضاء للّه، أو للآلهـة، ليثـبّت علاقته به.

٣ . والدِّين، لغةً، من دان للّه، أي خضع له، واستسلم لمشيئته، وارتبط به، وأطاعه في وصاياه وأوامره ونواهيه؛ أي هو التزام واجب لما يعتنقه المرء من عقائد ومبادئ، ولما يقوم به من طقوس وعبادات.

ثانياً – أصول الدّين ثلاثة، هي :

١ . الاعتقاد بإله واحد،

٢ . والاعتراف بحياةٍ ثانيةٍ أبديّة في عالَمٍ آخر.

٣ . والإقرار ببعثة الأنبياء والرسل، وبالكتب المنزَلة لهداية البشر[١].

تتلخّص هذه الأصول في ثلاثة : التوحيد، والنبوّة، والمَعَاد. وفيها أجوبة على أسئلة رئيسيّة مصيريّة يطرحها الإنسان في أعماقه : مَن هو خالق الكون والإنسان؟ وكيف تكون علاقة الإنسان باللّه؟ وهل من نهاية لهذه الحياة. متى؟ وكيف يكون مصيرُ البشر؟ وما هو النظام الأفضل للإنسان في هذه الدنيا؟

(١) أقول: "الاعتقاد" و"الاعتراف" و"الاقرار". ولا أقول: "الإيمان"؛ لأنّ الإيمان يعتمد على الوحي؛ فيما تلك تعتمد على العقل والمنطق. وليست جميعُ الأديان تعتمد على الإيمان؛ بل تعتمد على الفطرة وعلى معطيات العقل ومعرفة الإنسان الطبيعيّة...

ثالثاً – مضمون الدّين

١. يحتوي الدِّين على مجموعة من العقائد النظريّة، التي تختصّ باللّه والإنسان والكون.

٢. وعلى مفاهيم إجتماعيّة، كالعلاقة الزوجيّة، والحرّيّة، والدولة، والدفاع، والاقتصاد، وغير ذلك.

٣. وعلى مجموعة من الأحكام والتكاليف والطقوس التي يتميّز بها كلّ دين.

٤. وعلى الأخلاق والمُثل العليا التي يتجمّل بها كلّ إنسان، كالعفّة، والتواضع، ومحبّة الفقراء، وإقامة العدل...

رابعاً – حروب الاديان

١. غير أنّ الأديان أيضاً، بالنسبة إلى عدد كبير من الناس، أثارت العداوة والبغضاء والحروب وسفك الدماء على وجه الأرض... حتّى في الدِّين الواحد نجد أكثر من طائفة أو شيعة أو مذهب، تختلف فيما بينها، وتتناحر، وتتقاتل حتّى الإفناء...

٢. ومع هذا لم تقف هذه الأديان المتناحرة حائلاً دون رغبة الإنسان في اكتشاف أسرار الكون، والحصول على نظام اجتماعيّ متكامل، والامتثال بالأخلاق والقيم، وإلغاء الفوارق العنصريّة والقوميّة بين الناس...

خامساً – المسيحيّة

١ . يهمّنا من الأديان، في بحثنا هذا، الأديان المسمّاة "سماويّة"، أو "توحيديّة"، كاليهوديّة، والمسيحيّة، والإسلام. ولا يهمّنا البحث في الهندوسيّة، والبوذيّة، والكنفوشيوسيّة، والسيخ، وغيرها. فهذه لا تُسمّى "أدياناً" بل هي حركات صوفيّة روحيّة، أو تيّارات فلسفيّة فكريّة. وهي أيضاً بعيدة كلّ البعد عن تراثنا ومعتقداتنا. لهذا فهي لا تعنينا في بحثنا هذا في شيء...

٢ . وكذلك لا يدخل في بحثنا تلك الأديان المسمّاة "سرّيّة"، أو "باطنيّة"، كالدرزيّة، والنصيريّة... فهذه لا تعني إلاّ معتنقيها، وهي أيضاً سرّيّة مكتومة حتّى على أصحابها، ومحرّمة على سواهم.

٣ . هذه الحركات الصوفيّة والأديان السرّيّة لم يصنعها اللّه، كما هو الحال مع الأديان "التوحيديّة"، كما يقول أصحابُها ومعتنقوها؛ إنّما هي من صنع البشر، كما سنبيّن ذلك...

٤ . وكذلك أيضاً لا يوجد في تلك التيارات الصوفيّة والأديان السسرّيّة، تعاليم "منزلة" أو "موحاة" من عند اللّه، كما يقول أصحاب الأديان "التوحيديّة".

٥ . وليس فيها أيضاً موضوعات خاضعة للإيمان وغير خاضعة للعقل.

لهذا فهي لا تدخل في بحثنا.

٦ . ثمّ إنّ المسيحيّة تختلف عن اليهوديّة والإسلام في كلّ شيء، إلى درجة أنّ باستطاعتنا القول: إذا كانت المسيحيّةُ ديناً، فاليهوديّة والإسلام ليسا بدين؛ وإذا كان الإسلام واليهوديّة دِينَين، فالمسيحيّة ليستْ ديناً على الإطلاق، ولا تشبههما في شيء.

٧ . من هنا لا يمكن أن يكون حوارٌ بين المسيحيّة واليهوديّة والإسلام: فاللّه، في المسيحيّة، مثلاً، يختلف، في طبيعته وجوهره وصفاته ودوره، عمّا هو في اليهوديّة والإسلام... وكذلك القول في السماء، وفي الأرواح الخيّرة والشرّيرة، وفي السعادة والهلاك، وفي كلّ شيء يتناول الحقائق الماورائيّة، التي يقوم عليها الدِّين...

٨ . ثمّ إنّ الذي يدّعي معرفة اللّه قد يكون أشدّ كفراً وأكثر إلحاداً من الذي ينكر اللّه ولا يؤمن به : فالذي يقول بأنّه يعرف اللّه فهو يعتبر اللّهَ كائناً بمستواه، خاضعاً لمقولات العقل والمكان والزمان، ولنسبيّة الكائنات؛ فيما اللّه كائن مطلق، كلّيٌّ الكمال والقدرة، خارج الزمان والمكان،

غير خاضع للجنس والنوع والعدد... فكيف يكون حوارٌ إذاً حول الله؟!

٩. ثمّ إنّ الحوار يجب ألاّ يكون على ما يميّز جوهر هذا الدِّين عن سواه؛ بل على الممارسات العمليّة والاجتماعيّة والأخلاقيّة... من هنا يمكننا أن نتحاور مع الوثنيّ والملحد والكافر، وفي أمور عديدة، لكن لا على ما يتميّز به كلٌّ من اليهوديّة والإسلام؛ ثمّ يمكننا أن نتحاور في موضوعات السياسة وأمور المجتمع والمسائل الفلسفيّة، لا في المعتقدات الماورائيّة التي تتميّز بها كلٌّ من اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام...

***

أنا لم أكفر بالله، ولم ألحد به، ولم أنكر وجودَه أو فعلَه في الكون والإنسان... ولكنّني أعجز عن إدراكه، وعن معرفة أيّ شيء عنه...

أنا لم أدع إلى إلغاء ما قدّمتْه الأديان للإنسان من حضارات.. بل أدعو إلى تبرئة الله من صنع هذه الأديان، من معتقداتها، وشرائعها الجامدة؛ وذلك اعتماداً على قول المسيح: «قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم...». ليس الله هو الذي صنع الأديان؛ إنّما الأديان هي من صنع الإنسان...

فصل تمهيدي

ليس الدِّين من صنع الله

ما من إنسانٍ عاقلٍ يستطيع أن يقول إنّ اللّه هو الذي صنع الأديان للبشر، فأعطى هذا الدِّين لهذا الإنسان وذاك الدِّين لذاك الإنسان، واختار شعباً من دون شعب، وأوحى لهؤلاء ولم يوحِ لأولئك، فميّز البشر بعضهم عن بعض، فخلقهم وجعلهم يتقاتلون...

وإذا كان اللّه هو نفسُه الذي أوحى بهذه الأديان المختلفة والمتناقضة، فيكون هو نفسه الذي شاء للبشر أن يختلفوا ويتقاتلوا بسببه، ويكون بالتالي غير عادل، لا يعرف الرحمة ولا المحبّة؛ بل يكون حقّاً إلهاً شرّيراً وشيطاناً رجيماً.

اللّه، بسبب ما نزّل من كتب وشرائع، ميّز فيها بين أبنائه، يكون هو المسؤول عن اختلافات البشر.

ثمّ إنّ رسلاً وأنبياء كثيرين قالوا إنّ اللّه هو الذي بعث بهم، وأوحى إليهم بشرائع أزليّة أبديّة، وزوّدهم بتعاليم ثابتة لا تتغيّر... هؤلاء عمّقوا الاختلاف بين البشر، إذ ادّعوا أنّ الأديان التي دعوا إليها، والكتب التي نزّلوها من السماء، هي من صنع اللّه، لا من صنعهم هم.

ولكن، هذه أمور لا يقبلها عاقل. ولهذا، رفضها كثيرون وأنكروها، وحرّروا اللّهَ والإنسانَ منها. ولهذا أيضاً اعتُبِروا ملحدِين، وكافرِين، وأنكروا اللّهَ بسبب نكرانهم لهذه الأديان.

أودّ أن يحاسبني ربّي ويدينني على ما اتّهمتُه به من صنع أديان ومذاهب، ومن تنزيل كتب تلغي كتباً، ومن بعثه رسلاً تنسخُ رسلاً... إنّ اللّهَ، في اعتقادي، بريء من كلّ هذه.

يشجّعني على هذا الكلام كلامُ يسوع نفسه، ومواقفُه، بحسب ما روتْه الأناجيل والرسائل... غريب كلام يسوع هذا الذي ينقض فيه تعاليمَهم وتقاليدهم ومعتقداتهم

وشرائعَهم. فيسوع، لم يكنْ إلاّ ليصحّح مسيرة الإنسان، ويكشف له عن سرّ الله، ويخلّص البشر أجمعين، من دون تمييز؛ ويُعيد إليهم كاملَ حرّيّتهم التي خلقهم الله فيها.

يقنعني يسوع، في تعاليمه هذه، لسببين اثنين:

السبب الأوّل: تخليصه الإنسان، لا من خطيئة آدم المزعومة، بل من شرائع قيّد الإنسانُ بها حرّيّته ونسبها إلى الله بوضعها له منذ الأزل وإلى الأبد.

والسبب الثاني: رفض يسوع تعاليمَ التوراة وتقاليدَ الأحبار اليهود رفضاً جازماً، حاسماً، كاملاً ونهائيّاً، وذلك بسبب ما حمّلوا الإنسان من شرائع وعقائد، أثقلوا بها كاهله، وألزموه بها باسم الله نفسه وإلى الأبد.

فيسوع، إذاً، كان أوّلَ مَن تجرّأ على تبرئة الله من التقاليد الموروثة، ومن الحقائق الجامدة، والتعاليم التي لا تتبدّل ولا تتطوّر، وقد جمّدتْ هذه التعاليم تطوّرَ الإنسان، وتقدّمَه وحرّيّته إلى الأبد.

لقد كان يسوع، أيضاً، أعظم ثائرٍ في التاريخ، لا على الظلم والحكّام الظالمين فحسب، بل على الله نفسه الذي اتُّهم ظلماً بأنّه هو الذي صنع أدياناً ومذاهب، ووضع فرائضَ

وشرائع، وأنزلَ تعاليم سماويّة أبديّة. وهو بهذه الثورة فتح الباب واسعاً للملحدين. فإذا به كان رأس الملحدين، وأوّل الرافضين، وأعظم الثائرين من أجل حرّيّة الإنسان وكرامته..

***

لنبدأ بالأناجيل، ثمّ بأعمال الرسل، والرسائل، وبنوع خاصّ رسائل القدّيس بولس؛ فإنّي لم أرَ، في سبيل تبرئة اللّه من جميع الأديان والمذاهب، دليلاً أعظم.

لهذا، فإنّ معتمدي في تبرئة اللّه من الأديان والشرائع، هو يسوع نفسه الذي جاء، على ما يبدو، ليلغي الأديان والشرائع كلّها، ويعيد إلى الإنسان كرامتَه وحرّيّته وعلاقتَه مع اللّه بواسطة يسوع المسيح لا سواه.

هذه الأديان المختلفة ليست من اللّه، ولا يمكن أن تكون من اللّه، ولا يُحتمل أن يكون أيُّ دين منها من صنع اللّه؛ لأنّ اللّه لا ينزِّل أدياناً، ولا يسنّ شرائعَ، ولا يختار إنساناً ويرذل آخر، ولا يميّز شعباً ويتخلّى عن آخرين..

ولكن، إذا كان ثمّةَ احتمالٌ أن يكون دينٌ ما من عند اللّه، فهذا الدين يجب أن يكون واحداً، عامّاً، شاملاً، لا يناقض سواه، ولا «ينسخ» تعاليم مَن سبقه. كلّ الأديان، إن كانتْ من اللّه، يجب ألاّ تختلف أو تتناقض أو تتقاتل.

صحيح أنّ الطرق إلى اللّه متعدّدة ومتنوّعة بتعدّد طبائع البشر وتنوّع ثقافاتهم؛ ولكن لا يمكن أن تكون هناك أديانٌ تتناقض وتُلغي بعضها بعضاً. وصحيح أنّ كلّ إنسان يصل إلى اللّه بحسب ميله وقناعته؛ ولكن لا يمكن أن يعرف إنسانٌ اللّهَ معرفةً حقيقيّة من دون وسيط من عند اللّه.

هذا المنطق يدفعني هو أيضاً إلى تبرئة اللّه من كلّ دينٍ اتّهمناه بصنعه. فاللّه خلق الناس إخوةً، بمحبّة إلهيّة متساوية وغير محدودة؛ لذلك فهو يشاء خلاص كلّ إنسان بمحبّة إلهيّة متساوية وغير محدودة أيضاً...

هذا الخلاص لم يحرم اللّهُ منه أحداً، لأنّه هو الذي خلق كلّ واحدٍ. والجميعُ أبناؤه، وسوف يخلّص أيضاً كلّ واحد منهم. لهذا فهو بريء من هذه الأديان المختلفة والمتناقضة، ولا يدَ له فيها.

وبالتالي على كلّ إنسانٍ أن يقبل كلّ إنسانٍ يبحث عن اللّه بأيّ طريق شاء. وعليه أن يعمل مع كلّ إنسانٍ لاكتشاف سرّ اللّه، كما عليه أن يستفيد من خبراته وخبرات سواه، لكي يلج هذا السرّ العظيم.

فإذا كان كلّ إنسان يتمتّع بفرادة خاصّة به مميّزة إيّاه عن سواه، فإنّه أيضاً يتمتّع بانفتاحه على غيره ومحبّته

له وقبوله إيّاه كما هو. لهذا، فالقول إنّ اللّه يريد هذا الدين ولا يريد ذاك، أو هو يريد هذا الإنسان ولا يريد ذاك، هو قول شرّير مشين بحقّ اللّه والإنسان معاً.

ولئنْ سلّمنا بوجود أديان متناقضة، تعلّم تعاليمَ مختلفة، فلا يمكن أن تكون هذه الأديان من مصدر واحد هو اللّه؛ ولكنّ هذه الأديان موجودة ومختلفة، بل متناحرة، ما يعني أنّ الإنسانَ هو مصدرها لا اللّه. فاللّهُ منها براء، ومن المستحيل أن يكون اللّهُ سببَ اختلاف بين البشر أبنائه.

في البشريّة أديان مختلفة، فلا بدّ، إذاً والحال هذه، من أن يكون لكلّ دينٍ إلهٌ خاصّ به. وهذه حقيقة حاصلة في تاريخ البشر، مؤدّاها: آلهة تتقاتل، أديان تتصارع، شرائع تتناقض، تعاليم تتضارب، أناس يتناحرون... وكلّها باسم اللّه، ولأجل اللّه؛ واللّه سببها...

صحيح أنّ الأديان كلّها تستعمل اسماً واحداً للّه؛ ولكنّ اللّه فيها ليس هو نفسه: إسم واحد، صفات مشتركة، ولكنّها لا تنطبق على مسمّى واحد. يعني: أنّ إله المسيحيّة هو غير إله البوذيّة، والهندوسيّة، واليهوديّة، وغير إله الإسلام، والدرزيّة، والنُّصَيريّة، بالرغم من أنّ الاسمَ واحد، والصفات، في معظمها، هي ذاتها...

فإذا كانت الأديان لا تتّفق بعضُها مع بعض على هويّة اللّه، ولا على دوره ومهمّته في العالم، ولا على صفاته وعلاقته بالإنسان، فكيف تكون هذه الأديان إذاً من عنده؟!

هذا يعني، مرّةً أخرى، أنّ اللّه بريء من هذه الأديان كلّها. ولا يد له فيها. لم يصنعها. لم يوحِ بها... بل هي من صنع البشر المختلفين طبعاً، ومنذ بدء التاريخ مختلفون؛ وذلك بسبب الحرّيّة التي أنعم بها اللّهُ على كلّ إنسان، وغرزها في جِبِلّته، منذ أن خلقه.

لهذا يجب أن نعمل، ما بوسعنا، مؤمنين وملحدين، يهوداً ومسيحيّين ومسلمين، على إلغاء هذه الأديان عن وجه الأرض، لكي يعود اللّه إلهَ الجميع، يهمّه أمرُ الجميع، يحبّ الجميع، ويعمل على خلاص الجميع.

***

يرى اللبنانيّون، مثلاً، الفسادَ كلّ الفساد في الطائفيّة؛ أمّا أنا فأرى الفسادَ كلّ الفساد في الدِّين الذي هو أصل الطائفيّة، وسببها ومرجعها. الدين أصل، والطائفيّة فرع. الدين سببه خلافٌ إلهيّ؛ فيما الطائفيّة سببها خلافٌ بشريّ. الدين يجذّر هذا الخلاف ويعمّقه؛ أمّا الطائفيّة فخلافاتها عابرة، زائلة، لا تمسّ الحقيقة ولا العقيدة، ولا تتّهم اللّه.

هذا يعني أنّ الاختلاف بسبب الدين، عميق جداً بين البشر؛ أمّا الاختلاف بسبب الطائفيّة، فسطحيّ عابر. الطائفيّة انتماء سوسيولوجيّ، يدلّ على هويّة قد تتغيّر بتغيّر الظروف والمناسبات والثقافات والحضارات والأمكنة؛ أمّا الدين فهو تعبير عن حقيقة العقيدة والشريعة المنزلة التي لا تتغيّر بتغيّر الظروف والمناسبات والثقافات والحضارات.

الاختلاف، بسبب الطائفيّة، سياسيّ، وطنيّ، سوسيولوجيّ، ظرفيّ، يدلّ على انتماء الإنسان إلى وطنٍ أو حزبٍ أو شيعةٍ أو حركةٍ، أكثر من دلالته على عقيدته وإيمانه وانتمائه الإلهيّ...

***

هذا البحث كلّه يثبت لنا أنّ الله بريء من كلّ الأديان والشرائع والكتب المنزلة، وبريء من كلّ اختلافات البشر بسبب هذه الأديان وهذه الشرائع والكتب؛ أي إنّ الله لم يقيّد الإنسانَ بشرائع منزلة، ولا بعقائد ثابتة، ولا بحروف جامدة، ولا برسل وأنبياء وأولياء ومرسَلين، يتقاتلون...

الإنسان حرّ؛ وهذه هي عظمته وكرامته. هكذا خلقه الله؛ وهذه هي عظمة الله ومجده. فلا الله يتخلّى عن مجده

وعظمته، ولا الإنسان يريد أن يتخلّى عن كرامته وحرّيته... لن يتخلّى الإنسانُ عن حرّيّته هذه، ولا اللّه يشاء له ذلك.

الدين، في هويّته، يطعن في الاثنين معاً، أي في اللّه والإنسان. لهذا يجب تبرئة اللّه والإنسان منه، مهما كلّف الأمر؛ بذلك تسلم البشريّة ويسلم الإنسان، ويتقدّم العالم إلى كماله، وتتجلي صورة اللّه الحقيقيّة الرائعة في الكون.

***

وها أنذا أجاهد اليوم، معاكساً التيّارات الدينيّة والمذهبيّة والفكريّة كلّها، لأدلّ على أنّ اللّه بريء من كلّ دين، وعلى أنّ الدين سبب كلّ خلاف واختلاف وعداوة بين الناس. هكذا هو، وهكذا كان منذ فجر التاريخ حتّى اليوم وقد يبقى إلى ما بعد اليوم.

وبسبب ذلك أقول: قلّما تهمّني الدعوى إلى إلغاء الطائفيّة التي هي ظاهرة اجتماعيّة عابرة تعرّف عن هويّة الإنسان وانتمائه، بمقدار ما تهمّني الدعوى إلى إلغاء الأديان والمذاهب والشرائع السماويّة والكتب المنزلة كلّها. ويهمّني أيضاً أخْذ الحذر الشديد من الأنبياء والمرسلين جميعهم...

في نيّتي الصريحة تبرئة اللّه من الأديان؛ إذ ليس هو الذي أوحى بها؛ وليس هو الذي أنزل شرائع من السماء، أو

كتبَ كتباً، سمّيناها مقدّسة، أو بعث بأنبياء، أو ثبّت عقائد وحقائق، وجمّد العلوم والمعارف... اللّه بريء بريء من هذه كلّها.

الإنسان هو المسؤول عن هذه الأديان والطوائف والمذاهب والشيع والمعتقدات والشرائع والكتب والحقائق الجامدة... ليس اللّهُ هو المسؤول عن أيّ شيء منها...

❊❊❊

لنتصارح، ونضع النقاط على الحروف، ونحدّد المسؤوليّات: مَن المسؤول عن اختلافات البشر وصراعاتهم بعضهم مع بعض؟

أليستْ هي الأديان، منذ أن كان على الأرض بشر، ومنذ أن أدخل الإنسانُ اللّهَ في شؤونه؟

ولكن مَن المسؤول عن هذه الأديان؟

أليس هو اللّه الذي اتّهمه الإنسانُ بصنعها، وقيل أنّه نزّلها مع رسلٍ وأنبياء، وثبّت عقائدها وتعاليمها في كتبٍ ومصاحفَ وكراريس من عنده.

❊❊❊

نستدلّ على ذلك، في أهمّ ما نستدلّ عليه، من الأناجيل والرسائل التي تبيِّن بوضوح عملَ يسوع في تبرئة الله من اليهوديّة وشرائعها، ومن التوراة وتعاليمها، ومن الأحبار والرؤساء وتقاليدهم... بل تبيّن يسوعَ وكأنّه جاء لينقضها ويريح الإنسانَ من أحمالها وأثقالها.

لقد وضعتِ اليهوديّة على كاهل الإنسان شرائع قيّدت بها حرّيّته، واتّهمتِ اللّه بصنعها، وحمّلتْه أثقالاً ليس هو مسؤولاً عنها.

وعن اليهوديّة نقلت الأديانُ تعاليمها، وشرائعها، ومعتقداتها، حتّى المسيحيّة اتُّهمت بما هي عليه اليهوديّة. فيما هي بريئة من كلّ ذلك كلّ البراءة...

هذه التبرئة تؤلّف جوهر رسالة المسيح، وأساس الدعوة المسيحيّة وتعاليم الكنيسة والآباء القدّيسين واللاّهوتيّين... وهو هدفنا في هذا البحث.

وإذا ما تتبّعنا الأناجيل والرسائل من البداية حتّى النهاية نجد هذه الحقيقة صارخة. فلكأنّ يسوع جاء ليلغي اليهوديّة والأديانَ كلّها، ويرفض، بالتالي، كلّ ما يقيّد حرّيّة الإنسان؛ وكذلك أيضاً لم يأتِ لينشئ ديناً جديداً.

إنّي أريد، في بحثي هذا، التأكيد على هذه الحقيقة الثابتة التي لا شيء عندي يوازيها في أهمّيّتها.

اللّه موجود، لا شكّ في ذلك... ولكنّ السؤال هو: ما هي علاقة الإنسان باللّه؟ كيف هي هذه العلاقة؟ وهل بمقدور الإنسان معرفة شيء عن اللّه، وعن طبيعته، ودوره، وصفاته؟ وهل هو اللّه نفسه الذي تقول به الأديان جميعُها، أم هو اسم مشترك بينها كلّها، لمسمّى يختلف فيه الجميع؟

تعلّمُ الأديانُ كلُّها أنّها من عند اللّه. اللّه هو الذي أنشأها، وأوحى بتعاليمها، وكلّف بها أنبياء ورسلاً، وأودعها كتباً ومصاحف. ولا يمكن، في نظرها، أن يَعرفَ اللّهَ أحدٌ، خارجاً عنها. هذه حقيقة قد يقول بها كلُّ إنسان...

وشذّ بعض الناس، وأنكروا أن يكون الدِّين من عند اللّه، وأنّ اللّه هو الذي أوحى بها. وأنا منهم.

وتعلّمُ الأديانُ المسمّاة "توحيديَة" كلّها –وبعضُها ينقل عن بعض– أنّ الإنسانَ عصى مشيئةَ اللّه بخطيئةٍ ارتكبها آدم، فطرده اللّه من الفردوس، وحرمه السعادةَ الأبديّة، له ولبنيه من بعده إلى أبد الآبدين... أمّا أنا فمن

الذين يقولون إنّ اللّه لم يصنع أيّ دينٍ لأيّ إنسان في أيّ وقت.

اللّه الذي أؤمن به، لم يصنع ديناً، لم يسنّ شريعةً، لم ينزّل كتاباً، لم يحدّد عقيدةً، لم يبعث من عنده نبيّاً أو رسولاً، لم يكشفِ الغيبَ لأحد، لم يختر شعباً من دون شعب، لم يشأ خلاص إنسان وهلاك آخَر، ولم يصنع ديناً لأناس منعه عن آخرين.

اللّه، الذي أؤمن به، هو، بالنسبة إليّ، محبّة مطلقة. إنّه إلهٌ يُحبّ الجميع، والجميع أبناؤه، يريد خلاصَ الجميع، من دون استثناء... فكما هو الذي خلقهم، فهو الذي ينجّيهم، ويخلّصهم، وينصرهم...

وأقول أيضاً إنّ الشرّ الذي ارتكبه الإنسان منذ البدء، يكمن في سوء استعمال حرّيّته، فخطئ خطأ جسيماً. وخطيئته كانت ضدّ نفسه، وضدّ حرّيّته، لا ضدّ اللّه، ولا ضدّ أيّة شريعة نزلتْ عليه من عند اللّه.

وزاد شرُّهُ، وتفاقمتْ خطيئتُه، عندما قيّد حرّيّته بشرائع وصفها بأنّها إلهيّة، اتّهم اللّهَ بتنزيلها، فقضى بذلك على نفسه وعلى حرّيّته، وعلى اللّه نفسه، وقيّد الجميع بما

ادّعى تنزيله من تعاليم باسم اللّه، وجمّدها بشرائعَ وعقائدَ، سمّاها أدياناً يختلف بعضُها عن بعض، وتتناحر.

فالخطيئة الأولى كانت إذاً، في وقوف الإنسانِ ضدّ حرّيّته التي شاءها اللّهُ له منذ البدء عنوانَ مجده وكرامته؛ والخطيئة الثانية كانت في تقييد الإنسان حرّيّتَه هذه بشرائعَ إلهيّة منزلة، وعقائد ثابتة، في كتبٍ جامدة، وعلى أيدي أناسٍ طبعهم بختم إلهيّ...

وكلّها لا تتبدّل ولا تتطوّر، ولا تتغيّر، ولا تُبقي للإنسان أيَّ مجالٍ لاستعمال عقله ووعيه وحرّيّة تصرّفه...

هذه هي قصّة الأديان كلّها، صنعها الإنسان ليخلّص نفسَه من خطايا، ارتكبها بحقّ اللّه وبحقّ حرّيّته، فوقع بالتالي في خطايا أعظم، إذ ربط اللّهَ معه وكبّله في قيوده. فبطل اللّهُ نفسُه، في هذه الأديان كلّها، أن يكون حرّاً في خلقه وفي أعماله.

والآن، وبعد اختبارٍ طويلٍ مع الأديان وتعاليمها، لم أجد نفسي في خانة الكافرين، ولا في صفوف الملحدين. ومع هذا، لستُ بنادمٍ على هذا الاختبار، لأنّ اختباري هذا هو الذي ساهم في تقوية إيماني باللّه، وهو الذي رسم

حدودَ معرفتي الحقيقيّة له، وأعطاني الشجاعة في قول ما أقول لأكتب ما أكتب من حقائق صعبة في مجالات «الحقيقة الصعبة».

هذه الخبرة الشخصيّة للحقيقة الإلهيّة هي التي أكسبتني هذا الاقتناع الذي توصّلت إليه اليوم، بعد اختبارٍ طويل، مدى الحياة، ألا وهو انتفاضتي الصريحة على الأديان كلّها، ودعوتي الصريحة إلى إلغائها، وإلى تبرئة الله منها، وتحميل الإنسان مسؤوليّة أعماله كلّها.

هذه الخبرة هي أيضاً التي دفعتني إلى أن أقرّ بعجزي في فهم حقيقة الله، وفي رفض مفهوم الناس التقليدي له، وإلى الدعوة إلى إلغاء الأديان والشرائع المسمّاة سماويّة، وإلى رفض اتّباع نبيٍّ أو رسول، وإلى نزعة الدفاع عن الله الذي يفترض أن يدافع هو عنّي.

وهذا الاختبار الشخصي أيضاً هو الذي أوحى إليّ بالدور المميَّز، الذي جاء به يسوع المسيح من أجل خلاص العالم كلّه، وتحريره، وتقديسه، والعمل على إدخاله في ملكوت الله وإشراكه بالحياة الإلهيّة والاتّحاد بالله.

***

هذا الدِّين الذي أنتفضُ اليومَ عليه، لا أعتبره، كما اعتبره ماركس «أفيون الشعوب» فأكون كافراً. ولا أعتبره أيضاً «من صنع اللّه»، كما يقول المتديِّنون فأكون آسراً للّه في جدران عقلي؛ أو كما هو حاله في القرآن، في مثل قوله عن الإسلام: «إنّ الدِّينَ عند اللّه الإسلام»[1]، وقوله: «رضيتُ لكم الإسلامَ ديناً»[2]، وقوله: «ومن يبتغِ غيرَ الإسلام ديناً فلن يُقبَلَ منه»[3]، وقوله: «فمن يُردِ اللّهُ أن يَهديَه يَشرح صدرَه للإسلام»[4]، إلى غير ذلك من أقوال أرفضها وأرفض اللّهَ نفسَه بسببها...

وكذلك أيضاً لا أعتبر الدينَ مجموعة حقائق وعقائد وشرائع منزلة، ثابتة، جامدة، لا تتغيّر ولا تتطوّر، جاء بها رسولٌ أو نبيّ من عند اللّه، كما يقول بذلك المتديّنون...

إنّما الدِّين، بالنسبة إليّ اليوم، هو مرحلة من مراحل تطوّر الإنسان في التاريخ، أو هو مجموعة مسلّمات ومعتقدات، لا بدّ منها، ليبني الإنسانُ عليها حياته.

---

(١) القرآن، سورة آل عمران ٣/ ١٩.

(٢) سورة المائدة ٥/ ٣.

(٣) سورة آل عمران ٣/ ٨٥.

(٤) سورة الأنعام ٦/ ١٢٥.

لهذا، فالدِّين يحمل اختبارات الإنسان المتواصلة عبر التاريخ؛ والإنسانُ، بهذه الاختبارات، غنيٌّ جداً، ولكن ليس إلى حدّ الاكتفاء بها والجمود عندها؛ فعليه بالتالي، ألاّ يقف ويستريح؛ وألاّ يقول كفى، ويطمئنّ؛ وألاّ يقول أيضاً: لقد تمّ كلّ شيء واكتمل، فتجمد عندئذٍ الحياة، ويجمد اللّهُ والإنسانُ معها، ويجمد التاريخ.

وأثني على قول كاتب كويتيَ بأنّ على «الإنسان أن يمتلك الجرأة والشجاعة والوعي لنقد أيّة مرحلة في حياته، سواء أكانت جيِّدة أم رديئة، ولستُ من الذين يساومون على حرّيّتي وقراري وإنسانيّتي وفكري... فالإنسان في النهاية مسؤول عن قراره واختباره وحياته وإرادته...»(٥).

لهذا، فأنا اليوم، لا أدين الدِّين ولا أشتمه؛ ولا أقول بأنّه لم يقدّم للتاريخ أعمالاً مجيدة في مجالات الفكر والأدب والفنّ والروائع الإنسانيّة...

ومع هذا، يجب عليّ، أقلّه، ألاّ أتّهم اللّهَ بصنعه، وأُدخلَه في إنجازاته. فاللّه الذي أعرفه، وأعبده، وأُحبُّه، وأحيا به وفيه ومعه، بريء من صنع كلّ دين...

---

(٥) موقع «الناقد»، **تجربتي مع الايديولوجيّات الدينيّة (١)**، بقلم محمود كرم، كاتب كويتي، Aug 27, 2007.

هكذا فهم الناس علاقتهم بالله، واعتبروه صانعاً للأديان، وباعثاً للأنبياء، ومنزِّلاً عليهم الكتب، ومحدِّداً لهم العقائد، وسانّاً الشرائع... إنّ اللهَ بريء من كلّ ذلك، وعلى الإنسان أن يبرّئ اللّهَ ممّا نُسب إليه من أديان، مؤتلفة كانت أم مختلفة، متحاورة أم متقاتلة، سماويّة أم أرضيّة... الله بريء منها كلِّها...

مهمّتي في هذا البحث، إذاً، لن تكون أكثر من تبرئة اللّه منها جميعها، ومن تحرير الإنسان منها ومن كلّ تنزيل وتشريع وجمود.

وأمّا إيماني أنا فأقول فيه : إنّ اللّه، كما تُعلّم المسيحيّة وتقول، ليس إلاّ مخلِّصاً، أي مخلِّصاً الإنسان، كلّ إنسان أوّلاً، ثمّ مخلِّصاً حرّيّة الإنسان ثانياً. ولا يجب، ولا يحقّ لنا، ولا يمكننا أن نعرف شيئاً عنه، سوى أنّه يريد خلاص الإنسان وتحريره من كلّ ما يقيّده ويكبّل حرّيّته.

بذلك عُرف اللّهُ في المسيحيّة، بواسطة شخصٍ اسمُه "**يَسُوع المَسِيح**" **الذي يعني اسمُه المخلّص**. ولهذا فهي تنتسب إليه وتُسمّى باسمه، وتتشبّه به، وتدعو دعوته، وتقدّس سيرته، وتقتدي بسلوكه، وتشاركه حياته الإلهيّة، وتتّحد به إلى آخر حدود الوحدة والاتّحاد...

فيسوع، في المسيحيّة إذاً، ليس مؤسّس دين، ولا راباناً يهوديّاً، ولا كاتب إنجيل، ولا باعث رسائل، ولا حكيماً كالحكماء، ولا زعيماً كالزعماء، ولا قائد حركة سياسيّة أو اجتماعيّة، ولا واضع قوانين وشرائع، ولا مرسِلاً رسلاً وأنبياء... ولا أتبعه لكونه نبيّاً، أو ملاكاً، أو صاحب رؤيا، أو مجترح عجائب، أو صانعَ معجزات عجيبة غريبة، يعجز عنها البشر... إنّما يسوع المسيح هو **مُخلّصُ الإنسان** فحسب. هكذا يعني اسمُه. وهذه هي مهمّته ورسالته من أوّلها إلى آخرها.

هو **مخلّص الإنسان**، لا من خطيئة آدم، أو ممّا صنع آدم، كما تقول الأديان؛ بل مخلّص الإنسان من شرائعَ وعقائدَ ومحرّماتٍ وممنوعاتٍ، وضعها الإنسانُ على نفسه باسم الله، فقيّد بها حرّيّتَه التي جاء المسيح **ليخلّصها** من سلاسلها وقيودها، كما قيّد بها اللّهَ نفسَه فاتّهمه بما اتّهمه به من صنع أديان ومذاهب مختلفة ومتناحرة.

هكذا فهم الرسل والتلاميذ مهمّة معلّمهم، وهكذا كتب الإنجيليّون والذين عرفوه. وهذه هي رسالة يسوع الأساسيّة، ودوره الإلهيّ، ومهمّته الوحيدة. ولكأنّ المسيح جاء، أوّلاً وآخراً، وقبل كلّ شيء، لينقض ما جاء به

السابقـون الذين أذلّوا الإنسانَ وقـيّدوه وكبّـلوه بسلاسل حديديّة، وجمّدوه بما رسموا له من نواميس وشرائع...

***

وها أنذا أستـعرض أوّلاً، رسالةَ المسيح الخـلاصيّة هذه كـما رواها الإنجـيليّـون والرسل؛ وأتوقّف ثانيـاً، عند تبرئةِ اللّه تبرئة نهائيّة، ممّا اتّهمه به البشر، لدعم خلافاتهم وسخافاتهم بحجج عقلانيّة واهية.

ويجب عليّ أخـيـراً أن أقـول: لو لم أجـد يســوع، والإنجيليّين، وبولس، والكثير من آباء الكنيـسة ولاهوتيّيها جريـئين على تبرئة اللّه هذه، لما تجـرّأت أنا على السيـر في هذا الاتّجاه، وعلى تبنّي هذا الموقف الذي يلامس الكفر.

أكاد أقول، نتـيجةً لما توصّلت إليه، إنّ يســوع نفسه كان أوّل الرافضين للأديان والشرائع ولـــ «ما قيل لكم...»

وعليّ الآن أن أبيّن ذلك بالتفـصيل والتبـسيط، ولو كـــان في ذلك تـكرار وترداد، إذ المـطلـوب، من التـكرار والترداد، إظهار أهمّيّة الموضـوع الذي أتجرأ على معالجته، ابتـداءً من الإنجيـل الأوّل وما توقّف علـيه من أحـداث في حياة يسوع، وانتـهاءً بقناعاتٍ لاهوتيّة شخـصيّة، استناداً إلى تعاليم آباء الكنيسة وأئمّة الفكر في التاريخ.

القسم الأوّل

موقف يسوع من اليهوديّة

١. موقف يسوع في إنجيل متّى
٢. موقف يسوع في إنجيل مرقس
٣. موقف يسوع في إنجيل لوقا
٤. موقف يسوع في إنجيل يوحنّا
٥. موقف يسوع في أعمال الرسل
٦. موقف يسوع في رسائل بولس

الفصل الأوّل

يسوع في إنجيل متّى

يشدّد متّى، في إنجيله، على موقف يسوع الرافض للتوراة، ولرؤساء اليهود والأحبار ولتعاليمهم وتقاليدهم. وقد اختزل متّى موقف يسوع هذا بكلامٍ واضحٍ وضع فيه يسوعَ بمواجهة موسى، فتوجّه إلى سامعيه في قول صريح : «قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم...» (متى ١١/٢-١٣/٥٢).

وردّد هذا الكلام مراراً، وبرهن بالحجج والوقائع موقفه الرافض هذا. إنّه موقف واضح ثائر. موقف فيه، كما يفسّر شرّاح إوَنْجِلْيُون[1]، "أحداثٌ تُظهِر سرُّ ملكوت

(١) الذين لمسنا جرأتهم في إبداء رأيهم وإظهار مواقف المسيح البالغة الجرأة. وسنعتمد على تفسيراتهم وشروحهم في بحثنا هذا.

يسوع الخفيّ، **الغريب** عن منطق الفرّيسيّين والكتبة والرؤساء، وعن أغنياء خُورَزِين وبيت صيدا وكفرناحوم، وعن المعمدان نفسه "[٢].

وكذلك أيضاً، يبيّن يسوع في متّى رذْلَ اللّه اليهود، واختيارَه شعباً جديداً، وذلك في "جدالات يسوع الخمسة مع الرؤساء حول سلطته الإلهيّة... وأمثال يسوع الأخيرة الأربعة، حيث يبيّن رَذْلَه الشعب القديم، واختيارَه شعباً جديداً، هو كلّ شعوب الأرض".

وكذلك، يشدّد يسوع في متّى على "الويلات السبعة الموجّهة إلى رياء الكتبة والفرّيسيّين".

وفي " نداء خطير يائس إلى أورشليم، يدعوها به يسوع إلى التوبة، ويهدّدها بالدمار "[٣].

" وتتبع كلَّ هذه الأحداث خطبةٌ خامسة (متى ٢٤-٢٥)، وخطبة النهايات، حيث يُنذر يسوع بدمار الهيكل، وقيام كنيسته على أنقاض الشعب اليهوديّ القديم، ويتكلّم على يوم الدين، ومجيء الملكوت النهائيّ "[٤].

(٢) إونجليون، ترجمة كلّيّة اللاهوت الحبريّة، حاشية على متى ١١/٢-١٢/٥٢.

(٣) المرجع السابق ذاته.

(٤) المرجع السابق ذاته، ص ٣٨-٣٩.

في إنجـيل مـتّى أيضـاً، وفي كلّ فـصل منه، فكرة رئيسة، وهي أنّ "**العهد الجديد لم يكن جديداً لو لم ينقض العـهـد القديم ويتـفـوّق عليـه، أي يتـخطّاه، ويبني عليـه، ويكمّله** "(٥).

لقد "كان اليهـود يتوقّعون ملِكاً زمنيّاً يحـرّر شعبه سياسيّاً، ويحكمه، فإذا بيسوع يأتي يبشّر بملكوت روحيّ يحرّر الإنسانَ من الخطيئة، ويُعدّه لنعيم أبديّ. بشّر يسوع شعـبه بملكوت غيـر ملكوتهم، فإذا هو سبب شكّ، وحـجر عثرة، وتحوّلَ كلُّ شيء إلى مأساة.

" فـيسـوع، إذاً، هو مـوسى الجـديد، النبيّ والمعلّم ومخلّص شعبه المختار، ولكنّه أعظم من موسـى، لأنّه هو ابن الله، ومخلّص جميع البشر "(٦).

ويملأ الخلاص، الـذي جاء يسوع من أجلـه، إنجيلَ متّى من أوّله إلى آخره. من البدء، يقول متّى إنّ اسم يسوع يعني المخلّص : قـال الملاك ليوسف خطّيـب مريم (١ / ٢١): «ستَلِدُ ابناً، فسمِّه يسوع، لأنّه يخلّص شعبَه من خطاياه».

---

(٥) المرجع السابق ذاته، ص ٣٩.

(٦) المرجع السابق ذاته، ص ٤١.

ومن البداية أيضاً يكشف متّى عن مدى رفض الرؤساء اليهود ليسوع وتعاليمه، فيعلن في إنجيله أنّ :

١ . هيرودوس «جمع **كلّ الأحبار وكتبة الشعب**» (٢ / ٤).

أي جمع "المسؤولين الروحيّين"(٧) عن شعب التوراة،

---

(٧) أي **الأحبار**، وهم من عائلات أورشليم الكهنوتيّة الشريفة، وكان الكتبةُ علماءَ التوراة، ومعظمهم فرّيسيّون. وكان الأحبار والكتبة أعضاء في المجلس الكبير.

والفرّيسيّون حزب يهوديّ دينيّ سياسيّ. ظهر في عهد الملك يوحنا هركانوس (١٣٥–١٠٥ ق.م.). قوّى نفوذ الفريسيين، فأصبحوا قادة اليهود، في حياتهم الدينيّة والروحيّة، ولا سيّما بعد أن هُدم الهيكل سنة ٧٠ ب.م. يسلّم الفرّيسيّون بسلطة توراة موسى المكتوبة، وبجميع الأسفار المقدّسة، ويأخذون بجميع التفاسير، والتعاليم الشفهيّة، وتقاليد الأقدمين، ويؤمن الفرّيسيون بخلود النفس، وقيامة الأجساد، والثواب والعقاب، ووجود الأرواح (ر: رسل ٢٣ / ٨). كان الفرّيسيّون، أوّل عهدهم، أنبل الناس خُلقاً، وأصفاهم ديناً، ولكن سرعان ما داخل معظمهم العُجب والرياء، حتّى صار اسم فرّيسيّ مرادفاً لمُراء. ولذلك وبّخهم المسيح وانتقدهم. فكان لهم في المؤامرة على حياته دورٌ بارز. إنّما بقي في صفوفهم أفراد مخلصون، أمثال نيقوديم، وجملئيل، وبولس الرسول قبل اهتدائه. وكان عدد الفرّيسيّين، أيّام المسيح، نحو ستة آلاف شخص.

الصدّوقيّون حزب يهوديّ، خصم للفرّيسيّين. هم دون الفرّيسيّين عدداً، ولكنّهم أرقى ثقافةً، وأوفر غنًى، وأسمى مرتبةً، وإليهم انتمى الأحبار والأرستقراطيّة الكهنوتيّة. يسلّم الصدّوقيّون بسلطة التوراة المكتوبة، والأسفار المقدّسة، ويرفضون التفسيرات، والتعاليم الشفهيّة، والتقاليد، ويُنكرون القَدَر، وخلود النفس، وقيامة الأجساد، والثواب والعقاب، ووجود الأرواح. زجّ الصدّوقيّون أنفسهم في السياسة، بل قدّموا الاعتبارات السياسيّة على الاعتبارات الدينيّة، وأقبلوا على الثقافة اليونانيّة. كان منهم رئيسا الأحبار حننيا وقيافا. وحذّر يسوع تلاميذه من تعاليمهم. وكان لهم في المؤامرة على حياته باع طويل (حاشية إونجليون على متى ٣ / ٧؛ ر:

والمسـؤولين عن رفض هذا الشـعب ليسـوع، وعن مأسـاة حياته وآلامـه وموته. جمعهم ليقـول لهم إنّ تعاليم يسوع تهدّدهم وتهدّد توراتهم، وقد تقضي عليهم.

٢. **قـيل لكم** (٥/٢١-٤٤) يقـول يـسـوع: «**٢١. سـمعـتم مـا قيل لآبائكم الأوّلين: لا تـقتلْ، ومَن قـتل دانه القضاء. أمّا أنا فاقول لكم...».**

ويقول: **٢٧. سمعتم ما قـيل: لا تزْنِ. أمّا أنا فاقول لكم: مَن نظر إلى امرأةٍ نظرةً هوى فبها في قلبه زنى.**

ويقول: **٣٣. وسـمعـتم ما قـيل لآبائكم الأوّلين: لا تحنَث في يمينك بل فِ بها للربّ. أمّا أنا فاقول لكم...**

ويقول: **٣٨. سمعتم ما قيل: عين بعين، وسنّ بسنّ. أمّا أنا فاقول لكم: مَن لطم خدّك الأيمن فادِرْ له الآخر..**

ويقول: **٤٣. سمـعتم ما قيل: أحـببْ قريبَك وأبغض عدوَّك. أمّا أنا فاقول لكم: أحبّوا أعداءكم...».**

أتصوّر يسـوع وموسى على قِمّـتَي جبلٍ متـقابلَين يتبادلان الكلام كرجمِ صواريخ. ولكلّ منهما كلام وموقف

متى ١٢/٣٤؛ ٢٣/٣٣؛ لو ٣/٧؛ عا ٥/١٨؛ صف ١/١٥؛ لو ٢١/٢٣؛ رو ١/١٨؛ ٢/٥؛ ٥/٩؛ أف ٥/٦؛ قول ٣/٦؛ ١تس ١/١٠؛ رؤ ٦/١٦-١٧).

ينقض كلامَ الآخـر وموقفه. فلكأنّ يسوع شـاء بهذا الكلامِ الانتهاءَ من شريعة موسى والحدّ منها، ومن سيطرتها على حرّيّة الإنسان وإرادته. إنّها تعاليم ينقض بها يسوع تعاليم التوراة بوضوح.

٣ . **رئيس الأبالسة** (٩/ ٣٤) يقـول مـتّى: **«أمّـا الفـرّيسـيّون فـكانوا يقـولون: إنّه برئيسِ الأبالسـةِ يَطْرُدُ الأبالسة».**

كـلام الفـرّيسـيّين هذا يـؤذي يسـوع في صـمـيم رسالـته، هو الذي جاء ليقـضي على الأبالسة وأعـوانهم، ليخلّص الإنسانَ منهم، فكيف بهم يَحشرونه بينهم؟!

٤ . **الأصغر في الملكوت** (١١/ ١١) قال يسوع «... **ولكنَّ الأصـغـرَ في ملكوت السـمـاوات أعظمُ منه»**، أي من يوحنّا المعمدان.

تفسيـر ذلك، كما جاء في حاشيـة إونجليون: "فاق المعمـدان الآباء والأنبياء، لأنّه أعـدّ مبـاشرةً لمجيء ملكوت الله. ولكنّه لم يدخل المـلكوت؛ فظلّ من أبناء العـهد القـديم؛ ودون أصغرِ مـؤمنٍ بيسوع : لا يقاس العـهد القديم، الذي ختمه المعمدان بالعهد الجديد الذي بدأه يسوع".

٥ . **وحده الابن يعرف الآب** (١١ / ٢٧) قال يسوع: **«آتاني أبي كلَّ شيء. فما من أحدٍ يعرِف الابنَ إلاّ الآب. وما من أحدٍ يعرف الآب إلاّ الابن، ومن يشاء الابنُ كشْفَه له».**

هذا يعني أن لا أحد ممّن سبق يسوع، من أنبياء ورسل، عرف اللّه، كما عرفه يسوع وعرّف عنه. والمسيحيّ مسيحيّ لأنّه يعرف اللّه من خلال يسوع المسيح. ولا يحقّ له أن يعرف اللّه إلاّ من هذه الطريق. لهذا فهو مسيحيّ، لا «إلهيّ»؛ أي ينتسب إلى المسيح الذي يعرفه، لا إلى اللّه الذي لا يعرفه، ولا يمكن أن يعرفه. فلكأنّ إله يسوع غير إله موسى والتوراة؛ وهو حقّاً كذلك، ومن أجل ذلك جاء يسوع.

٦ . **التلاميذ وحرمة السبت** (١٢ / ١–٨) قال متّى: **«١. في ذلك الزمان، في أحد السبوت، جاز يسوع بالزروع. وجاء تلاميذه، فأخذوا يَقطِفون سنابلَ ويأكلون. ٢. ورآهم الفرّيسيّون فقالوا ليسوع: ها هم تلاميذك يفعلون ما لا يجوز فعلُه في سَبت. ٣. قال يسوع: أما قرأتم ما فعل داود وصحبُه حين جاعوا، ٤. كيف دخلَ بيتَ اللّه، وكيف أكل خبزَ التقدمة وأكلوا، وأكلُه لا يجوز له، ولا**

لهم، بل للكهنة وحدَهم. ٥. أوَما قرأتم في التوراة أنّ الكهنة، أيّامَ السبتِ، يَنتهِكونَ في الهيكل حُرْمَةَ السبت، وليس عليهم حَرَج؟ ٦. وأقول لكم: إنّ ما هنا لأعظمُ من الهيكل! ٧. ولو فَهِمتم ما معنى: أريد رحمة، لا ذبيحة! لما حكمتم على من ليس عليهم حَرَج. ٨. لَرَبُّ السبتِ ابنُ الإنسان».

هذا كلام واضح، وموقف جريء جداً من شريعةٍ مقدّسة يقول بها اليهود في توراتهم، وهي شريعة السبت التي اتُّهِم الله بتنزيلها. ويسوع، في هذا الكلام، لا يَرعَى حُرمَةَ السبت، لا هو ولا تلاميذه[8]. لذلك "تكثر الجدالات في شريعة السبت[9]؛ وفيها يظهر سلطان يسوع على الشريعة عامّة، وعلى شريعة السبت، كما يفهمها الفرّيسيّون، بنوعٍ خاصّ".

هذا بالإضافة إلى أنّ الرحمة التي فضّلها يسوع على الذبيحة، إنّما هي شرعة العهد الجديد؛ فيما الذبيحة هي شرعة العهد القديم. والرحمة أعظم من الشريعة.

---

(٨) رَ مر ٣/١-٦؛ لو ٦/٦-١١.

(٩) رَ متى ١٢/٩-١٤؛ لو ١٣/١٠-١٧؛ ١٤/١-٦؛ يو ٥/١ ١٨؛ ٧/١٩-٢٤

وكذلك أيضـاً، اعتبر يـسـوع أنّ الحفاظَ على كـرامة الإنسان أولى من الحفاظ على شـريعة السبت. ويسوع مع الإنسان لا مع الشريعة، وجاء من أجل محبّة الإنسان لا من أجل تطبيق الـشريعة، حـتّى ولو كانت الشريـعة منزلة من عند الله.

٧. **يســوع وحرمـة الـسبت** (١٢/٩-١٤) يقول متّى: «**٩. ثمّ انتقل** (يسوع) **إلى مـجمعـهم، ١٠. فـوافاه إنسانٌ أشلّ. فســألَ الفرّيسيّون يسوعَ: أيجـوزُ الشفاء في السبـوت. سألوه لكي يشكوه. قال يســوع: مَن منكم تكون له نعـجةٌ واحـدة، وتقع سـبْتـاً في حُفـرة، فـلا يُمسِكهـا، ويُقيمها؟ ١٢. وكم الإنسانُ أفضــلُ من نَعجة! ففِعْلُ الخير إذاً جـائزٌ في الســبـوت. ١٣. ثمّ قــال للإنســان: مُـدَّ يَدك. ومدّها. فعادتْ كَهَيْئَتِها صحيحةً كاليد الأخرى. ١٤. فخرج الفرّيسيّون وتشاوروا كيف يَقضونَ على يسوع**».

مرّة أخرى يفـضّل يسوع محبّـة الإنسان على حفظ شريعـة السبت، حتّى ولو كـانت منزلةً من عند الله. فلكأنّ يســوع صنع ما صنع نـكاية بشريعـة الســبت وبالقيّـمين عليهـا، بسبب محــبّته للإنســان، التي تتفوّق على شــريعة

السبت وعلى كلّ شـريعة، أنزلهـا موسى والأنبيـاء، جعلت الإنسان خادماً للشريعة.

٨ . يسـوع والفرّيسـيّون ورئيس الأبالسـة (١٢/ ٢٤) يكمّل متّى قائلاً: **«وسمع الفـرّيسيّـون، فقـالوا: إنّما يَطرُدُ هذا الرجلُ الأبالسةَ ببعلَ زبول، برئيس الأبالسة»...**

إنّها تهمة قاسـية في حقّ مَن لا يعلّم تعاليم الأحبار والرؤسـاء. ويسـوع الذي جـاء ليخلّص الإنسـان من الأبالسة، وممّا تسبّبه من عذابات وعداوات وأمراض، هو يخلّصه الآن ممّا جاءت به التوراة من شرائع وتقاليد أثقلت كاهلَ الإنسان الذي خلقه اللّه حرّاً. هذه أخذ بها اليهود وقدّسوها، فجعلوا الأبالسة تسيطر عليهم.

٩ . فرّيسـيّون يطلبون آية (١٢/ ٣٨) **«كلّم كتبةٌ وفرّيسـيّون يسـوع قالوا: يا معلّم، نريدُ أن نرى منك آيةً. فقال لهم: جيلٌ شرّيرٌ زانٍ يَلَجُّ في طلب آية...».**

فاليهود، بنظر يسوع، كانوا "يتوقّعون مسيحاً يأتي بآيات كونيّة خارقة يثبت بها رسالته، ولكنّ يسوع أبى أن يأتي بمثل تلك الآيات، وأحال سائليه على آية موته وقيامته، معبّراً عنها بآية يونان، وبالثلاثة الأيّام، والثلاث

الليـالي ".. ليست الآيات التي يطلبـها اليـهود من يـسـوع، مقابل آية موته وقيامته، تعني شيئاً.

١٠ . **تقاليد السلف** (١٥/١-٩) قال متّى: «١. **دنا إلى يسوعَ فرّيسيّونَ من أورشليم وكتبة، وقالوا له: ٢. لِمَ يَخرُقُ تلاميذُكَ تقاليدَ السلف، فلا يَغسلونَ أيديَهم، إذا ما أكلوا خبزاً؟ ٣. قال يسوع: وأنتم، لِمَ تَخرُقونَ وصيّةَ الله بتقاليدكم؟.. ٦. فبتقاليدكم أبطلتُم كلمةَ الله».**

تَقاليدُ السَّلَف هي تفسيرات التوراة، التي بدأت شفهيّة، ثمّ دُوِّنَت في القرن الثاني المسيحيّ، كما هي واردة في الميشنا والتلمود. أهمّ هذه التفسيرات يُعنى بالغسل الذي تفرضه التوراة (أح ١١-١٦)، وبالطهارة الجسديّة والروحيّة. أشار بولس الرسول إلى هذه التقاليد[١٠]، وهي قد أثقلتْ مناكبَ الناس، وأصبح العمل بها ضرباً من المُحال[١١]... لقد جاء يسوع ونقضها كلّها.

١١ . **الطاهر والنَّجِس** (١٥/١٠-٢٠) يقول متّى: «١٠. **ودعا** (يسوع) **إليه الجمْعَ، وقال: اسمَعوا وعُوا! ١١.**

(١٠) غل ١/١٤؛ قول ٢/٨ و ٢٢.

(١١) رَ ٢٣/٤ و١٣؛ لو ١١/٤٦ و٥٢؛ رسل ١٥/١٠.

لا يُنَجِّسُ الإنســانَ مــا يَدْخُلُ الـفم، بل مــا يَخـرُجُ مِنَ الفم يُنجِّسُ الإنسان.١٢. عندها دنا التلامـيذ، وقالوا: «اتظُنُّ أنّ الفرّيسيّين زَلّوا إذ سمعوا هذا الكلام؟.. ١٤. دعوهم! إنّهم لَعُمـيانٌ، قادةُ عُـميان، وإنْ قـادَ الأعمى أعمـى فكلاهما في حفرةٍ يَقَعان».

لقــد كان الفــرّيسيّــون يطلبــون آية خاصّـةً من اللّه برهاناً على صــدق رســالة يسوع. ويســوع قـد أتى بآيات كـثـيـرة، ولكنّـهم لم يؤمنوا به. لذلك يـقــول مـتّى: «ودنا الفرّيســيّون والصّـدّوقيّون يمتـحنون يسوع، فـسألوه أن يُرِيَهم آيةً من السماء. فـقال فيهم يسوع مــا قال: إنّهم جيلٌ شرّيرٌ زانٍ»[١٢]. وهو كلام يدلّ على امتـعاض يسوع منهم وعلى رفضه إيّاهم وتعاليمهم.

١٢ . خمير الفـرّيسيّين والصّدّوقيّين (١٦/ ٥-١٢)

جاء في متى : «**٥. ونَسيَ التلاميذ، في عبورهم إلى الضفّة الأخرى، فـما تزوّدوا خبـزاً. ٦. وقال لهم يســوع: تَيَقَّظوا واحذَروا خميرَ الفـرّيسيّين والصّدّوقيّين... ١١. ألا احذَروا خميرَ الفرّيسيّين والصّدّوقيّين**»[١٣].

---

(١٢) ر: متى ١٦/ ١-٤: ١٢/ ٣٨- ٣٩: مر ٨/ ١١-١٣: لو ١١/ ١٦ و ٢٩: ١٢/ ٥٤-٥٥

(١٣) متى ١٦/ ٢٥-١٢، مر ٨/ ١٤-٢١، يو ١٢/ ١-٦.

لقد جمع يسوع بين الفرّيسيّين والصدُّوقيّين، وهما فئتان دينيّتان متخاصمتان في شأن أمور دينيّة كثيرة، واعتبرهما فاسدَين، وحذّر منهما لخبثهما وريائهما. كلاهما من خميرة واحدة، يتّفقان في إفساد المجتمع بالرغم من اختلافهما. فلهذا، لن يسلم يسوع من شرّهما. كلاهما سيشتركان، بالرغم من اختلافهما، في الحكم عليه وقتله. وهما أيضاً لن يَسلما من رفض يسوع إياهما وتعاليمهما.

١٣. يسوع يُنبئ بآلامه وموته وقيامته (٢١/١٦)

قال متّى: «**مُذ ذاك، بدأ يسوع المسيح يُري تلاميذه أنّ عليه أن يذهب إلى أورشليم، ويعاني آلاماً كثيرةً على أيدي الشيوخ والأحبار والكتبة، ويُقتَل، وفي اليوم الثالث يقوم**».

وكذلك ينبئ يسوع ثالثةً بآلامه وموته وقيامته، كما جاء في (متى ٢٠/١٧-١٩). يقول: «**وبينا كان يسوع صاعداً إلى أورشليم خلا بالاثنَي عشَرَ في الطريق، وقال لهم: ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وسيُسلَّم ابن الإنسان إلى الأحبار والكتبة، فيَحكمون عليه بالموت، ويُسلمونه إلى الأمم لتَسخر منه، وتَجلِدَه، وتصلِبَه. وفي اليوم الثالث يقوم**».

لقد كان يسوع يعرف مسبقاً بأنّ هلاكه المحتّم سيكون على أيدي هؤلاء الأحبار والرؤساء والكتبة. سيحكمون عليه بالموت. ذاك لأنّ سلوكه ومواقفه وتعاليمه كانت على طرفَي نقيض من سلوكهم ومواقفهم وتعاليمهم. فالحكم عليه، باسم التوراة، أي باسم الله والدِّين، كان لا بدّ منه، لأنّ يسوع أعلن نفسَه عدوّاً لدوداً لتعاليمهم وتوراتهم وشرائعهم المنافية لمحبّة الإنسان وحقوقه. هذه التي ناضل يسوع ومات من أجلها.

١٤ . **باعة الهيكل** (٢١/١٢–١٧) يقول متّى: **«١٢. ودخل يسوع الهيكل، وطرد منه كلّ الباعة والشُّراة، وقلبَ مناضدَ الصّيارِفة، ومقاعدَ باعةِ الحمام.. ١٤. ودنا منه، في الهيكل، عُميانٌ وعُرجان، فشفاهم. ١٥. اغتاظ الأحبارُ والكتبة، إذ رأوا العجائب التي أتى بها يسوع، والصّبْيَةَ الذين يهتفون في الهيكل: "هوشعنا لابن داود»**.

مرّة أخرى يشير متّى إلى غضب الكتبة والأحبار على يسوع بسبب العجائب التي يأتيها. لقد غضب يسوع عليهم، واتّهمهم بالتجارة وجمْع المال. أمّا المساكين والفقراء والمحتاجون والمرضى فكانوا معه ضدّ هؤلاء الرؤساء.

ثمّ إنّ كلّ ما قام به يسوع، كـان عكس ما كان يقوم به اليـهود وأحبـارهم ورؤساؤهم. لذلـك رفضهم يسوع ورفضوه.

١٥ . **التّـينة اليـابسـة** (٢١/١٨-٢٢) «**١٩. ورأى (يسوع) بالقرب من الطريق تينَةً، فدنا منها، ولم يجد عليها سوى ورق، فقـال لها: لا اثْمُرْتِ إلى الابد! فيبِسَتْ لِوَقْـتها. ٢٠. ورأى التلاميذ ذلك فتعجّبوا**».

التينة، بحسب إونجليون، "هي رمز الشعب الذي لم يؤمن بيسوع". فـيه إنذار بدمار أورشليم وهيكلهـا، وفيه أيضـاً نبـذٌ للشـعب الذي لـم يؤمن، ورفض لتـعـاليـمـهم وتقاليدهم.

١٦ . **بأيِّ سلطان؟** (٢١/٢٣) يقول متّى: «**وبعدما دخل يسوع الهـيكل، وأخذ يعلّم، دنا منـه الاحبار وشـيوخُ الشـعب، وقالوا له: بأيِّ سلطان تفـعل ما تفـعل؟ ومَن آتاك هذا السلطان؟**».

يريد الأحـبار أن ينكروا على يسـوع سلطانَه؛ وهو ليس من طبقـة اللاّويّين، ولا من الأحبار. ولا أحـد من قِبَل اللّه أعطاه إيّـاه. هكذا يريدون أن يذلّوه أمـــام الناس الذين

تجمّعوا حواليه، وأحبّوه، وارتاحوا له عندما راح يخفّف عنهم أثقال الشريعة التي اتّهموا اللّهَ بها. ويسوع كان قد أنكر عليهم حتّى معرفة اللّه.

"السؤال عن سلطان يسوع سؤال خطير[١٤]، وهو سؤال عن مصدره: أمن اللّه أم من الشيطان أم من الناس أم من يسوع نفسه؟ جواب يسوع بسؤال عن يوحنّا المعمدان ليس تهرّباً، بل إحراج للأحبار والشيوخ: الشعب آمن بيوحنّا، وهم لم يؤمنوا، فكيف يسعهم بعدُ أن يؤمنوا بيسوع؟!".

١٧ . ملكوت اللّه يُنزَع منكم (٢١/٤٣-٤٦) «٤٣.. لهذا أقول لكم: ملكوت اللّه يُنزَع منكم، ويُعطى أمّةً يُثمر على يدَيها.. ٤٥. فلمّا سمع الأحبار والفرّيسيّون أمثالَ يسوع، أدركوا أنّه كان يَعنيهم بكلامه، ٤٦. وسَعَوا ليُمسكوه. ولكنّهم خافوا الجموع، لأنّها كانت ترى فيه نبيّاً»[١٥].

أن يُنزَعَ ملكوت اللّه من اليهود فهذا أمر لا يُطيقه

(١٤) رَ ناي ٧/٢٩؛ ٨/١٠؛ ٩/٦؛ ٢٨/١٨.

(١٥) (متى ٢١/٣٣-٤٦؛ مر ١٢/١-١٢، لو ٢٠/٩-١٩) . رَ رو ١١/١١؛ متى ١٤/٥، ٢١/٢٦؛ متى ١٦/١٤؛ ٢١/١١، لو ٧/١٦، ٢٤/١٩؛ يو ٤/١٩؛ ٩/١٧

يهوديّ... وإذا كـان الأمر هكذا، فـمَن هم شعب اللّه المخـتار إذاً؟ ومَن هم الذين يستحـقّون هذا الملكوت؟ ولمن أعطِي في الأصل؟ إنّه تهـديد خطر جـداً، يُطلقـه يسوع علـى اليهـود الذين لم يسـمحـوا لغيـرهم بدخـول هذا الملكوت، لأنّه، في رأيهم، وُجد لهم وحدَهم؛ ولا حظّ فيه لغيرهم.

١٨ . **ما لقـيصـر إلى قيـصر** (٢٢ / ١٥-١٨) قال متّى «١٥. **عندئذٍ مـضـى الفرّيـسيّـون، وتشاوروا كـيف يصطادونَ يسـوع بكلمـة. ١٦. ثمّ أرسلوا إليـه تلاميـذَهم وأشياعَ هيـرودس يقولون: عهدناك صـادقـاً، يا معلمّ، تُعلّمُ بالصّـدق مـا طريقُ اللّـه، ولا تُحـابي أحـداً، لأنّك لا تُراعي مَقامات؛ ١٧. فقل لنا ما تـرى: أيجوز أداءُ جزيةٍ إلى قيصر أم لا؟ ١٨. وعـرف يسوع مكرهم فـقال: لِمَ هذه الأحـابيل، أيّها المراؤون؟**»[١٦].

لقد أشرك الأحبار مـعهم، في اصطياد يسـوع، أتباعَ هيـرودس، أو أشـيـاعـه، وهم، بالإضـافـة إلى الـكتـبـة والفـرّيسيّين، قـادة الشعب جـميـعهم الذين تحـاملوا على يسوع. وهي أنجـح طريقة في الحكم عليـه، بعدمـا حاولوا

(١٦) متى ٢٢/ ١٥-١٦؛ ر. مر ٣/ ٦؛ لو ١١/ ٥٤.

استمالتَه إليهم بغشٍّ ومكر، بقولهم: عهدناك صادقاً، تُعلّم بالصدق، ولا تحابي إنساناً، لأنّك لا تراعي مقامات.. إلاّ أنّ يسوع عرف مكرَهم وغشّهم. وهم أيضاً عرفوا كيف يتحيّنون الفرصة للقبض عليه، فأشركوا معهم أتباع هيرودس، كغطاء لعملهم الإجراميّ.

١٩ . إحذروا الكتبة والفرّيسيّين (٢٣/١-٧) «١.
وخطب يسوع في الجموع وتلاميذه، ٢. قال: «في سُدّة موسى جلس الكتبةُ والفرّيسيّون، ٣. فافعلوا كلّ ما يقولونه لكم واحفَظوا، ومِثلَ أعمالهم لا تَفعلوا، لأنّهم يقولون ولا يفعلون. ٤. أثقالاً يَحزِمون، وعلى مناكب الناس يُلقُون، وهم بإصبَعٍ تحريكَها يأبَون. ٥. همُّهم أن يراهم الناسُ في كلّ ما يَفعلون. تَعاويذَهم يُعَرِّضون، وأهدابَ الرداء يُطيلون. ٦. يُحبّونَ أوائلَ المتّكآت في الولائم، وصدورَ المجالس في المجامع، ٧. والتحيّاتِ في الساحات...»

في هذه الخطبة الجريئة يتّهم يسوع الكتبة والفرّيسيّين بأنّهم يقولون ولا يفعلون، وبأنّهم يحمّلون الناس أحمالاً ثقيلة، وهم لا يمسّونها. هذه الأحمال هي،

كما يقـول إونجليون، "تفاسيرهم الضيّـقة للتوراة، التي لا تُطاق، ولا يُعمل بها". يهتمّون بالظاهر دون الباطن؛ ويزاحمون الناس على المناصب العليا؛ ويحبّون التحيّات والألقاب.. وكلّ ذلك باسم الدِّين... فكيف، والحال هذه، تستوي العلاقة بين يسوع وأحبار اليهود؟!

٢٠ . **الويل للفرّيسيّين والكتبة** (٢٣/١٣-٣٦)

يقول لهم يسوع: ١٣. **ويلكُم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مُرائين: تُغلِقونَ ملكوتَ السماواتِ في وجهِ الناس، لا أنتم تَدخُلون، ولا تَدَعون الدّاخلين يَدخُلون.**

١٤. **وَيلكم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مُرائين: بيوتَ الأراملِ تَلتَهِمون، والصلاةَ دَجْلاً تُطيلون، فيا لَصرامةِ عِقابٍ سوف تُقاسون!**

١٥. **ويلكم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مرائين: تَجوبونَ البحرَ والبرَّ لِتُهَوِّدوا إنساناً، فإذا ما تَهوّدَ صيّرتُموه ابنَ جهنّم ضِعفَ ما أنتم.**

١٦. **ويلكم، يا قادةً عُمياناً تقولون: مَن حلفَ بالهيكل فلا حَرَجَ، ومَن حلفَ بِذَهَبِ الهيكل فهو مُلْزَم**[١٧]..

---

(١٧) متى ١٥/١٤، ٢٣/٢٤؛ يو ٩/٣٨-٤١؛ روم ٢/١٩، «مَن حلف» نقدٌ لطريقة علماء

١٧. يا للحمقى العميان!.. ١٩. يا للعميان!..

٢٣. ويلكم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مُرائين: تُؤدّون عشورَ النعنع والشومار والكمّون[١٨]، وتُهمِلونَ ما هو في التوراة أخطر: العدلَ والرحمة والوفاء. وكان عليكم أن تعملوا بهذا، ولا تُهمِلوا ذاك. ٢٤. يا للقادة العميان! تُصفّونَ الشرابَ من البَعوض، وتبلَعون الجمَل!

٢٥. ويلكُم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مرائين: ظاهرَ الكأس والصَّحْن تُنَقّون، وباطنُهما بنَهْبٍ ونَهَمٍ مَشحون. ٢٦. يا فرّيسيّاً أعمى، نقِّ باطنَ الكأسِ أوّلاً لِيَنْقى ظاهرُها أيضاً.

٢٧. ويلكم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مرائين: يا مَن تُشبِهون قبوراً مجَصّصة، ظاهرُها يبدو بهيّاً، وباطنُها ركامُ رُفاتٍ وأرجاس!. ٢٨. لِمثْلِها أنتم! في الظاهرِ تبدون للناس أبراراً، وباطنكم مشحونٌ رياءً وإثماً!.

٢٩. ويلكم، يا كتبةُ وفرّيسيّين مُرائين: مَدافِنَ الأنبياءِ تَبنون، وضرائح الصِّدّيقين تُزَخرِفون، ٣٠.

الناموس في حلّهم من النذور: يدّعون أنها تستند إلى توراة الله، وهي في الواقع احتيال عليها».

(١٨) أمر موسى (تث ١٤ / ٢٢) بأداء العشور عمّا تنبته الأرض سنويّاً. وغالى الفرّيسيّون فأمروا بأدائها عن أعشاب ضئيلة القيمة.

وتقـولون: لو كنّا في أيّام آبائنا لما كُنّا لـهم في دم الأنبيـاء شُركاء، ٣١. فإنّكم على أنفـسكم تشهَدون: لأنتم أبناء مَن قَتَلوا الأنبياء، ٣٢. فاملأوه كيلَ الآباء!.(١٩)**.**

٣٣. لحَيّاتٌ أنـتم، سُلالةُ أفـاعٍ، فكيف مِـن عِقـابِ جهنّمَ تَهربون؟ ٣٤. لذلك ها أنا أرسِلُ إليكم أنبياءَ وحكماء وكتبةً، فتَقـتُلونَ منهم وتَصلبون، وفي مجامعكم تَجلِدون، ومن مـدينة إلى مدينة تُطارِدون. ٣٥. فـيقَعُ عليكم كـلُّ ما سُـفِكَ على الأرضِ مِن دمٍ زكيٍّ، من دمِ هابيلَ البـارِّ إلى دمِ زكريّا بن بَرَكْـيا، ذاك الذي قتلتُمْ بـين الهيكل والمذبح. ٣٦. الحقَّ أقول لكم: سيقعُ كلُّ هذا على هذا الجيل!».

من الصـعب المستـصـعب، اختـصـار هذا الكلام الشـامل الذي استوحى يسـوع مضمونه من سلوك رؤسـاء اليهود وأحبارهم، الذين عرفهم معرفةً عميقةً وحقيقيّةً. فأيَّ شيء لم يقله عنهم، ولم ينعتهم به! إنّهم حمقى، وعميان، وحيّات، وسـلالة أفاعٍ. يقـودون الناس إلى الهـلاك. هم قَـتلة، أبناء قتَـلة. قتلوا الأنبـياء في أقـدس مكان على الأرض، أي «بين الهيكل والمذبح».

---

(١٩) آخر الويلات السبعة توجز تاريخ الخلاص: الفرّيسيّون سائرون على خطى آبائهم، قتلة المرسلين والأنبياء، قادمون على مقتل يسوع (٢١/٢٨-٣٩).

ما عسى يكون مصير يسوع الذي نخع الأحبار وهاجمهم، ولم يترك عليهم ستراً يسترهم؟!

٢١ . المؤامرة على يسوع (٢٦/٣-٥) جاء في متّى: **«حينئذٍ اجتمع الأحبارُ وشيوخُ الشعب في دار عظيم الأحبار، المدعُوِّ قَيافا[٢٠]؛ وتشاوروا لكي يَقبِضوا بحيلةٍ على يسوع، ويَقتُلوه. ٥. على أنّهم كانوا يقولون: لا في العيد لئلاّ يقعَ في الشعب شغب».**

لقد "كان الأحبار وشيوخ الشعب، كما يشرح إونجليون، قرّروا قتل يسوع بعد العيد، ولكنّهم عادوا عن قرارهم، وقتلوا يسوع في العيد، بسبب خيانة يهوذا"، وبسبب أنّ يسوع لم يعد يُحتمل، والشريعة تقضي بقتله. فلا بدّ، إذاً، من حيلة لكي ينفّذوا ما تأمر به الشريعة.

إنّنا لا نستغرب إطلاقاً مصير يسوع هذا، ومسيرته المحتمة نحو الصليب. فالأسباب باتت واضحةً جدّاً، فيسوع لم يتركْ على رؤساء الدين هؤلاء ستراً يستر مكرهم ورياءَهم.

(٢٠) قيافا: ذو نفوذ في المجلس اليهوديّ. قام بدور كبير في الحكم على يسوع (متى ٢٦/٥٧؛ يو ١١/٤٩؛ ١٨/١٣)، وعلى الرسولين بطرس ويوحنّا (رسل ٤/٦).

٢٢ . خيانة يهوذا (٢٦/ ١٤–١٦) قال متّى: **«١٤. عندئذٍ ذهب إلى الأحبار أحدُ الاثنَي عَشَر، الذي يُدعى يهوذا الإسخَرْيوطيّ، ١٥. وقال لهم: ما تُعطوني فأُسلِمَه إليكم؟ فوزَنوا له ثلاثينَ من الفضّة**[٢١]**. ١٦. ومذ ذاك أخذَ يتلمّسُ فُرصةً ليُسلِمَه».**

يعلّق إونجليون: "كان يسوع يعلّم كلّ يوم في الهيكل (لو ٢١/ ٣٧)، وكان في وسع اليهود أن يلقوا القبض عليه، دون الاستعانة بيهوذا. ولكنّ يسوع آثر التخفّي في المدّة الأخيرة من حياته (يو ١١/ ٥٧)، فاحتاج الرؤساء إلى يهوذا ليدلّهم على مكانه (يو ١٨/ ٢)".

هنا أيضاً إمعانٌ في الشرّ في استعمال اليهود شخصاً من تلاميذ يسوع لكي يُسلمه إليهم، ويشاركهم، بالتالي، في الجريمة. لقد لبّى يهوذا رغبةَ الأحبار والرؤساء. وكلّهم شاؤوا ما تشاؤه التوراة والشريعة الموسويّة. فمصير يسوع إذاً واضح ومحتّم.

٢٣ . القبض على يسوع (٢٦/ ٤٧) **«وإنّه لَيَتَكلّمُ،**

---

(٢١) ثلاثون من الفضّة: ديّة عبد (خر ٢١/ ٣٢). وأجر راع صالح قضى عمره في الخدمة (زك ١١/ ١٢–١٣).

إذ وافى يهوذا، أحدُ الاثنَي عشَر، وقد أرسله الأحبارُ وشيوخ الشعب، ومعه عِصابةٌ كثيرةٌ مسلَّحةٌ بسيوفٍ وعِصيّ».

إنّه عمل الأحبار والشيوخ ورؤساء اليهود الغيورين على الشريعة والمناضلين من أجل تطبيقها... أغروا أحد التلاميذ بالمال، والمال ربّ ثانٍ يغري حتّى الأبرار والكبار والأغنياء. لهذا توفّق الأحبار بخطّتهم. وكان يسوع يعلم بهذه الخطّة وبأنّ خصومه سيستعملون المالَ ضدّه. وقد حذّر سابقاً من شرّه. فلا بدّ وأنّهم سينجحون في خطّتهم، لأنّ المال خائن والشريعة الإلهيّة يجب أن تُنفّذ، ولو كان الإنسان هو الضحيّة.

٢٤ . **أمام المجلس** (٢٦/ ٥٧-٦٨) قال متّى: «٥٧. **وساقوا يسوع إلى عظيم الأحبار قَيافا. وفي دار قَيافا اجتمعَ الكتبةُ والشيوخ. ٥٨. وكان بطرسُ يتبَع يسوعَ من بعيد. وبلغ دارَ عظيمِ الأحبار فدخل، وجلس مع الخدَم، ليرى النهاية. ٥٩. وكان الأحبار، وكلُّ أعضاء المجلس، يبحثون عن شهادةِ زُورٍ على يسوع لِيَقتُلوه[٢٢]. ٦٠. ولم**

---

(٢٢) حُكم على يسوع بالموت قبل أن يُحاكَم. شهادة الزور تغطية.

يَجِدوا، مـع أنّ شهودَ زورٍ كـثيـرينَ تقدّمـوا. وأخيـراً مَثَلَ شـاهدا زورٍ ٦١. يقـولان: هذا الرجـلُ قـال: يَسَـعُني هدْمُ هيكل الله، ثمّ بناؤه في ثلاثة أيّام[٢٣].

٦٢. فقـام عظيمُ الأحبار، وقـال ليسوع: أمـا تُجيبُ بشيء؟ مـا الذي يشـهـد به هذانِ عليك؟ ٦٣. فظلّ يسـوع صامـتاً. قـال له عظيمُ الأحبـار: باللهِ الحيِّ قل لنا: هل أنتَ المسيحُ ابنُ الله؟[٢٤] ٦٤. قال يسـوع: أنت قلتَ. وأنا أقول: منذ الآنَ ترونَ ابنَ الإنسان جالساً عن يمينِ العِزّة، آتياً على غَمامِ السماء.

٦٥. عندئذٍ شقّ عظيمُ الأحبار ثيـابَه، وهو يقول: لقد جـدَّف! أنحنُ بحاجـةٍ بعدُ إلـى شهـود؟ لقد سـمعـتم الآنَ التجـديف، ٦٦. فمـا تَرَونَ؟ قالوا: إنّه يَسـتحِقُّ الموت. ٦٧. فبـصَقوا في وجهـه، ولطموه، ولكمَه بعضُـهم ٦٨. قائلين: تنبّأ، أيّها المسيح! قُلْ لنا مَنِ الذي ضرَبك؟».

مشـهد آخر حيث يسـوع واقف أمام مجلس الأحبار

---

(٢٣) الهيكل الجـديد: أنبأ يسوع بدمـار هيكل أورشليم، بنهاية العـبادة اليهـوديّة (متى ٢٤)، وبقيـام هيكل جديد حيٍّ مكانه، هو يسـوع نفسه القـائم من الموت (متى ١٦/ ٢١؛ ١٧/ ٢٣، ٢٠/ ١٩؛ يو ٢/ ١٩-٢٢).

(٢٤) أش ٥٣/ ٧؛ متى ٢٧/ ١٢؛ ١٦/ ١٦-١٧؛ ٤/ ٣، ٦). ١٤؛ لو ٢٣/ ٩؛ يو ١٩/ ٩.

والشيوخ، يتلقّى الضــربة بعد الضربة والإهانة تلو الإهانة. لقـد اتُّهم أخـيـراً بأنّه يجـدّف علـى اللّه. وهل في التـوراة شتـيمة أعظم من هذه؟! بعد الـتجديف لا يحتـاج العدل إلى شهود؛ يعني: لقـد حكم يسوع على نفسه، عندمـا قام ضدّ التوراة وإله التوراة وتعاليم التوراة، وعندما قال أيضاً: إنّي كنت عند اللّه، وسوف أرجع إليـه.. إنّه حقّاً كلام لا يُحـتمل في موازين العـقل البشري، ولا في أحكام شريعـة التوراة الإلهيّـة، ولا في الأديان جميـعها.. فكيف ينجـو يسوع من هذه الورطة؟! بل مَن ينجّـيه؟ إله التوراة؟ وقـد طعن يسوع به في الصـمـيم؛ أم الشـيوخ والأحـبـار؟ وقد عـارضــهم وأهانهم ورفض تعاليمهم وتفاسيرهم؟!

٢٥ . إلى بيلاطس (متى٢٧ / ١–٢) وبعد هذا كلّه، دفع اليهود بيسوع إلى بيلاطُس: **«ولمّا أسفر الصبحُ تشاور كلُّ الأحبـار وشيـوخ الشعب، وهَمُّـهم قتلُ يســوع. ٢. ثمّ أوثقوه، وإلى بيلاطسَ ساقوه، فأسلموه».**

يردّد مـتّى ويشــدّد على أنّ **كلّ** الأحـبار وشـيـوخ الشعب كان همّهم قتل يسوع، من دون شهود، أي من دون محاكمة ودعاوى ومحـامِين ومدافعِين. وحدهم المتسلّحون

بالتوراة وتعاليم الدين يستطيعون تخطّي العوائق. حكم التوراة وحده يكفي. ولكنّهم، في ظلّ الحكم الروماني، لا يستطيعون تنفيذ الإعدام؛ بل تجب موافقة القضاء الرومانيّ على الأمر. لذلك التجأوا إلى المحكمة الرومانيّة، التي هي أكثر عدلاً، على ما يبدو، من الدِّين والتوراة وإله التوراة والأحبار والشيوخ.

٢٦ . **أمام بيلاطس** (٢٧/ ١١–١٨) لهذا، «١١. **مثَلَ يسوع بين يدَي الوالي فسأله: أمَلِكُ اليهودِ أنت؟ قال يسوع: أنتَ تقول. ١٢. وعمّا اتّهمه به الأحبارُ والشيوخُ لم يُحِرْ جواباً. ١٣. قال له بيلاطس: الا تَسمعُ كم يَشهدون عليك؟ ١٤. فلم يُجبْه عن أيّ سؤال. وعَجِبَ الوالي كلَّ العَجَب. ١٥. وكان من عادة الوالي، في كلّ عيد، إطلاقُ سجينٍ يختارُه الجمْع، أيِّ سجين. ١٦. وكان ثمّةَ يومئذٍ سجينٌ شهيرٌ اسمُه بَرَأبّا، ١٧. فقال بيلاطس للجمْعِ المحتشد: أيّما أُطلِق لكم: أبرأبّا أم يسوع، الذي يقال له المسيح؟ ١٨. وكان يعلم أنّ الأحبار والشيوخ إنّما حسداً أسلموه».**

"يقتصر متّى، في محاكمة بيلاطس ليسوعَ، على

أمـرين: اتّهـام يسـوع بالثـورة على الرومـان وطلب المُلْك لنفسه، ورفض الشعب الـيهوديّ له. وعلى الرومان الآن أن يُحـبطوا الثـورة عليهم، وأن يهـمـدوا غضب الـيهـود على يسوع.

فـثـورة يـسـوع ثورتان: ثورة على إلـه الرومـان، وثورة على إله التوراة. ثورة يسـوع هذه تشبه ثورة برأبّا. لهذا فـالخيـار بين برأبّا ويسوع كـان خيـاراً ناجحـاً. لهذا أُدرجتْ قصّتُه هنا مع قصّة يسوع.

٢٧ . مسـؤوليّة قـتل يسوع (٢٧/١٩-٢٦) «١٩.
وبَينا هو (أي بيلاطس) **جالسٌ على مِنَصَّـةِ القضاء أرْسلتِ امرأتُه تقول له: ما لكَ ولهذا البـار؟ بسببه تعذّبتُ اليومَ في الحُلم عذاباً شديداً. ٢٠. وكان الأحبـار والشيوخ قد أقنعوا الجموعَ بأن تَطـلقَ برأبّا، وتُهلكَ يسوع. ٢١. وتكلّم الوالي قـال: أيّهمـا تريدون أن أُطلق لكم؟ قـالوا: برأبّا. ٢٢. قـال بيلاطس: وما أفـعلُ إذاً بيسوع الذي يُقال له المسيح؟ قالوا جـميـعُهم: لِـيُصلَبْ! ٢٣. قـال: وأيَّ قبـيحٍ أتى؟ فـتعـالى صـياحُـهم: لِيُصلَبْ. ٢٤. ورأى بيلاطس عُـقْمَ مـسعـاه. وتفاقم الهيجان، فـأخذَ ماءً، وغسل يديه بمرأى من الجمع،**

وقال: بريءٌ أنا من دم هذا البارّ! أنتم انظروا![٢٥]. ٢٥. هتف الشعبُ بأسْرِه: دمُه علينا، وعلى أولادنا!. ٢٦. فأطلقَ لهم برابًا. أمّا يسوع فجلده، ثمّ أسلمَه لِيُصلَب».

يعلّق إونجليون: "يجاهر بيلاطس الوثنيّ وامرأته، في إنجيل متى، ببراءة يسوع (١٩و ٢٤)، وهذا يضخّم من مسؤوليّة اليهود شعباً ورؤساء... وفي غسل بيلاطس يديه، وتبرئة نفسه من دم يسوع، تُلقي التبعة كلّها على الشعب اليهودي". ومع هذا يتحمّل بيلاطس مسؤوليّة تنفيذ الحكم، ومسؤوليّة الجبانة أمام الشريعة الموسويّة. إنّما الكلّ يريد قتل يسوع، لأنّ يسوع كان يرفض تعاليمهم وتعاليم توراتهم.

٢٨ . الصلب (٢٧/ ٣٧-٤٤) «٣٧. **وعلّقوا فوق رأسه ما كان سبب صلبه، فكتبوا : هذا يسوعُ، ملك اليهود.. ٣٩. وكان المارّةُ يَشتُمونَه، ويَهُزّونَ الرؤوس.. ٤١. وكذلك سَخِرَ الأحبار، وسخِرَ معهمُ الكتبةُ والشيوخ».**

هنا قمّة عداوة اليهود ورؤسائهم ليسوع، إذ راحوا،

(٢٥) بريء أنا: بهذا التعبير المألوف في التوراة (تث ٢١/٦-٨، مز ٢٦/٦: ٧٣/ ١٣) يتبرّأ بيلاطس من دم يسوع، ويُلقي التبعة كلّها على الشعب اليهودي

حتّى بعد موته على الصليب، يهزأون به، ويشتمونه، ويبصقون في وجهه. لهذا يضع المسيحيّون تبعة موت يسوع، لا على الرومان الذين نفّذوا، بل على اليهود الذين أصرّوا على التنفيذ بهذا القدْر من الإهانة، وذلك باسم التوراة والشريعة الإلهيّة.

٢٩ . اليهود يَرشُونَ الحَرَس (٢٨ / ١٢–١٥) «**١٢. واجتمع الأحبارُ والشيوخُ، وتشاوروا، ورَشَوا الجنودَ بمبلغ ضخمٍ من الفضّة. ١٣. وقالوا لهم: هم تلاميذُه أتَوا ليلاً، في أثناء نومنا، وسرقوه.. ١٥. فأخذ الجنودُ الفضّة، وعمِلوا بما لُقِّنوا، وشاع في اليهود ما قالوا حتّى يومنا**».

ليس من حيلة بعد كلّ ذلك إلاّ الرشوة، رشوة الجنود الرومان بالمال، ليرتاح رؤساء اليهود والأحبار من قصّة يسوع، ومن حدَثِ القيامة التي كانت الصدمة الأخيرة، كما كانت النصر المؤكّد ليسوع عليهم وعلى أعوانهم، الذين هم: الشعب اليهوديّ، والشيوخ، والأحبار، والكتبة، والفرّيسيّون، والصدُّوقيّون، وكلّ من تسلّح بتعاليم التوراة والشريعة المنسوبة إلى الله.

***

هكذا روى متى في إنجيله موقف يسوع من اليهود، ورؤساء اليهود، وتقاليد اليهود، وشرائع اليهود، في السبت، والختان، والزنى، والرجم، والقتل، وغيرها...

فلكأنّ يسوع جاء فعلاً ليوقف مفعول العهد القديم ويبدأ بعهدٍ جديد. جاء ليعيد للإنسان حرّيّته التي ميّزه اللّه بها، وخلقه لها.

لقد جاء يسوع ليخلّص الإنسان من قيود الشريعة التي أحكمتْ ربطَه بعمد السماء... هذه هي رسالة يسوع الأساسيّة، والوحيدة، في خلاص البشر من قيود وضعها البشر على أنفسهم باسم اللّه.

وهذه هي المسيحيّة في تعاليمها، ومبادئها، وعقائدها، وسلوكها. وفي هذا هي تتميّز عن سائر الطرق، أو الأديان، التي تسيّر الإنسان نحو اللّه.

وها هو اللّه نفسه، مع يسوع ابنه، يتولّى تحطيمَ هذه القيود..

الفصل الثاني

يسوع في إنجيل مرقس

أمّا مرقس فقد كتب الشيء نفسه في موضوعات كثيرة رآها في مواقف يسوع من الدين اليهودي والتوراة والأحبار وتقاليد السلف. من هذه المواقف والتعاليم الأحداث التالية:

١ . **يسوع يجدّف** (مر ٢/٦-٧) يقول مرقس: «٦. **وكان في الجالسين كَتَبة، ففكّروا في قلوبهم: ٧. ما لهذا يتكلّم هذا الكلام؟ إنّه يجدّف! مَن يَسَعُه غفرانُ الخطايا إلاّ اللهَ وحده؟**».

لقد أعطى يسوع الفرصة للكتبة لكي يتّهموه بالتجديف؛ وما كانوا ليتّهموه لو لم يتح لهم الفرصة. ومن الطبيعي أن يتّهم اليهود يسوع بما جاء به من أعمال هي من خصائص الله وحده، مثل مغفرة الخطايا. وفي ذلك تعدٍّ

على حقوق الله، وعلى تعاليم التوراة ومبادئ الدين اليهوديّ برمّتها. فالشفاء، أي الرحمة بالإنسان، أقلّ أهمّيّة، بنظرهم، من الحفاظ على حقّ الله.. لهذا ستقع العداوة بين يسوع واليهود بسبب أنّ يسوع كان أكثر محبّة للإنسان منهم ومن شريعتهم وتعاليم دينهم، بل من إلههم الذي يؤثرون محبّته على محبّة الإنسان.

هذه العداوة وقعت لا محالة بسبب موقفَين متناقضَين بين يسوع واليهود. يسوع يُبدي محبّة الإنسان، فيما اليهود يبدون محبّة الله.

٢ . **دعوة لاوي** (٢/ ١٥–١٨) يقول مرقس: «١٥. **في بيتِ لاوي اتّكأ يسوعُ يأكل، واتّكأ جُباةٌ وخطاةٌ كثيرون يؤاكلون يسوعَ وتلاميذَه.** ١٦. **ورأى كَتَبَةٌ فرّيسيّون أنّ يسوعَ يؤاكل الخطاةَ والجباةَ، فقالوا لتلاميذه: ما له يؤاكلُ الجباةَ والخطاة؟** ١٧. **وسمع يسوع فقال لهم: لا يَفتقِرُ الأصحّاء إلى طبيب، بل المرضى، ما جِئتُ لأدعوَ أبراراً، بل خطاة**[1]. ١٨ . **وكان تلاميذ يوحنّا والفرّيسيّون صائمين،**

(١) كان يُقصد بالخاطئ ذو السيرة السيّئة، والقائم بوظيفة غير شريفة، كجباية الضرائب للدولة الرومانيّة، مثلاً. وما كان يُسمح للمؤمن أن يؤاكل هؤلاء الخطاة لئلاّ يتنجّس. وقد رفض يسوع هذا التحريم مشبّهاً نفسه بالطبيب: المريض يحتاج إلى طبيب. والخاطئ مريض، ويسوع طبيبه (حاشية على مر ٢/ ١٥).

فأتى مَن يـقول ليســوع: لماذا تلاميـذ يوحنا والفرّيســيّون يصومون، وتلاميذك لا يصومون؟».

في إشارة مـرقس إلى مؤاكلة يســوع الخطأة، وإلى عدم صيام تلامــيذه، مخالفة مباشــرة لشريعة التوراة. بل هي مخــالفة قــاتلة لشريعــة أساســيّة في الدين اليــهوديّ. فلكأنّ يســوع، في مـرقس، جـاء ليـنقض تعـاليم التــوراة وشريعة اللّه، ويبدلها بشيء آخر، سوف يتّضح لنا ما هو.

٣ . **لا حرمــة للسبت** (٢/٢٣-٢٨) **«٢٣. في أحد السبوت، جاز يسوعُ بالزروع، فأخذَ تلاميذُه يَمشون، وهم يَقطِفون السنابل. ٢٤. قال الفرّيسيّون ليسوع: ألا انظُر! لِمَ يفعلون مــا لا يجوز فــعلُه في السبــوت؟.. ٢٧. ثمّ قال لهم: السبتُ للإنسان، لا الإنسان للسبت، ٢٨. فابنُ الإنسان ربُّ السبتِ نفسِه».**

واضـح أنّ يسوع هنا ينال من أقــدس ما في التوراة والشريــعة اليهــوديّة، أي من حرمــة يوم السبــت، حيث لا يجوز للإنسان اليهــودي في هذا اليوم أيّ نشاط أو عمل أو حركــة. وحجّة الــيهود في ذلك أنّ اللّه نفــسه اســتراح يوم الســبت، فكم على الإنسان أن يتــشبّــه باللّه ويمتنع عن أيّ عمل يوم السبت؟!

وحجّة يسوع هي أنّ السبت وُجد للإنسان لا الإنسان وُجد للسبت. وهذه من تعاليم يسوع الأساسيّة التي تخالف تعاليم الدِّين اليهوديّ مخالفةً مباشرة.

٤ . يسوع نفسه لا يرعى حرمة السبت (٣/ ١-٦)

يقول مرقس: «١. **عاد يسوعُ فدخل مجمَعاً. وكان ثَمّ إنسانٌ أشَلّ. ٢. وكان الفرّيسيّون يراقبون هل يَشفيه يسوعُ يومَ السبت، لكي يَشكُوه. ٣. قال يسوع للأشَلّ: قم في الوسْط. ٤. ثمّ سأل: أفِعْلُ الخير يجوز، يومَ السبت، أم فِعل الشرّ، إنقاذُ نَفْسٍ أم قتلُها؟ فلزم الفرّيسيّون الصمت. ٥. أجال يسوع فيهم الطّرْفَ ساخطاً، حزيناً لقساوة قلوبهم، ثمّ قال للإنسان: مُدَّ يَدَك. فمَدّها. وعادتْ كهيئتِها. ٦. وللوقت خرج الفرّيسيّون وأشياعُ هيرودس، وأخذوا يتشاورون كيف يَقضون على يسوع**».

يضيف مرقس إلى إلغاء شريعة السبت اتّهامَ يسوع الفرّيسيّين بقساوة قلوبهم، وبعدم إيمانهم برسالته، وبتصميمهم على قتله. ومرقس، بحسب إونجليون، "يتفرّد بهذا التعبير، ويرى فيه السببَ الحقيقيَّ، الذي حال دون إيمان الفرّيسيّين بيسوع، وفَهمِهم لرسالتِه".

فواضح، إذاً، أنّ ليسوع رسالةً تخالف تعاليمَ

الفرّيسيّين وأحـبار اليهود، وتضعـه في تناقض تامّ معهم، ورفضٍ كامل لتعاليمهم، بل وفي حالة عداء مستحكم.

٥ . **إنّه إبليس** (٣ / ٢٢) يشـدّد مـرقس على اتّهـام الكتـبة يسـوعَ بإنّه إبليس، بل رئـيس الأبالسة. قـال: «**أمّا الكتبـة الهابطون من أورَشليم فكانوا يقولون: إنّ فـيه بَعْلَ زَبُول، وبرئيسِ الأبالسة يَطرُد الأبالسة**».

هكذا قالـوا عن يسوع. وما على يـسوع إلاّ أن يدفع عن نفـسه هذه التـهـمة، لا ببـراهين وحـجج، بل برفضـه تعالـيمهم رفـضاً كـاملاً ونهـائيّاً. لهـذا كانت المعـركة بين يسوع ورؤساء اليهود حامـية الوطيس، حتّى أودتْ بحياته بأذلّ ميتة، أي على الصليب، خشبة العار والذلّ.

٦ . **النَّجِسُ والطاهر** (٧ / ١–١٣) يقول مرقس: «١. **وتجمّع لدى يسوع الفرّيسيّـونَ، وكتبةٌ آتون من أورشليم. ٢. وراوا بعضَ تلامـيـذِه ياكُلون بايدٍ نَـجِســة، اي غـيـر مَغسولة. ٣. وكان الفرّيسـيّون، وكلُّ اليهود، يُعنَونَ بغَسْلِ أيديهم قـبلَ الأكل، عمـلاً بتـقاليـدَ اخرى كـثيـرة، كغَـسْلِ الكؤوس، والجِرار، وآنيـةِ النُّحاس. ٥. فهؤلاء الفـرّيسيّون والكَتَبةُ ســالوا يسوع: لِمَ لا يَسيرُ تلاميذُك بحـسب تقاليد السّلَف، بل ياكُلون بايدٍ نجِسة؟ ٦. قال لهم: نِعْمَ ما تنبّأ به**

آشَـعْيـا عنكم، أنتمُ المرائين، إذ كـتَبَ: يُكَرِّمُني هذا الشـعبُ بشفَتَـيهِ، وقلبُه منّي بعيد. ٧. باطلة عبـادتُه، ووصايا بشَرٍ تعاليـمُه. ٨. لقد تـهاونتُم بوصيّـةِ الله، وتمسكتُم بتقـاليدِ الناس. ٩. وتـابع: نِعْمَ ما تعـمَلون! تتهاونونَ بوصـيّةِ اللّه لِتَرعَـوا تقاليـدَكم!. ١٣. فهكذا تُبطِلون كلمـةَ الله بتقـاليدَ تتناقلون، واموراً كثيرةً مِثْلَ هذه تَفعَلون».

يشدّد مرقس عـلى موقف يسوع من تقاليـد اليهود التي تناقض وصـيّة اللّه؛ وقـد عاد يسوع ثـلاث مرّات في هذا الفـــصل (٧/٨، ٩، ١٣) على هذا الانـحـــراف. وهذا مـوضـع انتقـاد شديد منه لتـصرّف اليـهود وتفـسيـرهم لوصيّـة اللّه. لذلك كان العداء بـين الطرفَين: فبالنســبة إلى يسوع: "الوصيّة هي الأصل، والـتقليد تفاسير غيـر مهمّة، فكيف يُهمَل الأصل للتفسير؟ "[٢].

إنّ التـميـيز بين الطاهر والنَّجِس سـبب من أسبـاب العـداء بين يســوع واليـهود. لهـذا سـيكون، بســبب ذلك، انتصـار اليهود على يسـوع، ثمّ الـحكم عليه الـحكم المبرم.

٧ . جـدال بين يسوع والـفرّيســيّين (٨/ ١١-١٣)

يذكر مرقس لقاء يسوع والفـرّيسيّين، فيقول: «**١١. وافى**

(٢) ر. حاشية على مر ٢/٨.

الفرّيسيّون، وطفقوا يجادلون يسوع، ويطلبون آيةً من السماء امتحاناً له. ١٢. فتنهّد من الأعماق، وقال: لِمَ يَطلُبُ هذا الجيلُ آيةً؟ الحقّ أقول لكم: لن يُعطى هذا الجيلُ آية. ١٣. ثمّ تركهم.. وانصرف».

هنا ذكْر للجدال بين يسوع والفرّيسيّين، يطلب فيه الفرّيسيّون من يسوع «آيةً من السماء امتحاناً له». إنّه حدَث سوف يأخذ الفرّيسيّون فيه موقفاً عدائيّاً صارماً من يسوع. ورأى يسوع أنّ أفضل موقف الآن، لكي يستطيع أن يُكمل رسالته حتّى الأخير، هو أن يترك الجدال مع الفرّيسيّين، وينصرف إلى الضفّة الأخرى. فالجدال، في نظر يسوع، لا يُجدي، أكثر الأحيان، نَفْعاً، بخاصّة مع المستكبرين والمرائين والمدَّعين. هؤلاء يرون الآيات ولكنّهم لا يفقهون معانيها.

٨ . **قساوة الفرّيسيّين** (٨/ ١٤–١٥)، يذكر مرقس هذا الحدث الذي فيه يحذّر يسوع من شرّ الفرّيسيّين، يقول: «**١٤. وكان التلاميذ قد نَسُوا فما تزوّدوا خبزاً، ولم يكن معهم في القارب سوى رغيف واحد. ١٥. وأوصاهم يسوع، قال: تَيقّظوا، واحذَروا خميرَ الفرّيسيّين، وخميرَ هيرودس».**

من الطبيعي أن يشمل يسوع هيرودس مع الفرّيسيّين. فمن كليهما يجب الحذر والحيطة، لأنّهما في القساوة على الناس سواء. هؤلاء يقسون على الناس باسم التوراة، وأولئك باسم القيصر.. ويسوع يرغب في خلاص الإنسان من الشرائع الإلهيّة ومن القيصر معاً.

٩ . يسوع يُنبئ بآلامه وموته وقيامته (٨/ ٣١-٣٣) قال مرقس : «**٣١. وبدأ يسوعُ يعلّم التلاميذَ أنَّ على ابن الإنسانِ أن يتألم كثيراً، ويَرْذُله الشيوخُ والأحبارُ والكتَبَة، وأن يُقتَل، وبعدَ ثلاثةِ أيّامٍ يقوم**».

هنا يذكر مرقس أيضاً، لا عمّا سيحدث ليسوع في آخر حياته فحسب، بل عن عمل الشيوخ والأحبار والكتبة ورذلِهم له ونيّتهم في قتله. والسبب بات معروفاً، وهو أنّ تعاليم يسوع تخالف تعاليمهم جذريّاً. لهذا يجب أن يُقتَل لمخالفته تعاليم التوراة والشريعة اليهوديّة.

١٠ . الزواج والطّلاق (١٠/ ٢-٧) يقول مرقس: «**٢. ودنا منه فرّيسيّونَ يسألون، ويَمتَحنون: أيجوزُ لرجلٍ أن يُطلِّقَ امرأةً؟ ٣ قال: وبمَ أوصاكم موسى؟ ٤. قالوا: أجازَ موسى أن نكتُبَ شهادةَ الطلاق ونُطلّق. ٥. قال: لِقساوةِ قلوبكم كتب لكم موسى هذه الوصيّة. ٦. ولكنّ**

الله، مذ خلق، ذكراً وأنثى صنعهما، ٧. ولهذا يَترُكُ إنسانٌ أباه وأمّه».

هنا يشير مرقس إشارة واضحة إلى مخالفة يسوع لتصرّفات اليهود والشريعة الموسويّة في شأن الزواج والطلاق، ويشدّد يسوع على وصيّة الله الأساسيّة، التي تقضي بالوحدة الزوجيّة الثابتة، وبدوام الحبّ (تك ١/ ٢٧، ٢/ ٢٤). وهكذا يبقى الزواج، في رأي يسوع، رمزَ عهدٍ أبديٍّ بين الله وشعبه.. وهذا موضوع خلاف جسيم بين يسوع واليهود، مارسوا فيه الاحتيال للإيقاع به.

١١ . يسوع ينبئ ثالثةً بآلامه وموته وقيامته

(١٠/ ٣٣-٣٤) جاء في مرقس قول يسوع لتلاميذه:

«٣٣. ها نحن صاعدون إلى أورشليم، وسيُسلَم ابنُ الإنسانِ إلى الأحبار والكَتَبة، فيَحكمون عليه بالموت، ويُسلمونَه إلى الأمم، ٣٤. ويسخَرون منه، ويَبصُقون عليه، ويَجلِدونه، ويَقتُلونه، وبعد ثلاثةِ أيّامٍ يقوم».

هنا يفصّل مرقس ما سيكون ليسوع بسبب تسليمه إلى الأحبار، والحكم عليه بالموت، وتسليمه إلى الوثنيّين، والسخريّة، والبصق، والجلد، والقتل... إنّها أفعال اليهود مع يسوع، أي موقفهم العدائي منه حتّى نهاية حياته. فهم

المسؤولون، على ما يتّضح، عن تسليمه، وعن قتله.. وذلك بسبب رفض يسوع تعاليمهم وتقاليدهم وشريعتهم... سلّموه إلى القتل والذلّ.

١٢ . **باعة الهيكل** (١١/ ١٥-١٩). وثمّة أيضاً موقف ليسوع من باعة الهيكل، الذين طردهم منه، واتّهمهم بأنّهم لصوص وتجّار. قال مرقس: «١٥. **وانتهَوا إلى أورشليم، ودخلَ يسوعُ الهيكل، وشرعَ يَطرُد منه الباعةَ والشُّراة، وقلَبَ مناضِدَ الصَّيارفة، ومقاعدَ باعةِ الحَمام. ١٦. وما كان يدَعُ أحداً يجتازُ الهيكل، وهو يَحمِلُ مَتاعاً. ١٧. وكان يُعلّمُ قائلاً: أما جاءَ في الكتاب: سيُدعى بيتي لكلِّ الأمَم بيتَ صلاة، وأنتم مَغارةَ لُصوصٍ جعلتموه؟ ١٨. وسمع الأحبارُ والكتبةُ فأخذوا يبحثون كيف يُهلكونه. كانوا يخافونه، لأنّه أعجبَ بتعليمه كلَّ الشعب. ١٩. وعند المساء خرج يسوعُ وتلاميذُه من المدينة».**

في هذا الحدث إشارة إلى مكانة الهيكل وقدسيّته في الشريعة اليهوديّة. فهو، بالتالي، كما يبدو، موضوع اختلاف بين يسوع واليهود. هؤلاء يريدون هيكل الحجارة بيت صلاة للّه، ليجعلوه مغارة لصوص؛ ويسوع يريد الإنسانَ بيتاً مقدّساً للّه. فقدسيّة الهيكل ليست بشيء أمام

قـدسيّـة الإنسـان، تماماً كـحـرمة السـبت ليست بشيء بالنسبة إلى حرمة الإنسان..

١٣ . يســوع يعلّم مِن عنده (١١/ ٢٧-٣٣) وفي الهيكل أيضاً، كما يخبر مرقس، وقف اليهود في وجه يسوع، واتّهموه بأنّه يعلّم من عنده، لا بما تقوله التوراة. قال: «**٢٧. وعادوا إلى أورشليم. وبينا يسوعُ يطوفُ في الهيكل، أقبل إليه الاحبارُ والـكتبةُ والشيوخ، وقالوا له: بأيِّ سُلطانٍ تَفعَلُ ما تفعل؟ أو مَن آتاك هذا السلطانَ لتفعل؟ ٢٩. قال لهم يسوع: عن أمرٍ واحدٍ أسألكم، فإنْ أجَبتُم عنه أقُل لكم بأيِّ سلطانٍ أفعل**».

يعلّق إونجليون على سؤال الأحبار ليسوع: «بأيِّ سُلطانٍ تَفعَلُ ما تفعل»: "إشارة إلى تطهير يسوع الهيكلَ، وقد عدّ الكهنة ذلك اعتداء على حقوقهم. أجاب يسوع عن هذا السؤال بسؤال يَفضَح عجزَهم؛ سألهم إن كانوا يؤمنون بيوحنّا المعمدان، لأنّ إيمانهم به إيمانٌ بيسوع وبسلطته؛ وجوابهم «لا ندري» دليل على خبث نيّتهم. وهكذا أفحمهم يسوع بجوابه أكثر ممّا لو كان صارحهم بسلطته الإلهيّة.

وهذا الجدال فاتحة الجدالات الخمسة الأخيرة في

أورشليم، بين يسوع ورؤساء الشعب[٣]، وقد خرج منها كلُّها منتصراً" [٤].

١٤ . حقوق الله وحقوق قيصر (١٢/١٣-١٧)

يقول مرقس: «١٣. **ثمّ أرسلوا** (أي اليهود) **إليه** (أي إلى يسوع) **نفراً من الفرّيسيّين وأشياع هيرودس لكي يَصطادوه بكلمة.. ١٥. وعلم يسوع رياءهم، فقال: لِمَ هذه الاحابيل؟.. ١٧. أدُّوا ما لقيصر إلى قيصر، وما لله إلى الله».**

في هذا الكلام دليل اختلاف عميق بين يسوع والأحبار؛ فلهذا، لن يكون بينهما سلام؛ بالرغم من أنّه أعطى للّه حقّه ولقيصر حقّه. واليهود لا يريدون ذلك، بل إنّهم يريدون أن يوقعوا يسوع في حبائل مكرهم؛ أي أن يرفضوا يسوع مهما كان جوابُه لهم.

١٥ . قيامة الأموات (١٢/١٨-٢٧) يقول مرقس: **«١٨. وأتاه صدُّوقيّون[٥]، وهم قومٌ يُنكرون القيامة،**

---

(٣) ر: مر ١١/٢٧-٣٣؛ ١٢/١٣-١٧، ١٨-٢٧؛ ٢٨، ٣٤، ٣٥-٣٧.

(٤) حاشية إونجليون على ١١/٢٧-٣٣،

(٥) أكثر الصدّوقيّين كهنة، ويخالفون الفرّيسيّين دينيّاً في أمرين مهمّين أوّلاً، يغلو الفرّيسيّون في الحفاظ على التقاليد، وينبذها الصدّوقيّون. ثانياً، يؤمن الفرّيسيّون بقيامة الأموات استناداً إلى نصوص كتابيّة (حز ٣٧/٨؛ أي ١٠/١١)، وينكرها الصدّوقيّون استناداً إلى نصوص أخرى (تك ٣/١٩). جواب يسوع إيمان بالقيامة،

فسألوه قالوا: ١٩. يا معلّم، لقد كتب علينا موسى: على الاخ، إنْ مات أخوه عن امرأةٍ دون وَلَد، أن يتزوّج امرأةَ أخيه، ويُقيم له نسلاً[٦]. ٢٠. وكان سبعةُ إخوة.. ٢٣. ففي القيامة، لأيّهم تكون؟.. ٢٤. قال يسوع: .. ٢٧. إن أنتم إلاّ في ضلالٍ كبير».

وكان يسوع قد أكّد القيامة، ولكن " قيامة غير خاضعة لشروط الجسد الحاضرة. وهو بالتالي ردّ على الصدّوقيّ والفرّيسيّ معاً " [٧]؛ وفي هذا دليل أيضاً على مدى الاختلاف بين يسوع والأحبار اليهود، أي بين تعاليمه وتعاليم التوراة والدِّين اليهوديّ.

١٦ . إحذروا الكتبة (١٢/٣٨-٤٠) «٣٨. وممّا كان يعلّم: «إحذروا كتبةً يُريدونَ التجوالَ بالحُلل الضافيات، والتحيّات في الساحات، ٣٩. وصدورَ المجالس

لأنّ الله إله أحياء، لا إله أموات، و لكن بقيامة غير خاضعة لشروط الجسد الحاضرة، وهو بالتالي ردّ على الصدّوقيّ والفرّيسيّ معاً. **الصدّوقيّون**: حزب الكهنوت الارستقراطي المناوئ لحزب الفرّيسيّين الديني الشعبي. لا يؤمن الصدوقيون بالقيامة (٣/٦-٨؛ لو ٢٠/٢٧ ٣٨). خلافهم مع المسيحيين دفع الفريسيين إلى التقرّب من المسيحيّين (٥/٣٤؛ ٢٣/٨-٩؛٢٦/٥-٨؛ لو ٢٠/٣٩). الأحبار الصدوقيون حثّوا على القبض على يسوع (لو ٢٢/٥٢)، وعلى الرسل

(٦) ر: تك ٣٨/٨؛ تث ٢٥/٥.

(٧) حاشية على ١٢/١٨-٢٧، في تفسير إونجليون، ص ٢٢٢.

في المجامع، وأوائلَ المُتّكآت في الولائم. ٤٠. بيوتَ الأرامل يلتهمون، والصلاةَ دَجْلاً يُطيلون، فيا لصَرامَةِ عِقابٍ سوف يُقاسون!».

ليس من كلام أعنف من هذا الكلام بحقّ الكتبة والأحبار ورؤساء الدِّين والمسؤولين عن الشريعة اليهوديّة: «إحذروا». لا مهادنة بين يسوع وهؤلاء. رفضهم ورفض تعاليمهم، وحذّر من الاقتداء بهم ومن الإصغاء إليهم. وبهذا فهو لا يهادن، ولا يقبل بحالٍ من الأحوال سلوكهم وتعليمهم، لا في شأن القيامة، ولا في أيّ أمرٍ من أمور الدِّين. فلكأنّه جاء من أجل هذا. فلا بدّ إذاً من أن يكون خلاف، ويكون رفضٌ ونقضٌ متبادل.

١٧ . المؤامرة (١٤/١-٢) «١. كان الفصح والفطير سيقعان بعد يومَين. وكان الأحبارُ والكتبةُ يتلمّسون كيف يَقبِضون بحيلةٍ على يسوع، ويقتلونه. ٢. فقد كانوا يقولون: لا في العيد، لئلاّ يقعَ في الشعْبِ شَغَب».

هنا نصل إلى قمّة المؤامرة، مؤامرة الأحبار على يسوع، في سبيل القضاء عليه؛ أكان ذلك في العيد، أم في أيّ يوم عاديّ. إلاّ أنّهم آثروا يوماً عاديّاً خشية ثورة الشعب عليهم.. ولكن ما همّهم من الشعب وثورته إذا كانت

الضــحــيّة يســـوع نفـســه، يسوع الذي رفـضـــهم ورفض شريعـتهم وتوراتهم وتعاليـمهم وتقاليدهم، وأنبـياءهم... حتّى أثار الشعبَ كلّه عليه!

١٨ . خـيـانـة يهـوذا (١٤/ ١٠-١١) «١٠. وإلى الأحبـار أتى يهوذا الإسخَـريوطيّ، أحدُ الاثنَي عَـشَر، لكي يُسلِمهم يسوع. ١١. سُرُّوا بما سـمِعوا، ووعَدوا أن يُعطوه فضّة. وأخذ يتلمّس فرصةً ليسلِمَه».

لا يمكن أن تتمّ المؤامرة إلاّ بخيـانةِ أحد المقرّبين إليه، أي التلاميذ، وببدلٍ من المال، كبيراً كان أو زهيداً...

وفي هذا دليل أيضـاً على حجم الخلاف بين تـعاليم يسوع وتعـاليم الأحبار اليـهود، حتّى وصل الأمـر إلى حدّ الخيانة والرشوة والمؤامرة... لا بدّ إذاً من حيلةٍ تساعد على عمليّة القبض على يسوع. وهكذا كان.

١٩ . القبض عـلى يسوع (١٤/ ٤٣) «وإنّه لَيَتكلّم، إذ وصَل يهـوذا، أحـدُ الإثنَي عـشر، وقـد أرسله الأحـبـارُ والكتبة والشيوخ، ومعه عِصابةٌ مسلّحةٌ بسيوفٍ وعِصيّ».

لو لم يكن الأحبـار والكتبة والشيـوخ مزعوجين من يســوع، ورافضـين تعـاليمـه ومواقفـه، إلى أقصـى حدود

الانزعاج والرفض، لما استطاع مرقس أن يكتب ما كتب، عن عصابة مسلّحة، يريد أفرادُها القبض على يسوع مهما كلّف الثمن. فيسوع أعلن عداوته لليهود، بسبب مفهومه لله وللإنسان الذي يختلف جذرياً عن مفهوم اليهوديّ التوراتيّ للّه الذي يضحّي بالإنسان من أجل تنفيذ مشيئته وتطبيق شريعته.

هنا ذروة الدليل على مفهومَين للّه متناقضين: مفهوم يسوع ومفهوم اليهود. وانتصر إله اليهود على إله يسوع؛ ولكن إلى حين. فلهذا تمّ القبض على يسوع، وتمّ تنفيذ الحكم من دون محاكمة.

٢٠ . أمام المجلس (١٤/٥٣-٦٥) «٥٣. وساقوا يسوع إلى عظيم الأحبار، حيث اجتمع كلُّ الأحبار والشيوخ والكتبة..٥٥. وكان الأحبار، وكلُّ أعضاء المجلس، يبحثون عن شهادةٍ على يسوع ليَقتُلوه، ولا يجدون. ٥٦. شهد غيرُ واحدٍ زوراً عليه، ولكنِ اختلفتِ الشهادات. ٥٧. وكان يقوم بعضهم يشهدون زوراً عليه، يقولون: ٥٨. لقد سمعناه يقول: ساهدمُ هذا الهيكلَ، المَشيدَ بالايدي، وفي ثلاثة أيّام أبني آخر، غيرَ مشيدٍ بالأيدي. ٥٩. وفي هذا أيضاً اختلفتْ شهاداتُهم. ٦٠. وقام عظيمُ الاحبار في الوسْط، وسأل

يسوع: أما تُجيب بشيء؟ ما الذي يشهد به هؤلاء عليك؟ ٦١. فظلّ يسوعُ صامتاً، ولم يُحِرْ جواباً. فعاد عظيم الأحبار يسأله: أأنتَ المسيحُ ابنُ اللّهِ سبحانه؟ ٦٢. قال يسوع: أنا هو. وستَرَون ابنَ الإنسان جالساً عن يمين العزّة، آتياً على غَمامِ السماء. ٦٣. فشقّ عظيمُ الأحبار قميصه، وقال: أنحنُ في حاجة بعدُ إلى شهود؟ ٦٤. سمعتُمُ التجديف، فما ترون؟ فحكموا جميعاً أنّه يستحقّ الموت. ٦٥. وأخذ بعضُهم يَبصُقون عليه، ويَعصِبونَ وجهَه، ويَلكُمونَه، ويقولون: تَنَبَّأْ! وتلقّاه الخدَم بلطمات».

نحن هنا أمام مشهدٍ من أعظم مشاهد العنف في التاريخ، حصلت باسم اللّه والدِّين، حصلتْ من رؤساء الدِّين والأحبار على يسوع، لا من غيرهم : لقد ساقوا يسوع إلى عظيم الأحبار، بعدما اجتمع عليه *كلُّ الأحبار والشيوخ والكتبة* يريدون قتله، بسببٍ أو بغير سبب.

وبالرغم من اختلاف الشهادات، انتصروا عليه، لأنّ الموضوع موضوع دينيّ، ينتصر فيه رجال الدين، لا محالة. وعلى يسوع أن يرضخ لهذا الحكم الدِّينيّ المبرم.

وبقي يسوع *صامتاً*، لأنّ الحكم عليه كان باسم اللّه وباسم موسى والتوراة والدِّين والشريعة. فلا حيلة له في

ذلك مع هؤلاء جميعاً. ولا تجدي الإجابة نفعاً على أيّ سؤال من أسئلة الدِّين ورجاله... ولكنّ يسوع عاد وأجاب عن حقيقة هويّته ورسالته، بأنّه هو «ابن اللّه». هذه هي هوّيته ورسالته. وهو لا يمكن أن ينكرها، أو يسكتَ عنها.

وكان برهانه على ذلك، لا بحسب مشيئة اليهود، بل بجواب أكثر صعوبة وأكثر رفضاً. قال هذا لأنّه يريد أن يكون واضحاً في شأن هويّته الحقيقيّة ورسالته الخلاصيّة التي جاء من أجلها. فما كان من عظيم الأحبار إلاّ أن غضب غضباً شديداً، ومزّق ثيابه لهول ما سمع، فقال: أنحن في حاجة إلى شهود بعد؟

٢١ . أمام بيلاطس (١٥/١-١٥): «١. وفي الغداة تشاور الأحبارُ والشيوخُ والكتبة، والمجلسُ كلُّه، فأوثقوا يسوع، وإلى بيلاطسَ ساقوه وأسلموه. ٢. وسأله بيلاطس: أملِكُ اليهودِ أنت؟ فأجاب: أنتَ تقول. ٣. وشكا الأحبار يسوعَ شكاوى كثيرة. ٤. فعاد بيلاطسُ يسألُه: ألا تُجيب بشيء؟ أنظرْ كم يشكونك!. ٥. فامتنع يسوع عن أيّ جواب، حتّى تعجّب بيلاطس.

٦. وكان بيلاطس، في كلّ عيد، يُطلق سجيناً، أيّ سجين طلبوا. ٧. وكان في العصاة السجناء، الذين اقترفوا

جرائم قتْل في غضون العِصيان، سجين يدعى برأبّا. ٨. وصعِد الجمع إلى بيلاطس، وأخذ يطالبه بما اعتادَ أن يفعلَه لهم. ٩. قال بيلاطس: أتُريدون أن أُطلق لكم ملكَ اليهود؟ ١٠. ذاك أنّه كان يعرفُ أنّ الأحبارَ إنّما أسلموا يسوع حَسَدًا. ١١. فهيّج الأحبارُ الجمعَ، ليُطلق لهم بالأولى برأبّا. ١٢. فعاد بيلاطس يسأل: وما أفعلُ إذاً بمن تَدعونَه ملكَ اليهود؟ ١٣. فصاحوا: اصلِبْهُ! ١٤. قال: وأيّ قبيحٍ أتى؟ فتعالى صياحُهم: اصلِبْه!. ١٥. وأراد بيلاطُس إرضاء الجمْع، فأطلَقَ لهم برأبّا. وبعدما جلد يسوعَ أسلَمَه ليُصلَب».

اليهود كلّهم، الأحبار، والشيوخ، والكتبة، والمجلس كلّه، ألحّوا على بيلاطس أن يَصلب يسوع، ويُطلق برأبّا، السجين الثائر على الحكم الرومانيّ... والسبب قاله يسوع نفسه عندما اعترف بأنّه ملك اليهود. لذا فهو يستحقّ الموت. هذا بالإضافة إلى شكاوى كثيرة رفعها الأحبار ضدّ يسوع منذ بدء حياته ورسالته وتعاليمه بين الناس.

٢٢ . الهزء والصلب (١٥/١٦-٣٢) «٢٩. وكان المارّةُ يَشتُمونه، ويهُزّون الرؤوس، ويقولون: أيا هادمَ الهيكلِ وبانيَه، في ثلاثة أيّام. ٣٠. خلِّصْ نفسك، وانزِل عن

الصليب. ٣١. وكذلك سخِر الأحبار والكتبة، قالوا في ما بينهم: خلَّصَ آخَرِين، ولا يَسَعُهُ أن يُخلِّصَ نفسه!. ٣٢. المسيح ملك إسرائيل! ليَنْزِلِ الآنَ عن الصليب فنرى ونؤمن!. وكان المصلوبان معه يسبّانه».

مصير يسوع هذا مذلّ جداً: تفضيل برأبا المجرم الثائر على قيصر، والموت بين لصّين، على صليبٍ هو عنوان العار والذلّ. اشترك فيه اليهود والرومان، اليهود لأنّه خالف الشريعة الإلهيّة في تعاليمه وسلوكه؛ والرومان لأنّه ينادي بإلهٍ غير قيصر. اليهود والرومان يمثّلون البشريّة كلّها آنذاك. كلّ البشر، إذاً، اشتركوا في قتل يسوع. والسبب الأساسيّ لقتله، هو امتعاض اليهود من تعاليم يسوع ضدّ موسى والشريعة وتعاليم التوراة وتقاليد السَّلف، وامتعاض الرومان من التنكّر لألوهيّة قيصر.

❊❊❊

مناصرو موسى والقيصر اشتركوا في القضاء على يسوع، بحقّ أو بغير حقّ. والسبب لم يكن تافهاً، كما يُظنّ. بل السبب، في حقيقة الأمر، هو تعدّي يسوع على موسى وتعاليم التوراة، وعلى رفْض ما «قيل لكم»، وعلى التنكّر لألوهيّة القيصر.

تعاليم التوراة في شريعة السبت، والختان، والزنى، والزواج والطلاق، وما إلى ذلك... كانت سبباً من الأسباب التي تبرّر عمليّة القتل... والتنكّر لألوهيّة القيصر الرومانيّ كان أيضاً سبباً من الأسباب التي تبرّر عمليّة الصلب.

لم يكن مصير يسوع المأساوي بسبب شفائه المرضى، وإقامة الموتى، وتعاليمه في محبّة الإنسان التي تعادل محبّة الله... بمقدار ما كان بسبب عدم احترامه الشريعة والأحكام الدّينيّة. فلكأنّ يسوع قد تعمّد صنع هذه كلّها أيّام السبوت المقدّسة، حيث العمل فيها مخالفة صريحة لمشيئة الله.. ومَن يخالف ذلك يستحقّ الموت.

لا يمكننا أن ندخل إلى أعماق الله لنعرف إذا ما كان يسوع قد جاء من أجل هذا المصير. بل يمكننا أن نقول إنّ يسوع جاء ليخلّصنا من شرائع وضعها الإنسانُ على نفسه باسم الله. فلكأنّ يسوع جاء ليلغي تلك الشرائع والأديان المنسوبة إلى اللّه، واللّه منها بريء. فالله الذي شاء الإنسانَ حرّاً منذ البدء لا يغيّر سلوكه معه ولن يغيّر، مهما تعنّت الدّين ورجاله.

الفصل الثالث

يسوع في إنجيل لوقا

١ . **شمول الخلاص** : "يرقى (لوقا) بنسب يسوع إلى آدم (٣/ ٢٣-٣٨)، ليشدّد على شمول الخلاص. ويتفرّد بنصَّين يظهر فيهما يسوع مخلِّصاً كلَّ البشر (٢/ ٢٠-٣٢؛ ٣/ ٦). ويهمل وصيّة يسوع لتلاميذه ألاّ يسلكوا طريق الأمم، أو يدخلوا مدينة السامريّين، كما جاء في متى (١٠/ ٥). ويُعنى بالسامريّين عنايةً خاصّة[١]. ويتّخذ النصُّ (١٣/ ٢٢-٣٠) أهمّيّةً بالغةً بالنسبة إلى شمول الخلاص، لوروده في إطار صعود يسوع المباشر إلى أورشليم.

"يعود لوقا بيسوع من البرّيّة إلى مجمع الناصرة (٤/ ١٦-٣٠)، ليَظهَرَ، منذ بدءِ رسالة يسوع، رَفْضُ شعبه إيّاه رَفْضَهم تلاميذَه من بعده"[٢].

---

(١) ٩/ ٥٥، ١٠/ ٣٠-٣٧، ١٧/ ١١-١٩، رسل ١/ ٨، ٨، ٩/ ٣١-١٠/ ٤٨.

(٢) إونجليون مقدّمة على لوقا، ص ٢٤٦.

ثمّ "يُلقي يسوع خطبة النـهايات في الهيكل، لا على جبل الزيتون. ويفصل لوقا دمارَ أورشليم (٢١/ ٢٠-٢٤) عن نهاية العالم (٢١/ ٢٥-٢٧). وخطبة النهايات هذه دليل واضح على كـفر اليهـود بيسـوع، وقرارهم المبرم بـقتله، ودليل قاطع على نهاية عهد قـديم، وقيام عهد جديد، تدخل فـيـه الأممُ ملـكوتَ اللّه. إنّهـا نداء أخـيــر، وإنذار خطيـر لأورشليم، المدينة المقدّسة"[٣].

٢ . الملاك للرعـاة (لو ٢/ ١١) **«اليـومَ وُلِد لكم، في مدينة داود، مُخَلِّصٌ، هو المسيحُ الربّ»**[٤].

"التعـبيران: «الرب المسـيح»، و «المسيح الرب» (لو ٢/ ٢٦)، بحسب إونجليـون، هما وصفان يَرِدان في العـهد الجديد، ويـعبّران أوفى تـعبيـر عن دور يسوع التـاريخيّ الخلاصيّ والإلهيّ: هو المسـيح، أي الملك المسؤول عن قيادة شعبه إلى الخلاص، و الذي يهب الخلاص[٥]" للجميـع.

---

(٣) المرجع السابق نفسه، ص٢٤٧

(٤) أش ٩/ ٥؛ مـتى ١/ ٢١؛ **مـخلّص**: المخلّص هو اللّه (تث ٣٢/ ١٥؛ أش ٤٣/ ١١؛ هو ١٣/ ٤؛ ١ مل ١٠/ ١٩؛ مـز ٢٤/ ٥، ٢٧/ ١، ٩؛ ٦٢/ ٢، ٧؛ ٦٥/ ٦؛ ٧٩/ ٩؛ ٩٥/ ١)، او مَن يقـيمه اللّـه مخلّصاً بـاسمه (قض ٣/ ٩، ١٥؛ نـح ٩/ ٢٧). يدعو لوقـا يسوع مخلّصـاً هنا، وفي (رسل ٥/ ٣١؛ ١٣/ ٢٣)، ويدعوه مـثله يوحنّا. امّا مـتّى فيفسّر اسم يسوع بالمخلّص (١/ ٢١).

(٥) حاشية على لو ٢/ ١١.

٣ . سمعان يتنبّأ (٢/٣٢-٣٤) «٣٠. رأت عيناي خلاصاً، ٣١. أعددته لكلّ الشعوب، ٣٢. نورَ وحيٍ للأمم، ومجداً لشعبك إسرائيل. ٣٣. وكان أبوا الطّفل يعجبان ممّا يُقال فيه. ٣٤. وباركهما سمعان، ثمّ قال لمريم، أمّ يسوع: يكونُ هذا الطّفلُ مَدعاةً لسقوطِ كثيرٍ في إسرائيل، وقيامِ كثير، وعلامةً يَختصِمُ فيها الناس».

منذ البداية، يشير لوقا إلى أنّ يسوع الآتي من عند الآب هو «خلاص كلّ الشعوب»؛ كما سيكون أيضاً علامة خصام (لو ١٢/٥١-٥٣). وكان «أبوا الطفل يعجبان ممّا يُقال فيه»، لأنّهما، مثل سائر اليهود، ينتظران من مولودهما أن يكون لبني إسرائيل وحسب.

وقد لا يستطيع أحدٌ من اليهود، حتّى اليوم، أن يعرف أنّ المسيح جاء لخلاص جميع الأمم. فهم يحتكرون عمل المسيح فيهم. لهذا، فإنّ مسيح الإنجيل غير مسيحهم.

٤ . **المعمدان** (٣/٦) يضع لوقا على لسان يوحنّا المعمدان قوله **«يرى كلُّ بشرٍ خلاصَ الله».**

لقد استشهد لوقا بآيتَين من آشعيا (٤٠/٤-٥)، دون متّى ومرقس؛ واختصر الآية الثانية مشدّداً على

شمول الخلاص، الذي ينادي به المعمدان. وسيعود لوقا إلى هذا الموضوع في سفر أعمال الرسل (٢٨/٢٨).

٥ . **نسب يسوع** (٣/٢٣-٣٨) "يبدأ لوقا بيسوع وينتهي بآدم، ليجمع في يسوع شتات تاريخ الإنسانيّة... يسوع، في نظر متّى، هو ابن داود الملك، وابن إبراهيم، وهدف التاريخ اليهوديّ. وهو، في نظر لوقا، آدم الثاني، ومحور التاريخ البشريّ العام: كلّ ما قبله إعداد لمجيئه، وكلّ ما بعده تحقيق لرسالته "[٦].

٦ . **يسوع في الناصرة (٤/١٦-٣٠) «١٦. وجاء يسوع الناصرةَ، حيث ترعرع، وكعادته دخل المجمع، يوم السبت، وقام ليقرأ..٢٣. فقال لهم: إنّكم، ولا ريب، تقولون لي هذا المَثَل: أيّها الطبيبُ، اشْفِ نفسَك! سمِعنا بكلِّ ما فعلتَه في كَفَرناحوم، فافعَلْه هنا في وطَنِكَ. ٢٤. ثمّ قال: الحقَّ أقولُ لكم: لا يُقبل نبيّ في وطنه.. ٢٨. استشاط غضباً كلُّ الذينَ كانوا في المجمع، لدى سماعهم كلامَه هذا. ٢٩. وقاموا فأخرجوه من المدينة، وذهبوا به إلى شفيرِ رَبْوَة لكي يَرمُوا به عنه. ٣٠. ولكنّه انسلّ من بينهم، ومضى».**

---

(٦) حاشية على لو ٣/٢٣-٣٨.

من الطبيعي أن يستشيط غضباً كلُّ اليهود الذين كانوا في المجمع، لأنّهم لم يقبلوا تعليم يسوع في تعميم الخلاص على جميع الشعوب.. فما فضل شعب إسرائيل إذاً، لو كان اللّه سيمنح الخلاص لجميع الشعوب؟!

يشير لوقا منذ البداية إلى العداوة التي ستحصل بين يسوع واليهود، وقد أرادوا أن يرموه من على سور مدينتهم، لينتهوا منه ومن تعاليمه وأعماله وتعميم الخلاص الذي لا يزال ينادي به. ولكنّ يسوع، منذ البداية أيضاً، عرف أنّ السبيل الوحيد للخلاص منهم، هو أن يتركهم، أن ينسلّ من بينهم ويمضي. يعلّق إونجليون: "يتفرّد لوقا بذكره كلّ شيء عن صلات يسوع بالناصرة.. وكأنّ صلة يسوع ببلدته صلّتُه بشعبه: تبدأ بالحماس، ثمّ تهمد، ثمّ تنتهي بالرذل والصلب".

هكذا انتهت حياة يسوع مع شعبه، بالرذل والصلب. فما كان عليه بعد هذا إلاّ أن ينطلق إلى الشعوب كافّة. فمن أجل هذه الرسالة العامّة والخلاص الشامل أتى.

٧. شفاء مفلوج (٥/ ١٧-٢٦) «وكان يُعلّمُ ذاتَ يوم. وكان في الجالسين فرّيسيّون، وعُلماء بالتوراة،

جاؤوا من كلّ قرى الجليل واليهوديّة، ومن أورشليم. وكانت قدرةٌ من لدن الربّ تعمَل، فيَشْفي يسوعُ المرضى».

يشير لوقا إلى وجود فرّيسيّين وعلماء من كلّ قرى الجليل واليهوديّة، ومن أورشليم، جاءوا، لا ليستفيدوا من تعاليمه، بل ليدينوه أمام الشعب، لأنّه كان يعمل أعمالاً لا يستطيعون هم أن يعملوها، أعمالاً لا يعملها إلاّ اللّه، وقد اتّبعه يهود كثيرون، وتخلّوا عنهم وعن تعاليمهم..

لقد بدأت العداوة، إذاً، بين يسوع واليهود تظهر جليّاً. وبدأ لوقا يدوّنها عن قصدٍ وبدقّة.

٨ . جِئتُ للخطأة لا للأبرار (٥/٢٩-٣٢) **«٢٩. وأولم لاوي ليسوع وليمةً عظيمةً في بيته. واتّكأ كثيرون – جباة وغير جباة– يؤاكلون يسوع وتلاميذه. ٣٠. وتذمّر الفرّيسيّون وكَتَبَتُهم، قالوا لتلاميذ يسوع : ما لكم تؤاكلونَ الجباةَ والخطأة، وتشاربون؟ ٣١. قال يسوع: لا يَفتقرُ الأصحّاءُ إلى طبيب، بل المرضى، ٣٢. ما جِئتُ لأدعوَ إلى التوبة أبراراً، بل خطأة».**

من الطبيعيّ أن يتذمّر الفرّيسيّون والكتبة من يسوع وتلاميذه، لأنّ مؤاكلة الوثنيّين والجباة والخطأة والمرضى

لا تجوز في الشريعة اليهوديّة. أمّا يسوع فيحمل رسالةً خلاصيّة، أي رسالة للإنسان الخاطئ. لهذا جاء. فهو لا يستطيع أن يحصر عمله الخلاصيّ بفئة من خلق اللّه، أي باليهود فقط. لهذا كان جواب يسوع بمبدأ اعتمده كلَّ حياته وأُخذ عنه، وهو: «لا يفتقر الأصحّاء إلى طبيب، بل المرضى».

فإذا كان اليهود يعتبرون أنفسهم أصحّاء فإنّ يسوع لم يأتِ ليعالج الأصحاء؛ بل المرضى، أي أناساً غيرهم ليسوا منهم. هذا المبدأ كان مدعاة خصام بينه وبين اليهود، سوف يتفاقم حتّى أدّى بيسوع إلى القتل صلباً.

٩ . التلاميذُ وحُرمة السبت (٦/ ١-٥) «١. وأحَدَ السبوت، جاز يسوع بزروع، فصار تلاميذُه يَقطِفونَ السنابل، يفركونها بأيديهم، ويأكلون. ٢. قال فرّيسيّون: ما لكم تفعلون ما لا يجوز فِعلُه في السبوت؟ ٣. قال يسوع: أما قرأتم ما فعل داودُ وصحبُه، حين جاعوا، ٤. كيف دخل بيتَ اللّه، وأخذ خُبزَ التقدمة، فأكل وأطعم صحبَه، وأكلُه لا يجوز إلاّ للكهنة وحدَهم؟ ٥. وقال : لَرَبُّ السبتِ ابنُ الإنسان».

كـان هذا أعظم كـلام قاله يسـوع، لإعـلان رفضـه لشريعـة موسى، التي هي هنا شريعـة السبت، وهي أعظم شريعة في التوراة وعند اليهود. وأهمّيّة هذا الرفض تكمن في أن يسوع استشهد بالتـوراة ذاتها (١ مل ٢١/١-٦)، وبداود أكبر ملوكهم. لهذا لم تبق لديهم حيلة إلاّ أن يحكموا عليه بالموت. لقد طعنهم في صميم دينهم وتاريخهم. وهي مخالفة واضحة وكبيرة للشريعة، في نظرهم.

١٠ . يسوعُ وحرمةُ السبت (٥/٦-١١) «٦. وفي سبتٍ آخر، دخل يسوعُ المجمع، وأخذ يعلّم. وكان ثَمّ إنسانٌ أشَلُّ اليمين. ٧. وكان الكتبةُ والفرّيسيّون يُراقبونَ هل يَشفي يسوعُ يومَ السبت، ليَجِدوا ما به يَشكونَه[٧]. ٨. وعلِمَ ما فيه يُفكّرون، فقال للأشلّ: قُمْ، وقِفْ في الوسْط. فقام ووقَف. ٩. قال يسوع: أسألكم: أفعلُ الخير يجوز، يومَ السبت، أم فِعلُ الشرّ، إنقاذُ نفسٍ أم إهلاكُها؟ ١٠. ثمّ أجال الطّرْفَ فيهم جميعاً، وقال للأشلّ: مُدَّ يَدك. فمدّها، وعادتْ كهيئتها. ١١. هاج هائجُهم، وتساءلوا ما عساهم يفعلون بيسوع».

---

(٧) يَعُدّ الفرّيسيّون الشفاء عملاً طبّيّاً ممنوعاً يوم السبت (١٣/١٤: ١٤/١-٢)

يتّهم لوقا الفرّيسيّين والكتبة والأحبار بمقتل يسوع؛ لأنّ يسوع قامتْ قيامتُه، لا على رجال الدين والشيوخ الذين يقومون بتطبيق الشريعة، بل على الشريعة نفسها. الشريعة هي المسؤولة، لا الذين هم ضحيّتها فحسب. لقد أناطوا شريعة السبت هذه بالله، والله منها بريء. لهذا كان عداء مستحكم بين يسوع والشريعة التي يتّهمون اللَّهَ بصنعها، وبينه وبين الأحبار القيّمين على تطبيقها.

١١ . يسوع يثني على يوحنّا (٢٨/٧) «أقول لكم: ليس في مواليدِ النساء أعظمُ من يوحنّا، ولكنَّ الأصغر في ملكوت الله أعظمُ منه».

يعلّق شرّاح إونجليون: "يوحنّا نبيّ من أنبياء العهد القديم، فهو، مهما عظم، يظلّ أصغر من يسوع، بل أصغر من أصغر تلاميذ يسوع. وهو فعلاً أصغر من التلاميذ، لا لأنّه دونهم قداسة، بل لأنّ علاقته بيسوع أضعف".

وبالتالي إن شريعة العهد القديم لم تفد الإنسانَ شيئاً، نسبةً إلى استفادته من عمل يسوع الخلاصيّ.

ومع هذا لقي يسوع مصير يوحنّا، لأنّ الشريعة

التي قام الأحبار على تنفيذها كانت أقوى ممّا جاء به يسوع، لذلك انتصروا عليه، وقادوه إلى الصليب.

١٢ . **رذْل الأحبار ليسوع** (٩/٢٢) «**وقال** (يسوع): **على ابن الإنسانِ أن يتألّم كثيراً، ويَرذُلَه الشيوخُ والأحبارُ والكتبة، وأن يُقتل، وفي اليوم الثالث يقوم**».

الشيوخ والكتبة والأحبار: فئات المجلس اليهوديّ الثلاث، الذين رذلوا يسوع، وجلدوه، وصلبوه. والسبب أنّ يسوع خالف شريعتهم، ورفض تعاليمَهم وأعمالهم، ونقض السبتَ والختان وشريعة موسى كلّها. ويسوع كان يعرف مصيره على أيدي هؤلاء، لأنّه يعلم ويعي تمام العلم والوعي ما صنع بمقدّساتهم وتقاليدهم.

١٣ . **الويل للفرّيسيّين** (١١/٣٧-٥٤) «**٣٧. وإنّه ليتكلّمُ إذ دعاه فرّيسيّ إلى الغداء في داره، فدخل واتّكأ يأكل. ٣٨. ورأى الفرّيسيُّ أنّ يسوع لم يَغتسِل، قبل أن يتغدّى، فتعجّب. ٣٩. قال له الربّ: أنتم الفرّيسيّين، ظاهرَ الكاسِ والطَبَق تُنقُّون، وباطنُكم بجَشَعٍ ومساءةٍ مشحون. ٤٠. يا للحمقى! أليسَ صانعُ الظاهرِ صانعَ الباطن أيضاً؟! ٤١. ألا تَصَدّقوا بما في الداخل يُصبِحُ كلُّ شيء لكم نقيّاً.**

٤٢. الويلُ لكم، أيّها الفرّيسيّون، فأنتم تؤدّونَ عشورَ النّعنع والسّذابِ وسائرِ البُقول، وتُهملونَ العدلَ وحُبَّ الله. وكان عليكم أن تَعملوا بهذا، ولا تُهمِلوا ذاك.

٤٣. الويلُ لكم، أيّها الفرّيسيّون، يا من تُحِبّون صدورَ المجالسِ في المجامع، والتّحيّاتِ في الساحات.

٤٤. الويلُ لكم، يا قُبوراً خفيّةً يَطأها الناس، ولا يَدرون.

٤٥. تكلّمَ عالِمٌ بالتوراة قال: إن تَقُلْ هذا، يا معلم، تَسُبّنا نحن أيضاً.

٤٦. قال يسوع: والويل لكم، يا علماءَ التوراةِ، فإنّكم تُحَمِّلون الناسَ الأثقالَ، وأنتم بإحدى أصابعكم لا تَمَسّونَها.

٤٧. الويلُ لكم، يا مَن تَبنونَ قبورَ الأنبياء الذينَ قَتَلهم آباؤكم، ٤٨. فأنتم تَشهدون، وعمّا أتى به آباؤكم تَرضَون: هم قَتَلوا، وأنتم تَبنون! ٤٩. لهذا قالت حكمةُ الله: أُرسِلُ إليهم أنبياءَ ورُسُلاً، فيَقتُلونَ منهم، ويَضطهدون، ٥٠. فيُحاسَبُ هذا الجيلُ عن كلّ ما سُفِكَ من دمِ الأنبياء – منذ إرساء العالم– ٥١. من دم هابيلَ إلى دمِ زكريّا، الذي

قُتِلَ بين المذبح والهيكل. أجلْ، لكم أقول: سيُؤَدّي هذا الجيلُ الحساب.

٥٢. الويل لكم، يا علماءَ التوراة! قَبَضتم على مفتاح المعرفة، فلا أنتم دخَلتم، ولا تركتمُ الآتين يَدخُلون.

٥٣. وخرج يسوعُ من هناك، وقد نَقَم عليه الكتبةُ والفرّيسيّون كلَّ النقمة، فشرعوا يستشيرون رأيَه في مسائلَ شتّى. ٥٤. يَنصُبونَ له الحبائلَ ليَصطادوه بكلمةٍ ما مِن فيه».

كلام يسوع هذا في ذمّ الفرّيسيِّين والكتبة وعلماء التوراة، وفي لعنهم، وإدانة عملهم واضح؛ وواضح أيضاً موقف اليهود الذين يحمّلون الناسَ أثقال شريعة موسى وتعاليم التوراة وتقاليد السلف، وهم لا يمسّونها... لهذا قال يسوع بأنّ اليهود سيُحاسَبون على جرائم التاريخ، بسبب تمسّكهم بتعاليم التوراة وتقاليد السلف.

١٤ . قل الحقّ (١٢/١) «في تلك الأثناء، احتشَدتْ عشراتُ الألوف من الجموع، حتّى داس بعضُهم بعضاً؛ فبدأ يسوع يقول لتلاميذه: احذَروا أوّلاً خميرَ الفرّيسيّين، احذروا الرِّياء!».

يبـدو أنّ رياء الفرّيسـيّين أدهى وأعظم من كلّ رياء. وقد سلّط لوقا عليه الضوء أكثر من غيره من الإنجيليّين، إذ اعتبـره "خمير" الفرّيسـيّين. لقد فهم الفرّيسـيّون موقف يسوع منهم. فقامت قيامتهم عليه، يدعون إلى المحافظة على شريعـة موسى وتعـاليم التوراة؛ ولـو على حسـاب تهديم الإنسان وهلاكه. ويسوع جـاء من أجل خلاص الإنسان لا من أجل الحفاظ على الشريعة وتعاليم التوراة والأحبار.

١٥ . شـفـاءُ حـدبـاءَ يومَ السـبت (١٣/ ١٠–١٧)

١٠. وكان يسوع يعلّمُ في مجمعٍ يومَ السبت. ١١. وكانت هناك امـرأةٌ أسـقَـمـهـا روحٌ منذ ثمـانيَ عـشْـرَةَ سنة، فاحدودَبَتْ، وأعـيا عليها الاسـتـواء. ١٢. وأبصرها يسـوع، فدعـاها وقال لهـا: يا امرأة! لـقد عُوفـيتِ من سُقْـمك. ١٣. ووضـع عليـها يدَيه، فـإذا هي تستـوي، وتُمجِّـد الله. ١٤. واغتاظ رئيسُ المجـمع، لأنّ يسوع قام بشفـاءٍ يومَ السبت، فقـال للجمْع: لديكم ستّـةُ أيّامٍ للعمل، فتـعالَوا واستشـفُوا فيـها، لا في يوم السبت. ١٥. قـال الربّ: أيّها المراؤون، ألا يَحُلُّ كلٌّ منكم عِقـالَ ثورِه، أو حمارِه، يوم السـبت، وينطلِق به من المَعلَف ليَسقِيَـه؟ ١٦. وابنةُ إبراهيم هذه، التي عَقَلها

الشيطانُ منذ ثمـاني عشْرةَ سنة، الا ينبغي فكُّ عِـقالِها يومَ السبت؟ ١٧. قال هذا فخزيَ جمـيعُ خصومِهِ، وسُرَّ الجمعُ كلُّه بجميعِ ما كان ياتي على يده من عمَلٍ مجيد».

يعلّق إونجليون: "شعب التوراة أشبه بهذه الحدباء، ويسوع يُفهم هذا الشعب أنّه قـادر على شفائه، وفكّ عقاله، على ما أعلن الأنبيـاء (عا ٩/١١؛ رسل ١٥/١٦)". يسوع قام، في رأي الـرؤساء والأحبـار، بما لا يحقّ له القـيام به؛ فيما الجميع من عامّة الشعب المظلومين يُسرّون بما قام به، رافـضـين بذلك، شـريـعـةَ مـوسـى والدين اليـهـوديّ، وتعاليمهما، اللّذَين كانا سبب ظلمهم وقهرهم.

١٦ . شفـاءُ مُستَـسْقٍ يومَ السبت (١٤/١-٦) «١.

وفي أحـدِ السـبـوت، دخـلَ يسـوعُ دارَ أحـدِ الـرؤسـاءِ الفرّيسيّين لتناولِ الطعام -والحاضرون يُراقبون- ٢. وإذا بمُسـتَـسقٍ بينَ يديه. ٣. خـاطـبَ يسـوعُ علمـاءَ التـوراة والفـرّيسـيّن قـال: أيجوزُ الشـفـاءُ يومَ السـبتِ أم لا؟ ٤. فأطرَقوا. فأخـذ السقيمَ بيده، وشفـاه، وصرَفَه. ٥. ثمّ قال لهم: مَن منكم يقعُ ابنُـه، أو ثورُه، في بئرٍ، يوم السـبت، ولا يسارع فيَنتَشِلُه؟ ٦. فأعيا عليهم الجواب».

يعلّق إونجليون: "كان يسوع يَقبل دعوة الفرّيسيّين إلى الطعام[٨]، ويجادلهم[٩]. جادلهم أربعَ مـرّاتٍ في انتهاك حـرمة السـبت: في قلع السنابل[١٠]، وفي شفـاء أشلّ[١١]، وشفـاء حدباء (لـو ١٣/ ١٠–١٧)، وشفاء مـستـسق (لو ١٤/١–٦). ويدور الجـدال كـلّه (لو ١٤/١–٢٤) في دار الفرّيسيّ، أثناء تناول الطعام".

إنّ في ذلك دليلاً ساطعاً علـى رفض يسوع لشريعة السبت، ودليـلاً على الاختلاف الحاصل بينه وبين الـيهود. فلكأنّ يســوع تعمّد إظهـارَ هذا الاختـلاف برفْضه تـعاليم التوراة في أقـدس شريعة فيـها، أي شريعـة السبت، وفي بيت أحد مَن يمثّل الحفاظ على تطبيق الشريعة.

١٧ . يسوعُ يُرَحّب بالخطأة (١٥/ ١–٢) «١. كان الجُبـاةُ والخطأة يَدنُونَ جمـيعـاً مِن يسوعَ ليَـسمـعوه، ٢. وكان الفرّيسـيّون والكتبة يتذمّـرون ويقولون: هذا الرجلُ يستقبِلُ خطأة ويؤاكل!».

---

(٨) لو ٧/ ٣٦؛ ١١/ ٣٧.

(٩) لو ٥/ ١٧، ٣٩؛ ٦/ ١–١١؛ ٧/ ٣٦–٥٠؛ ١٣/ ٣١–٣٢.

(١٠) لو ٦/ ١–٥؛ متى ١٢/ ١–٨؛ مر ٢/ ٢٣–٢٨.

(١١) لو ٦/ ٦–١١؛ متى ١٢/ ٩–١٤؛ مر ٣/ ١–٦.

جمهور يسوع كان الجباة والخطأة؛ أمّا الأحبار ورجال الدين فكانوا خصومَه، ويتربّصون به شرّاً، بسبب أنّه خالف تعاليم التوراة وتكاليف الدّين.

هنا يعلّق إونجليون: "الآيتان (١و٢) مقدَمة لكلّ ما في الفصل من جدال بين يسوع والكتبة والفرّيسيّين، لأنّ يسوع يستقبل جباةً وخطأة (٥/ ٣٠؛ ٧/ ٣٤)".

يسوع يستقبل الخطأة، يؤاكلهم، ويشاربهم، ويحادثهم... وهذا كلّه مخالفة للشريعة ولتعاليم الدّين. وكأنّ يسوع كان يتعمّد ذلك. وبالفعل صنع كلّ ذلك في بيت فرّيسيّ، وأحياناً أيّام السبوت، ما يخالف الشريعة اليهوديّة مخالفة مباشرة، وقد تكون متعمّدة.

١٨ . التوراة وملكوت الله (١٦/ ١٤-١٥) «١٤. وكان الفرّيسيّون، هواةُ المال، يسمَعون كلَّ هذا الكلام، ويَتهكّمون. ١٥. فقال لهم يسوع: أنتم تتظاهرون بالبرّ للناس، واللّهُ بما في قلوبكم عليم. الرّفيعُ عند الناسِ رِجْسٌ في نظر الله».

يعلّق إونجليون: "يصف يسوع الفرّيسيّين بالرياء: يتشدّدون في الحفاظ على أوامر الشريعة ونواهيها طلباً

لمجد الناس، ومكاسب الدنيا. يذكّر كلام يسوع بحكماء العهد القديم[١٢]". لهذا قال فيهم : «تتظاهرون»، أي تظهرون للناس غير ما تخفون؛ أي أنتم مع الناس على غير ما أنتم عليه مع الله. من هنا كنتم أعظم الناس رياء.

١٩ . الفرّيسيّ والجابي (١٨/ ٩-١٤) «٩.

وضرب يسوعُ هذا المَثَل في مَن هم على ثِقةٍ من برارتهم؛ ويحتقرون الآخرين، قال: ١٠. صعد إلى الهيكلِ اثنان، فرّيسيٌّ وجابٍ، لكي يُقيما الصلاة. ١١. وانتصب الفرّيسيُّ يُصلّي في سرّه هذه الصلاة: لكَ الحمْد، يا اللّه، فما أنا كسائر الناس، أو كهذا الجابي: ما أنا بجشِعٍ ظالِمٍ زانٍ، ١٢. وأصوم في الأسبوع يومَين، وأؤدّي العُشْرَ عن كلّ دَخلي. ١٣. أمّا الجابي فوقف بعيداً، وهو يأبى حتّى رَفْعَ عينيه إلى السماء، وأخذ يَقرَعُ صدرَه ويقول: اَللّهم، اصفح عنّي، أنا الخاطئ!. ١٤. الا إنّي أقول لكم: نزل الجابي باراً إلى بيته، دونَ صاحبه. فكلُّ مُتعالٍ إلى ضِعة، وكلّ مُتَّضعٍ إلى عُلُوّ».

(١٢) سير ٧/ ٥٤؛ مثل ٢٤/ ١٢-١٦؛ ٥/ ٥.

يعلّق إونجليون: "صلاة الفرّيسيّ هي صلاة البارّ (مز ١) يعدّد فيها أعماله الصالحة: الصوم، وأداء العشر (٥/ ٣٣؛ ١١/ ٤٢)، ويرى في أعماله تلك عطيّة من اللّه تجعله أكمل من غيره، ويشكره عليها. النقص في صلاة الفرّيسيّ اعتقاده أنّه كاملٌ لا عيب فيه، بارٌّ بأعمال يقوم بها، ضامنٌ خلاصَه. أمّا صلاة الجابي فهي صلاة صاحب المزامير (مز ٥١) يعترف فيها أنّه خاطئ دون أن يعدّد خطاياه، ويتّضع للّه سائلاً الرحمة والغفران".

يقف يسوع مع الجابي لتواضعه وإظهار نواقصه وحقيقةِ وضعِه، ويقارنه بذاك الفرّيسيّ الذي يعتبر نفسه كاملاً باراً. اللّهُ يمقتُ، في نظر يسوع، المتكبّرين الذين يظنّون براءتهم، وهم ليسوا، لريائهم، أبراراً. فيما اللّهُ يُحبّ الإنسانَ الوضيع مهما كان خاطئاً.

٢٠ . يا معلّم ازجرْ تلاميذك (١٩/ ٣٨-٤٠) «٣٨. وكانوا يقولون: مبارك الملِكُ الآتي باسم الرب! سلامٌ في السماء، ومجدٌ في الأعالي! ٣٩. قال فرّيسيّون من الجمْع: يا معلّمُ، ازجُرْ تلاميذَكَ. ٤٠. قال: لكم أقول: لو سكتوا هم لَهتفتِ الحجارة».

لم يكنِ الفرّيسيّون راضين عن موقف التلاميذ، ولا عن كلامهم في تمجيد معلّمهم وتعظيمه. لهذا انزعجوا من يسوع ومن تلاميذه؛ ليس فقط بسبب تعاليم يسوع المخالفة لتعاليمهم، بل بسبب تعظيم التلاميذ لمعلّمهم، وكأنّه نبيّ صاحب شريعة إلهيّة، مثله مثل موسى.

٢١ . الأحبار يسعون إلى قتل يسوع (١٩/ ٤٧- ٤٨) «٤٧. **وكان يُعلّم في الهيكل كلَّ يوم. وكان الأحبار والكتبة وأعيانُ الشعب يَسعون إلى أنْ يُهلكوه. ٤٨. وما كانوا يَهتَدون إلى ما يَفعلون، لأنّ الشعب كلَّه كان يُصغي إليه مَفتوناً**».

يعلّق إونجليون: "يشدّد لوقا على تردّد يسوع إلى الهيكل طوال هذه المدّة الأخيرة من رسالته، وما تردّد ليقوم بفرائض العبادة، بل ليعلّم الشعب. وبه اقتدى تلاميذه من بعده (رسل ٥/ ٢٠-٢١)".

قبل ذلك كان يسوع قد دخل الهيكل وأخذ يطرد الباعة منه، "لأنّ الهيكل بيت صلاة وعبادة، لا تطهيراً له كما يعود موضع العبادة اليهوديّة القديمة، التي انتهى زمانها. ورأت السلطات اليهوديّة في عمل يسوع اعتداء

على صلاحيّاتها، وإنذاراً بتدمير الهيكل، فصمّمت على قتله، وعلى قتل اسطفان من بعده (رسل ٦/١٣-١٤)، وقتْل بولس (رسل ٢١/٢٨)".

الهيكل لا يهمّ يسوع كثيراً؛ إنّما عبادة اللّه، أكانت في الهيكل أم خارجه، هي الأهمّ. فيما القداسة عند اليهود هي للهيكل. لهذا صمّموا على قتل يسوع، لأنّهم رأوا في كلامه تهديداً وإنذاراً بتدمير الهيكل، ولأنّ يسوع، في موقفه هذا، يدمّر التوراة ومقدّساتها أيضاً. لهذا كانت العداوة بينه وبين القيّمين عليها على أشدّها.

٢٢ . **بأيّ سلطان؟** (٢٠/١-٢) «١. **في أحد الأيّام، وبينا كان يسوع يُعلّمُ الشعبَ في الهيكل، ويُبشّر، وافاه الأحبار والكتبة والشيوخ، ٢. وقالوا له: قلْ لنا: بأيّ سلطان تفعلُ ما تفعل، أو مَن آتاك هذا السلطان؟».**

يعلّق إونجليون: "الأحبار والكتبة والشيوخ ذوو السلطان الشرعيّ في شعب اللّه، ولذا أنكروا على يسوع سلطانه. ويسألهم يسوع لماذا رفضوا سلطان يوحنّا المعمدان، فخالفوا مشيئة اللّه (٧/٣٠)، وانفصلوا عن شعب اللّه الذي آمن بيوحنّا نبيّاً (٢٠/٦)، وكأنّه يُنكر

عليــهم سـلطانهم، مَـثَلَهــم مَثَلُ الـكرّامين الذين قــتلوا الابن الحبيب، فانتزع الله منهم سلطانهم وأهلكهم (٢٠/١٦)".

ثمّ هل يبغي الأحــبارُ دليلاً أسطع ممّا يفــعل يسوع مع المرضـــى من شــفـــاءات، ومع الخطـأة من مـــغــفـــرة لخطاياهم! حــتّى يتجـرّأوا على سؤال يســوع عن سلطانه وعن مصدر هذا السلطان؟!

ولكنّ العداوة بين الطرفَين أخذتْ تشـتدّ وتقوى.

٢٣ . مَــثَل الكرّامين القــتلة (٢٠/١٩-٢٠) بعــدما أرسل ربّ الكرم عبــيداً ليــعطوه من ثمر الكرم، فـقتلوا من قتلوا، «**١٩. ساعتَها سعى الكتــبةُ والأحبارُ أن يُلقوا القبض عليه** (الابن)، **ولكنّهم خافوا الشــعب. لقد أدركوا أنّه عناهم بهذا المثل، ٢٠. وترصّدوه، وأرسلـوا جواسيسَ يتظاهرون بالبرّ، عساهم يجدون، في كلمةٍ منه، مأخذاً عليه، فيُسلّمونه إلى أمر الوالي وسلطانه**».

يعلّق إونجليون: "لا يــحدّد لوقا هويّة الجــواسيس، وإن كان يوضِح قصدَهم، وهو تسليم يسوع لأمر الوالي".

في هذا المَثَل، يشير لوقا إلى نيّــة الأحبار اليهود في تسليمــهم يسوع إلى الوالي الروماني، ليحكم عليــه بالقتل.

وهذا ما حدث. وهذا هو المنتظر، بسبب الخلاف الدائم والحاصل بين يسوع وبين الكتبة والأحبار في أمور الدين وتعاليم التوراة والشريعة.

٢٤ . إحذروا الكتبة (٢٠/ ٤٥-٤٧) «٤٥. **وقال لتلاميذه، بمسمعٍ من الشعب كلّه: ٤٦. إحذروا كتبةً يريدون التجوال بالحُلَلِ الضّافيات، والتحيّاتِ في الساحات، وصدورَ المجالسِ في المجامع، وأوائلَ المتّكآت في الولائم، ٤٧. بيوتَ الأراملِ يَلتَهمون، والصلاةَ دَجْلاً يُطيلون، فيا لَصرامةِ عِقابٍ سوف يُقاسُون**».

يصف يسوع الكتبة هنا، وهم إحدى فئات رجال الدِّين، بأنّهم يخدعون الناس، بما يلبسون، ويتظاهرون بالبرّ والتقوى في تطويل صلاتهم، ومساعدة الأرامل واليتامى والمساكين. إلاّ أنّهم، في حقيقتهم، يعملون كلّ ذلك رياءً وخبثاً. فالويل لهم لريائهم و خبثهم.

يبدو أنّ الخبث والرياء أبرز صفات الأحبار التي تبعدهم عن الله. ويبيّن يسوع فسادَهم بسبب هاتَين الصفتَين المقوتَتين جداً، لأنّهما تجعلان من الإنسان ماكراً غير صريح، لا مع الناس فحسب، بل مع الله أيضاً.

٢٥ . المؤامرة (٢٢/١-٤) «١. وقَرُب عيدُ الفَطير، الذي يُدعى الفِصْح! ٢. وكان الأحبـارُ والكتبةُ، في خوفِهم من الشعب، يتلمّسون كيف يَقضُون على يسوع. ٣. ودخل الشيطانُ في يهوذا، المعـروف بالإسْخَريوطيّ، وأحدِ الإثنَي عشَـر، ٤. فذهبَ، وفاوضَ الاحـبارَ، وقادةَ الحَـرَس، كيف يُسلِمُ إليهم يسوع».

لم يكن الإســخـريوطيّ ســوى آلـة بيـد الشـيطان والأحـبـار والكتـبـة. هؤلاء هم أعـداء يســوع، منذ البـدء؛ والإســخريوطيّ ينفّـذ مـا شاؤوا لطمـعـه بالمال، أكثـر من بغضه للمعلّم. فالمال، كما قال يسوع، ربّ ثانٍ، ويهوذا كان يعرف أكثر من سواه أهمّيّته، لأنّه كان أميناً على الصندوق. فالأعداء إذاً هم الأحبار، وليس يهـوذا، الذي ينفّذ رغباتهم. إنّ يسـوع جاء لينقض دورهم في الشعب، ويلغي تعاليمهم.

٢٦ . القبض على يسوع (٢٢/٥٢) «ثمّ قال يسـوع للآتينَ إليه من الأحـبار، وقادة حـرّاس الهيكل، والشــيوخ: الِصٌّ أنا فتَخرُجوا عليَّ بسيوفٍ وعِصِيّ؟!».

يعلّق إونجليون: "يتفرّد لوقا، هنا، بذكر الأحبار مع الآتِين للقبض على يســوع. ومجيئهم غـريب! قد يكون لوقا

أراد التشديد على مسؤوليّـة الأحبار وقادة حرّاس الهيكل، في مقتل يسوع، فيعيد ذكرهم هنا مع يهوذا ".

فمسؤوليّة مقتل يسوع تقع كلّها على عاتق الأحبار؛ والسبب معروف، وهو رفض يسوع لتعاليمهم وتعاليم توراتهم وتشريعاتهم، وتقاليدهم، مثل حرمة السبت، والختان، والرجم، والسنّ بالسنّ.. وما إلى ذلك، من تعاليم أتت بها التوراة، ووقف معها الأحبار ضدّ يسوع وتعاليمه.

٢٧ . أمام المجلس (٢٢/ ٦٦-٦٧) «٦٦. وفي الصباح، انعقد مجلسُ شيوخِ الشعبِ أحباراً وكتبةً، واستقدموا يسوع إلى مجلسهم، ٦٧. وقالوا له: إنْ كنتَ أنت المسيحَ فقُلْهُ لنا. قال يسوع: إنْ قلتُ لكم فلن تؤمِنوا...».

لا يزال يسوع يُقلق الأحبار والكتبة، إذا كان هو المسيح الموعود به أم لا؟ وكان يسوع يجيبهم: إن قلت لكم بأنّي أنا المسيح فلن تؤمنوا. وهذا واضح من سيرتهم ومواقفهم ضدّ يسوع طوال حياته. فلماذا يقول لهم الآن ما رفضوه دائماً؟ وإذا ما قال لهم عن هويّته فهل يصدّقونه هم الذين يقفون مع تعاليم التوراة ضدّ تعاليمه؟!

٢٨ . إلى بيلاطس (٢٣ / ١-٢) «١. وقاموا كلُّهم معاً، وذهبوا بيسوعَ إلى بيلاطس. ٢. وأخذوا يشكونه قالوا: لقِينا هذا الرجلَ يَفتِنُ أمَّتنا، يَنهي عن أداء الضريبة إلى قيصر، ويدّعي أنّه مسيحٌ ملِك».

من الطبيعي أن تكون شكوى الأحبار اليهود على يسوع أمام بيلاطس الوالي الروماني، والشكوى تقوم الآن، لا لمخالفته أحكام التوراة، في رفض الختان وشريعة السبت وحسب؛ بل لادّعاء يسوع بأنّه ملِك، كقيصر، أو أعظم، وبأنّه، بالتالي، ينهى عن أداء الضريبة إلى قيصر.

وفي هذا دليل على ضعف حجّة الأحبار في الحكم على يسوع، لأنّهم ما اشتكوه إلاّ بما يخصّ الرومان والقيصر.

٢٩ . أمام هيرودس (٢٣ / ٩-١٠) «٩. وسأله (هيرودس) **أسئلةً عديدةً فلم يُجِبْه أيّ جواب. ١٠. وكان الأحبارُ والكتبةُ واقفِينَ يَشكون، ويحتدُّون».**

يسوع لم يجب على أسئلة هيرودس، ولا على أسئلة الأحبار والكتبة، الذين كانوا يشكونه. فهو يعرف أنّهم يعرفون ما سيجيبهم عليه؛ ولكنّهم لا يصدّقونه إذا ما

أجابهم؛ فالأفضل له، إذاً، ألاّ يعرّض نفسه لتهمة الكذب والرفض مرّة أخرى.

٣٠ . قرار بيلاطس (٢٣/ ١٣-١٦) «١٣. ودعا بيلاطس إليه الأحبار والرؤساء والشعب؛ ١٤. وقال لهم: جِئتُموني بهذا الإنسانِ على أنّه يَفتِنُ الشعب. وها أنا قد استنطقتُه أمامكم، فلم أجد لهذا الإنسان أيَّ ذنبٍ ممّا تَشكونَه به، ١٥. ولا هيرودس وجد، إذ قد أعاده إلينا. فهذا إذاً لم يأتِ ما يستوجبُ الموت. ١٦. سأؤدّبُه، ثم أُطلِقُ سَراحَه».

واضح بيلاطس في حكمه، فهو المسؤول الرومانيّ الوثني الذي كان أرحم بيسوع من الأحبار اليهود الذين يدّعون معرفة مشيئة اللّه والتكلّم باسمه وباسم الشريعة والتوراة. لهذا قرّر أن يُطلق سراحه. وبالفعل " حاول بيلاطس ثلاثَ مرّات إطلاق سراح يسوع (١٦، ٢٠، ٢٢)، وذلك: بإعلانه براءة يسوع، وإحالته إيّاه على هيرودس، ومحاولة استبدال الموت بالتأديب، وبرأبّا بيسوع ".

إله الأحبار والتوراة، على ما يبدو، كان أكثر ظلماً على يسوع من بيلاطس الوثني والشريعة الرومانيّة.

٣١ . الصلب (٢٢/٣٥–٤٠) «٣٥. وكان الشعبُ قائماً هناك ينظر، وكان الرؤساءُ أنفسُهم يتهكّمون قائلين: خلّص غيره، فليُخلّصْ نفسه، إن يكنْ مسيحَ الله، ذلك المختارَ! ٣٦. وكان الجندُ أيضاً يَسخَرون، يَدنُونَ منه، ويُقدِّمون له خلاً؛ ٣٧. ويقولون: إنْ كنتَ أنتَ ملكَ اليهود فخلّصْ نفسَك! ٣٨. وكان قد كُتِب فوقَه: هذا ملكُ اليهود. ٣٩. وكان أحدُ المجرمَين المصلوبَين يَشتُم يسوعَ قائلاً: ألستَ أنتَ المسيح؟ خلّصْ نفسَك، وخلّصنا! ٤٠. فانتهره المجرمُ الآخر، قال: أوَما تخاف الله؟».

لا يزال رؤساء الشعب والأحبار يسخرون من يسوع ويتهكّمون عليه، حتّى آخر لحظة من حياته، وهو معلّق فوق الصليب، بين لصّين. الجنود الرومانيّون يسخرون منه أيضاً، والأحبار والمتكلّمون باسم الله أيضاً.. أمّا الشعب فكان «قائماً ينظر». إنّه، كما يقول شرّاح إونجليون: "شعب العهد المؤمن برسالة يسوع[١٣]" . هذا الشعب شعر بالأمس ويشعر اليوم بأنّ يسوع كان يحبّ الإنسان، يعتني بالمرضى، يرقّ للمساكين والفقراء..

(١٣) ر: لو ٣/٢١؛ ٧/٢٩؛ ١٩/٤٨؛ ٢٠/١، ٢٦؛ ٢٢/١٣...

٣٢ . على طريق عِمّاوُس (٢٤/١٧-٢١) **«١٧. قال** (يسوع) **لهما** (أي لتلميذَي عمّاوس): **بِمَ تتحادثان، وأنتُما تَسيران؟ فوقفا عابِسَين. ١٨. ثمّ قال أحدُهما، واسمُه كِلْيُوباس: أتكونُ وحدَك غريباً عن أورشليم، جاهلاً ما حدَث فيها هذه الأيّام؟ ١٩. قال يسوع : وما حدث؟ قالا: ما كان من أمرِ يسوعَ الناصري، ذاك النبيِّ القويِّ قولاً وفعلاً قدّامَ اللّهِ والشعبِ كلِّه، ٢٠. وكيف أسلمَه أحبارُنا ورؤساؤنا ليُحكَمَ عليه بالموت، وكيف صلبوه. ٢١. وكنّا نحن نرجو أن يكونَ هو مَن سيَفدي إسرائيل. زدْ على كلِّ ذلك أنّ هذا هو اليومُ الثالثُ بعدَ تلك الأحداث».**

يعترف تلميذا عِمّاوُس بتسليم الأحبارِ والرؤساءِ اليهودِ يسوعَ إلى السلطات الرومانيّة ليحكموا عليه بالموت صلباً. ويعلنان أيضاً أنّ يسوع كان بارّاً تقيّاً، جاء يفدي إسرائيل، ويخلّصه من أعدائه، ومن حكم الشريعة الموسويّة، ومن حكم الرومان. هذان التلميذان كانا يعترفان بأنّ يسوع كان نبيّاً قويّاً قولاً وفعلاً؛ فيما القيّمون على التوراة لم يفهموا من تعاليمها شيئاً.

***

عند هذا الاعتراف توقّف لوقا عن الكلام برفض يسوع الشريعة اليهوديّة، وبرفض اليهود تعاليم يسوع. لم يطل لوقا الكلام أكثر، لأنّه لم يكن يهودياً، ولم يعانِ من ثقل الشريعة اليهوديّة عليه مثل غيره.

لهذا، فهو لم يقدّر ضغط الدين اليهوديّ على الإنسان. فلم يتوسّع في رفض يسوع اليهوديّة والأحبار اليهود وذمّهم. لقد سرد وقائع أكثر من إظهاره المعاناة.

ولهذا أيضاً تكلّم لوقا، وبالغ في كلامه، عن شموليّة الخلاص لجميع الأمم. لهذا كان كلامه عن مولد يسوع ابتداءً من أوّل البشريّة...

الفصل الرابع

يسوع في إنجيل يوحنّاً

١ . لم يكن في حساب يوحنّا الإنجيليّ أن يُظهر موقف يسوع الرافض لتعاليم التوراة والدين اليهوديّ، كما فعل سائر الإنجيليّين، لأنّ همّ يوحنّا كان إظهار هويّة يسوع الإلهيّة. فهو كلمة اللّه الأزليّة، الذي جاء ليخلّص الناس أجمعين. وكان جلّ همّه أيضاً التشديد على حقيقة التجسّد ودوره الخلاصيّ، من دون اهتمامه بخلفيّة رفض يسوع للشريعة الموسويّة.

ومع هذا، لم يتورّع يوحنّا عن الكلام على مواقف يسوع ضدّ اليهوديّة ورفض شريعتها وتعاليمها وتقييد الإنسان بشرائع أُنزلت عليه باسم اللّه.

٢ . آية الهيكل (٢/ ١٥) **«فجدل** (يسوع) **سوطاً من حِبال، وطردهم جميعاً من الهيكل، طرد الغنم والبقر، وبدّد نقودَ الصيارفة، وقلب مناضِدَهم».**

يعلّق إونجليون بقوله: "طرد يسوع الغنم والبقر بالسوط، أمّا البشر فما ضربهم؛ بدّد نقودَهم، وقلب مناضدهم، وخاطبهم بالكلمة، لأنّ يسوع يحترم الإنسان، ولو شذّ. أتى يسوع عملاً نبوياً إصلاحياً، فكان أهمّ سبب لحقد الكهنة عليه ومطالبتهم في أورشليم بصلبه".

٣ . شفاء مَفلوج يوم سبت (٥/ ٨–١٨) **«٨. قال يسوع له** (للمفلوج)**: قُمْ، واحمِلْ فراشَكَ، وامشِ. ٩. فشُفي الإنسانُ لوقته، وحمَل فراشَه، ومشى. وكان ذلك اليوم سَبْتاً ١٠. فقال اليهود للمُعافَى: إنّه سبت، فلا يجوز لك حَمْلُ فراشِك. ١١. قال المعافى: ذاك الذي شفاني قال لي: احمِلْ فراشَك، وامشِ. ١٢. قالوا: وأيُّ إنسانٍ قالَ لكَ: احمِلْ فراشَك، وامشِ؟.. ١٥. فمضى المعافى إلى اليهود، وأخبرهم أنّ يسوعَ هو الذي شفاه. ١٦. فصار اليهودُ يُطاردونَ يسوع. ١٧. وردّ عليهم يسوع: أبي لا يَنفَكُّ يعمل، وأنا أيضاً أعمَل. ١٨. فازداد اليهودُ سَعياً لقتله، لأنّه ما كان يكتفي بانتهاكِ حُرمَةِ السبْت، بل يدعو اللّه أباه».**

هنا، كما يعلّق إونجليون "أوّل صدام جدّي، في إنجيل يوحنّا، بين يسوع والسلطة اليهوديّة. وسوف يتفاقم هذا الصدام، ويبلغ ذروتَه في الفصول (٧-١٠)، وفي الحكم على يسوع بالقتل (١١/٤٧-٥٣)".

وسبب الصدام معروف، وهو أنّ يسوع لم يحترم شريعة السبت فحسب، بل لم يحترم سموَّ اللّه على الإنسان. فيسوع ساوى نفسَه باللّه الكلّي القدرة والمعرفة. وهذا شرْك وكفر باللّه وبالشريعة اليهوديّة كلّها.

لهذا، لا بدّ من أن ينال يسوع جزاءه، بحسب الشريعة، وبحسب غيرة القيِّمين عليها وبطشهم.

٤ . يسوع يصعد سرّاً إلى العيد (٧/١) «وكان يسوع، بعد ذلك، يطوف في الجليل، ويأبى الطوافَ في اليهوديّة، حيث كان اليهود يبتغون قتلَه.. فقال له إخوتُه: اذهَبْ من هنا، وسِرْ إلى اليهوديّة، فيرى تلاميذُكَ أيضاً ما تأتيه من أعمال».

منذ البداية، كان يسوع يتفادى الأحبار والرؤساء اليهود الذين يريدون قتلَه، لأنّه، كما يبدو، كان يعلّم غير تعاليمهم، وكان يقف من الشريعة غير موقفهم، وكان يتجرّأ على دعوة اللّه أباه. لهذا «أبى الطواف في اليهوديّة»،

وذهب إلى قرى الجليل. أمّا إخوته فيريدون أن يشهد لما من أجله أتى في اليهوديّة أوّلاً لا في الجليل. إلاّ أنّ يسوع، عند يوحنّا، يعلم، قبل سواه، متــى تأتي الساعة، ومتى يجب أن يحزم أمرَه ويعلن وقتَ رسالته، وأين يعلنها.

٥ . حيرة في أمر يسوع (٧/ ١١-١٣) «١١. وكان اليهود يبحثون عن يسوع في العيد، ويقولون: أينَ هو ذاك؟ ١٢. وكان في الجمع تهامُسٌ عليه كثير، فمِن قائلٍ: "إنّه صالح"، ومن قائل: "لا، بل هو يُضَلِّلُ الجمْع". ١٣. وما كان أحدٌ يجاهر برأيه فيه خوفاً من اليهود».

لماذا كان اليهود يبحثون عن يسوع؟ الجواب : لأنّ يسوع عمل أعمالاً تخالف تعاليم التوراة، كما تخالف مواقف الرؤساء والأحبار. لذلك نووا به شرّاً، بل نووا أن يقتلوه. لهذا ما كان أحدٌ يجاهر برأيه فيه خوفاً منهم، ومن الشريعة التي تقضي بقتله، وقتْل من يخفي علمه به.

٦ . الختان يوم سبت (٧/ ٢٢-٢٣) «٢٢. أعطاكم موسى الختان -وما هو الذي أعطى، بل الآباء-، وتَختِنون إنساناً يوم سبت. ٢٣. فإنْ يُختَنْ إنسانٌ، يوم سبت، لئلاّ تُخالَفَ توراةُ موسى، أفتسخطونَ عليّ لأنّي شَفَيتُ إنساناً من كلّ ما به يومَ سبت؟».

يعلّق إونجليون: "يختن اليهود يوم سبت، إذا كان اليوم الثامن (لولادة الطفل)، ويسوع يشفي يوم سبت. كان علماء الشريعة يجيزون العناية بالمريض، يوم سبت، إذا كان في خطر الموت، ويجيزها يسوع في كلّ مرض. يعتمد يسوع برهنة علماء الشريعة، ولكنّه لا يضيّق تضييقهم".

٧. الفرّيسيّون يبغون اعتقال يسوع (٧/ ٢٥-٣٦)

«٢٥. وكان قوم من أورشليم يقولون: أليس هذا مَن يبتغي الرؤساءُ قتلَه؟..٣٠. وكانوا يبغُون اعتقالَه، ولكنّ أحداً لم يَقبِضْ عليه. ٣١. وآمن به مِن الجمْع عددٌ كثير، وكانوا يقولون: إذا ما جاء المسيح، أفيأتي من الآيات بأكثرَ ممّا أتى به هذا؟ ٣٢. وبلغ مسامعَ الفرّيسيّين ما كان يتهامس به الجمْعُ في شأن يسوع، فأرسلوا هم والأحبارُ حرَساً لاعتقالِ يسوع».

لم يتورّع يوحنّا عن الكلام على نيّة الفرّيسيّين في اعتقال يسوع، وتسليمه للسلطات الرومانيّة، والحكم عليه بالموت. والسبب هو رفض يسوع لشريعة التوراة، من أجل الإنسان، حتّى ولو كان ذلك يوم سبت، أي نكاية بالتوراة وبالقيّمين عليها.

٨ . أتُرْجَمُ الزّانيـةُ؟ (٨/١-١١) «٣. وأتاه الكتـبة والفرّيسيّون بامـرأةٍ دُهِمَتْ تَزني، وأقاموها في الوسْط. ٤. وقالـوا: أيّها المعلّم، ذهبتْ هذه المرأةُ في زنـىً مشـهود، ٥. وتوراة موسى تَقضي علينا برجْم أمثالِها، فما تقول أنت؟.. ١١. فانتـصب يسوع وقـال: أين هم، أيّتهـا المرأة؟ أما دانكِ أحد؟ قالتْ: ما دانني أحدٌ سـيّدي. قال يسوع: ولا أنا أدين. روحي، ولا تعودي تَخطئين».

يعلّق إونجليون: "تقضـي التوراة برجم امرأة تؤخذ في جرم الزنى المشـهود، ويَعرف الكتـبة والفرّيسـيّون أنّ يسوع يؤثر الـرحمة على أحكام التـوراة الصارمـة، ولهذا أتوه بزانية، وسألوه رأيه، لعلّه يخـالف التوراة، في موقف علني، فـيمكنهم الحكم عليـه. ولكنّ يسـوع وقف مـوقف الرحمة، وخزى الكتبة والفـرّيسيّين! اختصر أغوسطينوس المشهد قال: لم يبقَ سوى اثنتَين: مسكينة ورحمة!"

نحن هنا أمـام مشـهد صارخ ضـدّ تعاليم الـتوراة وعـادات الشيـوخ والأحبـار. إزاء هذا المشـهد، لم يتـورّع يسوع من أن يكون مع مـحبّة الإنسان أكـثر ممّا يكون مع الدفـاع عن الشريعـة. فالإنسـان، هنا، وفي تعاليم يـسوع عادةً، أولى من الله نفسه، لأنّه هو الواسطة إلى الله.

٩ . لو كان اللّهُ اباكم لاحْبَبْتُمـوني (٨/ ٣١-٥٩)

«٣١. قال يسوع ليـهودٍ آمنوا به[١]. ٤١. إنّكم أعمالَ أبيكم تعمَلون. قالوا: نحن لسنا أولادَ فُجور. لنا أبٌ واحدٌ هو اللّه. ٤٢. قال يسوع: لو كان اللّهُ أباكم لأحْببتُموني، لأنّي أنا من اللّه خرجتُ. وأتيت. وما من تلقائي أتيت، بل هو أرسلَني».

يعلّق إونجليـون: "يشـدّد اليهـود على أنّهم شـعب اللّه، واللّه أبوهم. يعـترض اليـهود على يســوع، ويؤكّدون أمـانتـهم لعـهـد اللّه، ولكنّ يســوع يُصــرّ على أنّهم أولاد الشـيطان (٨/ ٤٤)"، وأولاد فـجور. والـفجـور، في لغـة الأنبيـاء، خطيئـة شعب اللّه المتكرّرة، وتعني خـروجه على عبادة اللّه الأحد[٢].

فـهل بعـد هذا الكلام من هدنة وسـلامٍ بين يســوع واليهود؟. هو لم يقدر عليهم، أمّا هم فقدروا عليه، لتسلّحهم بالدِّين وبتعاليم التوراة. لقـد انتصروا عليه، لأنّهم حاربوه باسم اللّه وباســم الدِّين والتـوراة والأنبـيـاء والنامـوس.. ولكنّهم انتصروا إلى حين.

(١) ومـا آمن هؤلاء اليهـود بيسـوع إلاّ بصعـوبة، لأنّ إيمانهم به كـان تنازلاً عن بعض تقاليدهم

(٢) رَ هو ١-٣؛ إر ٣/ ١-٤؛ أش ٥٧/ ٧-١٣؛ حز ١٦/ ٣٣.

١٠ . شـفاء أعـمى يوم سـبت (٩/ ١٣-٢٤) «١٣. ذهبوا به، هو الذي كـان أعمى، إلى الفرّيسـيّين. ١٤. وكان يسوع قـد جبل طيـناً، وفتح عيـنيه يومَ سَـبْت. ١٥. وعاد الفرّيسـيّون يسألونه كـيف أبصر، فقـال: وضع طيناً على عينيّ، واغـتسلتُ، وأبصِـر. ١٦. قال فرّيسـيّون: ليس هذا الإنسـانُ من عند الله، فهـو لا يَرعى حُـرْمَةَ السـبْت.. ٢٤. وعاد الفرّيسـيّون، فدعوا بذاك الذي كـان أعمى، وقالوا له: مَجِّدِ الله! نحن نعلمُ أنّ هذا الإنسانَ خاطئ»...

مـرّة أخرى لا يرعى يسـوعُ حرْمـةَ السبت؛ ومـرّة أخرى ما كان على الفرّيسـيّين إلاّ ملاحقة يسوع ومطاردته بسـبب ذلك. هم يقـدّسون السـبت على حساب الإنسـان، ويسـوع يقـدّس الإنسـان على حسـاب السـبت، بل على حساب الشـريعة التوراتيّة برمّتهـا. والصدام، بسبب ذلك، سيقوم، ويطول، وسيؤدّي حتماً إلى الصليب والموت.

١١ . الرّاعي الصالح (١٠/ ١-١١/ ٨) «٨. جمـيعُ الذين أتَوا (قـبلي) سـارقـون ولصـوص، ولم تَسـمعْ لهمُ النّعـاج.. ٣٠: أنا والآب واحـد. ٣١. عاد اليـهـود يتناولون حجارةً ليَرجُـموه.. ٣٩: وعادوا يَبغُون اعتـقالَه، فأفْلَتَ من يدهم. ٤٠. وعـاد إلى عِبْـرِ الأردنّ.. ١١/ ٧. وبَعدَهمـا (أي

بعد يومَين) **قال** (يسوع) **للتلاميذ: عودوا بنا إلى اليهوديّة.**
٨. قال التلاميذ: أتعودُ إلى هنالك، يا معلّم، ولا يزال اليهودُ يَبغونَ رَجْمك؟»

يعلّق إونجيليون: "الرّاعي المثالي (الذي يتكلّم عليه العهد القديم)[٣]؛ يرسله اللّه في آخر الأزمنة ليرعى شعبه بدل موسى، ويقوده إلى الخلاص (عد ٢٧ / ٢١). أمّا السارقون واللصوص فهم المسحاء الدجّالون، والفرّيسيّون، والصدّوقيّون، والأحبار، وجميع قادة الشعب اليهوديّ، وقد اصطدم يسوع بهم مرّات ومرّات، ودعاهم «قادة عميان»[٤].

لا بدّ من راعٍ غير موسى؛ لأنّ تعاليم موسى أدّت إلى ما أدّت إليه. لهذا قام يسوع عليها وعلى موسى وعلى مَن يتبع موسى من قادة الشعب اليهوديّ، الذين يضحّون بالإنسان لحساب الشريعة.

موسى وأتباع موسى «قادة عميان»، «سرّاقون ولصوص».. هؤلاء سمع لهم اليهود، فكيف يكون يسوع بأمان وسلام معهم؟!

---

(٣) ٢: مل ٧ / ٨، مز ٧٨ / ٧٠ ٧٢؛ سي ٢ / ١٢ ١٣؛ إر ٢٣ / ١ - ٤؛ ٣١ / ١٠؛ حز ٣٤؛ زك ١١ / ٤-١٧

(٤) متى ١٥ / ١٤؛ ٢٣ / ١٦؛ لو ١٥ / ١-٧؛ يو ٩ / ٣٩-٤١.

١٢ . قـتْل يســوع (١١/٥٣-٥٧) «٥٣. ومن ذلك اليـوم قرّ رأي الفـرّيســيّين على قتْـل يسوع. ٥٤. وامــتنع يســوع عن التجـوال علَناً بينَ اليــهود، واعــتـزلَ في بُقعَــةٍ متــاخِمةٍ للـبريّة، في مدينة يُقــال لها إفْـرائيم.. ٥٦. وكانوا يبحثــون عن يسوع، في الهيكل يتســاءلون: ما تَظُنّون؟ ألن يأتيَ إلى العــيــد؟ ٥٧. وكان الأحــبــار والفــرّيســيّون قــد أصدروا هذا الأمــر: على كلّ مَن يَعلمُ بمقرِّ يسوعَ أن يُخــبرَ عنه، لكي يَعتقِلوه».

مهـما صنع يســوع من شفــاءات وإقامــة أموات، لا يزال اليهـود يبحـثون عنه ليـعتقلوه. والســبب هو أنّ هذه الأعمال صنعــها يسوع يوم السبت الذي لا يــحقّ له فيه أيّ عــمل أو حركــة. لهذا أصــدر الفرّيســيّون والأحــبار أمــراً باعــتقــاله. يريدون أن ينتهــوا منه ومن تعاليــمه في إلــغاء شريعة السبت، ومن ادّعائه الألوهيّة، ومن تفضيله الإنسان على الله.

١٣ . نوراً أتيــتُ إلى العـــالم (١٢/٣٧-٥٠) «٤٢. على أنّ كثيــرين من رؤساء اليهود أنفســهم آمنوا بيسوع، ولكنّهم لم يَجهروا بــإيمانهم لئلاّ يُقصِيَهمُ الفــرّيسيّون عن المجمع؛ ٤٣. فقد استحــبّوا مجدَ الناسِ على مجدِ الله.. ٤٧.

إنّي مـا أتيتُ العالَمَ دَيّاناً بـل مخلِّصـاً. ٤٨. مَن رذَلني، ولم يَقبلْ اقوالي، فله دَيّانه».

من الطبـيعي أن ينقسـم الشعب اليـهوديّ، بسـبب يسوع، إلى قسمَين: قسم معـه، وقسم عليه؛ لأنّ يسوع قام بأعـمـالٍ من أجل الإنسـان؛ والـيـهـود يدافـعـون عن اللّه وشريعته التي قيّدت الإنسان. فما على بعض اليهود إذاً إلاّ أن يكونوا مع يسـوع، لأنّهم يحـتـرمـون الإنسـان؛ وعلى بعضـهم الآخر ضدّ يسـوع لأنّهم يؤثرون حفظ الشـريعة على مـحبّـة الإنسان. وهذا مـا فاقم الخـصام بين يسـوع واليـهود وأجّج نيـرانه. وموضـوع الخصام هو الإنـسان الذي جاء يسوع ليخلّصـه، لا الشريعة التي يظنّ الناس أنّه جاء ليكمّلها.

١٤ . يسـوع طريقـنا إلى الآب (١٤/٦-١٤) «٦. قال يسوع: أنا الطريق، والحقّ، والحيـاة. لا سبيلَ لأحدٍ إلى الآب إلاّ بي.٧. إن تَعـرِفوني تَعـرِفوا أبي أيضـاً، ومن الآن تعـرفونه، وقـد رأيتُـموه.. ٩. قـال يسـوع: مَن رآني رأى الآب.. ١٠. ألا تؤمنُ أنّي أنا في الآب، وأنّ الآب فيّ؟»..

يعلّق إونجلـيـون: "كـان المسـيـحـيّـون الأوّلون ينتظرون عودة يسوع، وتلاميـذه أحياء. والكنيسة لا تزال

تنتظر عودة يسوع، في نهاية الزمان، وإشراكه المؤمنين في مجده الأبديّ[٥]. وكأنّ يسوع، موسى الثاني، يحقّق إذّاك خروجاً جديداً وأخيراً لشعب اللّه الجديد إلى أرض ميعاد جديدة في ملكوت اللّه السماويّ".

وبهذا يكون يسوع قد أعلن نفسَه ضدّ موسى، إذ جاء بخروجٍ جديد، وبعهدٍ جديد، وبشريعةٍ جديدة تقوم على محبّة الإنسان واحترامه وخلاصه، لا على تكبيله وتقييد حرّيّته والدفاع عن تعاليم التوراة وتقاليد السلَف.

١٥ . أمام عظيم الأحبار (١٨ / ١٣-٢٧) «١٣. وساقوه أوّلاً إلى حنّان، وهو حَمو قيافا، عظيم الأحبار تلك السنة. ١٤. وقيافا هذا هو من كان قد قام بهذا النُّصْح لليهود: إنّه لخَيرٌ أن يموتَ إنسانٌ واحدٌ فِدَى الشعب».

ليس على عامّة الناس أن يحكموا على يسوع، لهذا ساقوه إلى حنّان عظيم أحبار تلك السنة، وحنّان ساقه إلى قيافا، الذي قام بفتوى قتل يسوع فدى الشعب كلّه. والحكم على يسوع، سواء أكان من عامّة الشعب أم من الأحبار، هو حكم تقضي به التوراة، وينفّذه القيّمون عليها. فشريعة التوراة، إذاً، هي وراء موت يسوع؛ وقد حرص الرؤساء

(٥) رَ: يو ١٤ / ١٨، ٢٣، ٢٨؛ ١٥ / ٢٦؛ ١٦ / ٧، ١٣، ١٦-٢٣.

عليها على تطبيقها، من أجل اللّه لا من أجل الإنسان.

١٦ . **أمـام بيــلاطس** (يو ١٨/ ٢٨-١٩/ ١-١٦)

«٢٨. وجاءَ الـيهودُ بـيسوعَ فـجراً من عنـد قَيافـا إلى دار الولايـة. ولم يَدخُـلوا دارَ الـولاية، لكـي يَظلّـوا طاهِـرين، ويأكلوا الفِـصـح. ٢٩. فـخرج إلـيهم بيـلاطُس، وقـال: بِمَ تَشكونَ هذا الإنســان؟ ٣٠. قـالوا: لو لم يأتِ قـبـيـحـاً لَمَا أسلَمناه إليك.. ١٩/ ٤. وعاد بيلاطس فخـرج، وقال لليهود: ها أنا أُخرِجُه إليكم لتَعلموا أنّي لم أجدْ له أيَّ ذنب.. ٦. ورآه الأحبـار والحرس فصـاحوا: اصلِبْ اصلِبْ. قـال بيلاطس: خذوه أنتم واصلِبوا، فأنا لا أجِـدُ له ذنباً. ٧. قال اليهود: إنّ لنا توراة، وتـقـضي تـوراتُنا هذه بموته، اذِ ادّعـى أنّه ابنُ اللّه.. ١١. قال يسوع (لبيلاطس) **: خطيئة مَن أسلمني إليك أعظم**[٦]**. ١٢. مذ ذاك صار بيلاطس يسعى لإطلاقه، ولكنّ اليهود كـانوا يَصيحون: إنْ تُطلِـقْهُ فلستَ صديقاً لقـيصر! مَنِ ادّعى المُلْكَ ناهَضَ قـيـصر! ١٣. وسـمع بيـلاطس هذه الكلمات، فخرج بيسوع، وأجلسه على مِنصّة ١٤. .. ثمّ قال بيلاطس للـيهود: ها هو مَلِكُكم. ١٥. فـصاح اليـهود: ارفَعِ ارفَعْ! اصلِبْه! قال بيلاطس: أمَـلِكَكم أصلِب؟ قال الأحبار: لا**

(٦) يهوذا، ورؤساء اليهود، وقيافا (٦/ ٦٤، ٧١؛ ١٢: ٤/ ١٣: ٢، ٢١؛ ١٩/ ٣٠، ٢٥

مَلِكَ لنا سوى قيصر![٧]**. ١٦. فعندها أسلمَ إليهم يسوعَ ليُصلَب، وذهبوا به».**

يعلّق إونجليون: "هم اليهود يصلبون يسوع في يوحنّا، ولوقا، وأعمال الرسل؛ والجنود الرومان هم الصالبون في متى (٢٧/ ٣٢-٥٦)، ومرقس (١٥/ ٢١-٤٢). والذين أسلموا يسوع إلى بيلاطس هم: يهوذا، ورؤساء اليهود، وقيافا[٨]".

ثمّ "يعدّد اليهود التّهم، فطوراً يتّهمون يسوع بالخروج على الرومان[٩]، وطوراً بالتجديف، كما في هذه الآية، لأنّه ساوى نفسه بالله (١٠/ ٣٠-٣٣)، فاستحقّ الموت (رَ: أح ٢٤/ ١٦). ينتقل اليهود، في اتّهامهم يسوع، من الصعيد السياسي إلى الصعيد الديني"..

تهمتان جاء بهما اليهود بحقّ يسوع: واحدة دينيّة، فيها تجديف على الله؛ والثانية سياسيّة، فيها رفض سلطة قيصر. وكلٌّ من التهمتين يستحقّ الموت. هذا الموت قام بتنفيذه اليهود والرومان معاً. إلاّ أنّ تهمة الرومان تبقى

(٧) تنكّر اليهود لسلطان الله المطلق (قض ٨/ ٢٣؛ ١ مل ٨/ ٧)، وأعلنوا ولاءهم لقيصر ثمنَ الحكم على يسوع.

(٨) يو ٦/ ٦٤، ٧١؛ ١٢/ ٤؛ ١٣/ ٢، ٢١؛ ١٨/ ٣٠، ٣٥.

(٩) يو ١٨/ ٣٣-٣٥؛ ١٩/ ١٢.

أقلّ جرماً، إذ قد يستطيع يســوع التخلّص منها إذا ما أوكل مَن يدافع عنه. ولكن مـا نفْع الدفاع إن كـانت التـهمـة ضدّ الدِّين ورجال الدِّين مبرمة!

١٧ . صلب يســوع ومـوته (١٩/١٧–٣٠) «١٧. وحـمل يســوعُ نفسُــه صليـبَـه، وخـرج إلى مكانٍ يُدعى جُمجُـمة.. ١٨. وهنالك صلبه اليهـود.. ١٩. وعلّق بيلاطس على أعلـى الصليب هذه الكتــابة: يســوع الناصـــريّ ملكُ اليهـود. ٢٠. وقرأ يهـودٌ كثيـرون هذه الكتابة.. ٢١. فـقال أحبـار اليهود لبـيلاطس: لا تكتُبْ : ملك اليـهود! بل إنّه هو قال: أنا ملك اليهود!».

هذه كانت نتـيجـة موقف يسوع مـن توراة موسى والقـيّمين عليـهـا. وهذا ما أقنع بيـلاطس بأن يحكم عليـه بالموت. ولكنّه ألقى تبعـيّة القتل على الأحبـار، وبرّر نفسه، بغـسل يدَيـه.. المســؤوليّـة الأولى والكبـــرى تقع إذاً على الأحبار اليهود الذين يرومون تنفيذ أحكام الشـريعة.

١٨ . يسوع يظهـر للتلامـيذ (٢٠/١٩–٢٩) «١٩. وفي مساء ذلك اليومِ، أوّلِ أيّام الأسبوع، وقد أغلَقَ التلاميذُ عليهم الأبواب، خَوفاً من اليهود».

التلاميذ أيضاً خافوا من اليهود، لأنّهم يؤيّدون معلّمهم، ويأخذون بمواقفه ضدّ التوراة وتعاليمها وتفاسيرهم لها. فمصيرهم المحتّم، إذا ما لم يتّخذوا الاحتياط اللازم، هو مصير معلّمهم. لهذا أغلقوا عليهم الأبواب، ثمّ رحلوا من أرض فلسطين إلى آسيا الصغرى.

***

كنّا نظنّ أنّ يوحنا، لاهتمامه بأصل يسوع الإلهيّ، إبتداء من «البدء»، مروراً بقوله إنّ يسوع هو «ابن اللّه»، أقلّ اهتماماً وذكراً للخصام بين يسوع واليهود... ولكنّه، ما استطاع، بسبب مجريات الأحداث الجسيمة إلاّ أن يتوقّف عندها، ويذكرها كغيره.

لقد اهتمّ يوحنّا، كسائر الإنجيليّين، بإظهار يسوع ضدّ تعاليم اليهود في التوراة، لا بل ضدّ إله التوراة. لقد بدا واضحاً أنّه مع الإنسان الخاطئ، مع المرأة الزانية، ضدّ الشيوخ والأحبار وتعاليمهم. فيسوع، عند يوحنّا، عملَ أيضاً على تبرئة اللّه ممّا نُسِب إليه من شرائع منزلة وفرائض صارمة وقاسية على الإنسان..

الفصل الخامس

تعاليم الرسل وتعاليم التوراة

في مقدّمة سفر أعمال الرسل، يركّز شرّاح إونجليون على شمول الخلاص جميعَ الشعوب، في قولهم: "اهتدى الوثنيّون إلى المسيحيّة، وانضمّوا إلى مَن آمن من اليهود (٦/١-٧)، ولكنّ الوحدة ظلّت ناقصة: فكنيسة أورشليم اليهوديّة، وعلى رأسها أسقفها يعقوب، ظلّت أمينة لشريعة موسى (١٥/١، ٥؛ ٢١/٢٠)، "والوثنيّون المهتدون تجمّعوا حول اسطفان، وتحرّروا من شريعة الختان (٦/٨-١٥)، وانقطعوا عن العبادة في الهيكل. ومجمع أورشليم أقرّ بالإجماع مبدأ الخلاص، القائم على الإيمان بيسوع المسيح وحده (رسل ١٥)"[١].

---

(١) مقدّمة أعمال الرسل، ص ٥٠٨.

ويكمّل شــرّاح الأعـمـال: "أُعطي ملـكوت اللّه إلى اليـهـود أوّلاً، وبدافعٍ من الروح القـدس بَشّــر به الرسلُ السـامريّين والأمم: أُرسل فـيلبّس إلى الخـصـيّ (٨/٢٦-٤٠)، وبطرس إلى كـرنيـليـوس (١٠/١٩-٢٠)، وبولس وبرنابا إلى قـبرص وآسـية (١٣/٢) فإلى الـيونان (١٦/٩)، فإلى أقاصي الأرض، إلى رومة (٢٧/٢٣-٢٥)"[٢].

ثمّ ابتدأ كـاتب الأعمال يركّز على الخـصـام الحاصل بين التـلاميذ واليـهود؛ فـيتكلّم على بـدء اضطهاد اليـهودِ للرسل والمسـيحـيّين الأوّلين (١-٣)، ويكمّل مـسيـرة هذا الاضطهاد حتّى النهاية. يقول:

١. الأحبار يحـاكِمون بطرس ويوحنّا (٤/١-٢٢)

«١. وكـان بطرس ويوحنّا لا يزالان يُخـاطبان الشـعب، إذ أقبل إليهما الكهنة، وقـائد حرَسِ الهيكل، والصدّوقيّون.. ٥. وفي الغـد، اجـتـمع في أورشـليم الرؤسـاء، والشـيـوخ، والكتـبـة، ٦. وحنّان عظـيم الاحـبـار، وقـيـافـا، ويوحنّا، والإسكندر، وكلُّ أعضاء الأُسرة الحبريّة».

فئـات الشعب اليهـوديّ كلّه، أصدقاء وأعداء، حـثّوا على القبض على يسـوع؛ وهم الآن يحثّون على القبض على

---

(٢) المرجع السابق نفسه. ص ٥٠٩

الرسل: الفرّيسيّون والصدّوقيّون، الشيوخ والكتبة، الأحبار وعامّة الشعب، اتّفقوا على القضاء على تلاميذ يسوع، كما اتّفقوا قبلاً على القضاء على يسوع نفسه.

هذا ما يدلّ على رفض تلاميذ المسيح تعاليم الأحبار وتقاليدهم

٢ . إضطهاد الكنيسة (٤/٢٣-٢٨) «٢٦. ملوكُ الأرض هَبّوا، وتحالف الرؤساء، واتّحدوا على الربّ ومسيحه، ٢٧. أجل، لقد تحالف حقّاً، في هذه المدينة، هيرودس، وبُنطوس بيلاطُس، والأمم، وشعوب إسرائيل، تحالفوا على يسوع، ذاك القدّوس، الذي مسحتَه، ٢٨. ونفّذوا كلّ ما كتبتْ يدُك، وقضتْ به مشيئتُك..».

يعلّق شرّاح الأعمال: "هذه عنصرة جديدة: مادَ المكان، وحلّ الروح على الجماعة المسيحيّة فراحت تذيع الكلمة (رسل ٢/١-٤). أظهر اللّه، في كلّ ذلك، أنّه يؤيّد شعبه الجديد المؤمن ضدّ شعبه القديم، الذي لم يؤمن به، ويضطهد شعب اللّه الجديد".

منذ أوائل البشارة الإنجيليّة، ظهر واضحاً سبب اضطهاد اليهود للمسيحيّين، كما ظهر واضحاً أيضاً تخطّي المسيحيّين لليهوديّة وتعاليمها: إنّ تعاليم التوراة باتت غير

مقبولة لدى كنيسة المسيح الناشئة. لهذا كان اضطهاد اليهود والذين تأثّروا بهم شديداً جداً على المسيحيّين.

٣ . القبض على الرسل (٥/ ١٧-٤٢) «١٧. على أنّ عظيمَ الأحبار، وكلّ حاشيته -كلّ شيعة الصدّوقيّين- أخذ منهم الغيظُ كلّ مأخذ، فقاموا، ١٨. وقبضوا على الرسل، وألقوهم علناً في الحبس.. ٢٥. على أنّ رجلاً أتى وأخبرهم: ها إنّ الرجال، الذين سجنتموهم، قائمون في الهيكل يُعلّمون الشعب. ٢٦. إذ ذاك مضى قائدُ الحرسِ، والخدمُ، وعادوا بالرسل، ولكنّهم تحاشَوا العنفَ خوفاً من أن يَرشقهم الشعبُ بالحجارة. ٢٧. عادوا بالرسل، ومثّلوا بهم أمام المجلس، فقال لهم عظيمُ الأحبار: ٢٨. كنّا نَهيناكم أشدَّ النّهي عن التعليم بهذا الاسم، وها إنّكم ملأتم أورشليمَ بتعليمِكم، وتريدون أن تُحمّلونا تَبِعَةَ دمِ هذا الإنسان.. ٣٣. فحنقوا، وعزموا على قتْل الرسل».

سببُ هذا الاضطهاد والسجن والتهديد، أنّ الرسل لا يزالون يعلّمون الشعب باسم يسوع. أي أنّ استعمال اسم يسوع كان سبباً كافياً لاضطهاد اليهود للمسيحيّين. إنّهم يبشّرون بإلهٍ غير يهوى، ويعلّمون تعاليم غير تعاليم التوراة، بل تناقضها، ويتّبعون شريعةً غير شريعة موسى،

ويؤمنون بربٍّ واحد هو يسوع المسيح إبن اللّه الوحيد، وتخلّوا، على ما يبدو، عن تعاليم يهوى وعبادته.

٤ . اليهود الهلّينيّون واليهود العبرانيّون (٦ / ١)

«١. في تلك الأيّام، تزايد عددُ التلاميذ، وأخذ الهِلّينيّونَ يتذمّرون على العبرانيّين..»

يقول مفسّرو الأعمال: "الهلّينيّون يهود يعيشون خارج الأرض المقدّسة، ويتكلّمون اليونانيّة، ويملكون في أورشليم مجامع خاصّة، ويقرأون التوراة في ترجمتها السبعينيّة. أمّا العبرانيّون فيهود يعيشون في الأرض المقدّسة، ويتكلّمون الآراميّة، ويقرأون التوراة في أصلها العبري، وفي مجامعهم الخاصّة.

"انعكس هذا الوضع اليهوديّ على الجماعة المسيحيّة الأولى في أورشليم، وقد كانت في مجملها من أصل يهوديّ: اضطهد اليهودُ الهلّينيّون المسيحيّين الهلّينيّين (٦ / ٩)، وقام المسيحيّون الهلينيّون بأوّل انطلاقة للتبشير بالإنجيل خارج فلسطين (٨ / ٤؛ ١١ / ١٩–٢١). وكان لدى الهلّينيّين، يهوداً أو مسيحيّين، غيرة شديدة على التوراة أو على الإنجيل".

لقد انتقل الصراع، على ما يبدو، إلى ما بين

المسـيحـيّين أنفسـهم، المسـيحـيّين الهلّينيّين والمسـيحـيّين العـبـرانيّين، كـمـا كـان بين اليـهـود الهـلّينيّين واليـهـود العبرانيّين. وهو صراع لم يكن الرسل أنفسهم بمنأى عنه : زعيم العبرانيّين يعـقوب أخو الربّ، وزعيم الهلّينيّين بولس رسـول الأمم. والسـبب الرئـيسيّ لهـذا الصـراع الأخـذ بالإنجـيل وحـده، أم الأخـذ بالتـوراة والإنجـيل مـعـاً؟ وسيستمرّ الصـراع عنيفاً سنين طويلة من تاريخ الكنيسة، وسوف ينتقل إلى الإسلام، تحت إسم "النصارى"، هؤلاء الذين «يأخذون بالتـوراة والإنجيل»، على ما سـوف يقول القـرآن: "لسـتم على شيء حـتّى تُقيـموا التـوراة والإنجيل"(٣).

٥ . **المجلس يُحـاكِم اسطفـان (٦/٨-١٥) «١١. فَرَشَوا** (أي اليهود) **رجالاً ليقولوا: سـمعناه يَنطِقُ بأقوال تجديف على مـوسى والله. ١٢. وأثاروا الشعبَ والشـيوخَ والكتبة، وباغتوا اسطفانَ فاختطفوه، وساقوه إلى المجلس. ١٣. ثمّ أتوا بشهودِ زورٍ يقولون: لا يفتأ هذا الإنسانُ يَحملُ على هذا المكان المقدّس، وعلى التوراة، ١٤. فـقد سمـعناه يقول: يسـوع الناصريّ هذا سَيهدم هذا المكان، ويُبَدِّل ما**

(٣) سورة المائدة ٥/١٨.

ترك لنا موسى من عـادات. ١٥. وحدّق كلُّ مَن في المجلس إلى إسطفان، فرأى في وجهه وجهَ ملاك».

يعلّق المفسّـــرون: "ادّعى شـهودُ زورٍ أنّ يســوع سينقض الهيكل (متى ٢٦/ ٥٩–٦١)، وكرّر الادّعاء شهود زور على اسطفـان. ونجـد، في الحـكم على اسطفـان (٧/ ٥٦–٥٧)، صدى للحكم على يسـوع (متى ٢٦/ ٦٢–٦٦). وتهمة التحامل على التقـاليد الموسويّة ستُوَجَّـه أيضاً إلى القـديس بولس(٤). هذا هو، أسـاسـاً، سـبب الصـراع بين الكنيسـة الناشـئة والتوراة، وسـبب اضطـهاد اليـهـود للمسيـحـيّين. وكذلك أيضـاً سـوف يكون الاختـلاف بين المسلمين والمسيحيّين. فالمسلمون يؤيّدون تعاليم النصارى، ويرفضون تعاليم المسيحيّين.

٦ . الاضطهـاد الأوّل (٨/ ١–٣) «١. واضطُهِـدَتْ يومَهـا كنيسةُ أورشليمَ اضطهـاداً شديداً، فتـشتَّتَ أبناؤها جميعاً –ما عـدا الرسل– في أنحاء اليهوديّة والسامرة.. ٣. أمّا شاول فـكان يَعيثُ في الكنيسة فـساداً، يَقتحم الـبيوتَ بيتاً بيتاً، ويَجُرُّ الرجالَ والنساءَ، ويُسلِمُهم إلى السجن(٥)».

(٤) رسل ١٥/ ١، ٥؛ ٢١/ ٢١، ٢٨؛ ٢٥/ ٨؛ ٢٨/ ١٧

(٥) رَ: رسل ٩/ ١ و١٣؛ ٢٢/ ٤؛ ٢٦/ ٩–١١؛ غل ١/ ١٣ و٢٢–١ قـور ١٥/ ٩؛ فل ٣/ ٦؛ ١ طيم ١/ ١٣/

يعلّق المـفـسّــرون: "اضــطُهـد الرســـولان بطرس ويوحنــا (٤/ ١-٢٢؛ ٥/ ١٧-٤١)، واسطفــان (٧/ ٥٤-٦٠)، وتُضـطَهد الآن الكنيسة كلّها، أو الهلّينيّون من أبنائها، ولم يُضطهَـد الرسل والمؤمنون العـبرانيّـون لأنّهم تقيّـدوا بتوراة موسى وعادات اليهود".

هذا يعني أنّ الاضطــهـاد كـان على أيدي اليـهـود. والسبب لهذا الاضطهاد مخالفة المـسيحيّين لتعاليم التوراة؛ فيـما المسيحـيّون (أي النصارى) الذين تقيّـدوا بالتوراة لا مأخذ عليهم.

٧ . اضـطهاد بولس (٩/ ١-٢) «١. وكان شاولُ لا يزال يَنفُثُ على تلامـيذ الربّ تهديداً وتقـتيلاً، فـمضى إلى عظيم الأحـبار، ٢. وطلب منه رســائلَ إلى مجامــع دمشق، حتّى إذا ما وجدَ ثَمَّ أُناساً على تلك الطريقة، رجالاً أو نساء، ساقهم مغلولين إلى أورشليم».

كان شاول المضطهِدَ الأعنف للمسيحيّين الأوائل، في أورشليم ودمشق وآسـيا وأمكنة عديدة من الأمـبراطوريّة الرومانيّة، حـتّى خافه الجميع. واشــتهر في كلّ مكان بأنّه العدوّ الألد للمـسيح والكنيسة الناشئـة، بعدما كان مـدافعاً شرساً عن توراة موسى والشريعة اليهوديّة.

وسـبب الاضطهـاد واضح: أأنت مع التـوراة أم ضدّها؟ إن طبّقتَ شريعتها نجوت، وإن خالفتها قُتلت. فالحفاظ على الشريعة أولى من الحفاظ على الإنسان.

وسوف تنقلب هذه المعادلة عند اهتداء بولس.

٨ . شاول في دمشق (٩/ ٢١-٢٥) **«٢١. كان كلُّ الذينَ يسمعونه** (شاول) **يُدهَشون ويقولون: أليسَ هذا مَن كان في أورشليم يَفتِكُ بمن يَدعُونَ هذا الاسم؟ أوَما جاء إلى هنا ليسوقَهم مغلولين إلى الأحبار؟ ٢٢. على أنّ شاولَ كان يشتدّ ساعداً، ويُفحِمُ يهودَ دمشق مُبرهِناً أنّ يسوع هو المسيح. ٢٣. ومرّت الأيّام، فتآمر اليهودُ لكي يُهلِكوه. ٢٤. وعرَف شاول بمكيدتهم. وكانوا يحرُسون الأبواب، ليلَ نهار، لكي يُهلِكوه. ٢٥. فأخذه تلاميذُه ليلاً، ودلّوه في سَلٍّ على السُّور».**

لا يوجد في سِيَرِ المسيحيّين ما يشبه انقلاب بولس هذا. فبمقدار ما كان يطارد المسيحيّين ليسوقهم إلى الحبوس، كان المسيح يلاحقه ليجبره على ترك شريعة السبت والختان والتقاليد اليهوديّة التي عرفها بولس معرفة جيّدة، وجاهد من أجلها بعنف وشدّة..

وأيّ شيء يوجد بعد حتّى تُعلن القطيعة النهائيّة بين

اليهوديّة والمسيحيّة الناشـئة.. فهل سيسلم بولس برأسه؟! لا هو كَلَّ عن مطاردة الـتـوراة، ولا هم كَلُّوا عن مـلاحـقـة بولس ليعتقلوه ويقتلوه.

٩. رؤيا بـطرس في يافـــا (١٠/١٣-٣٣) «١٣. وهتف هاتف: قم، يا بطرس، فـاذبَحْ وكُلْ. ١٤. قال بطرس: معاذَ اللّه، سيّدي! مـا أكلتُ يوماً نَجِساً أو دَنِساً. ١٥. هتف به هاتف ثانيـة: لا تُنَجِّس أنتَ ما طهّـره اللّه!. ٢٧. ثمّ دخل (بطرس بيتَ كُرْنيليُوس).. **ووجدَ كثيرينَ مُـجتمِعين؛ ٢٨. فـقال لهم: تعلـمون أنتم أنّه لا يجـوز ليـهوديٍّ أن يخـالط غريبـاً، أو يُدانيه، إنّما اللّـه أراني ألاّ أدعُوَ إنساناً نَجِـساً أو دَنِساً[٦]. ٢٩. ولهـذا جِـئتُ، حين استـحـضـرتموني، ولم أبطئْ وأودّ أن أعلَمَ لماذا استحضرتموني».**

هنا، على ما يعلّق المفـسّرون، "يدعو اللّه بطرس إلى تخطّي المفـاهيم اليـهـوديّة في المأكل، في الطاهـر منهـا والنجس، ولا يفـرّق بين يهـوديّ ووثنيّ، لأنّ اللّـه يطهّـر بالإيمان قلوب الوثنيّين، فيستغنون عن الختان"..

فإذا كان لا فرق بين يهوديّ ووثنيّ عند اللّه، أفيكون فرقٌ إذاً بـين دين ودين؟ أو بالأحرى أفـيكون اللّه هو الذي

---

(٦) رسل ١٠/١٥، ١/٩، ١٥/٩. فل ٢/١٢-١٥-١٦.

صنع الأديان المختلفة والمتناقضة، بل والمتناحرة؟!

١٠ . **خُطبة بُطرس (١٠ / ٣٤-٤٣) «٣٤. ففاه بطرس بهذا الكلام: أنا على يقينٍ من أنّ اللّهَ لا يُحابي أحداً؛ ٣٥. فأيّ إنسانٍ اتّقاه، مِن أيّ أمّةٍ كان، وعمل أعمالَ البِرّ، نالَ رضاه.. ٣٨. تعلمون كيف بروحٍ قدسٍ وقدرةٍ مسحَ اللّهُ يسوعَ الناصريّ، الذي ساح يعمل الخير، ويَشفي كلّ مَن وقعوا في حيازةِ الشيطان، لأنّ اللّه كان معه. ٣٩. ونحن شهودٌ على كلّ ما فعلَ في بلاد اليهود، وفي أورشليم، هو الذي على خشبةٍ علّقوه، فقَتَلوهُ».**

أيّ إنسانٍ اتّقى اللّه، مِن أيّ أمّةٍ كان، وعمل البِرّ، نالَ رضاه، أكان يهوديّاً أو وثنيّاً، حرّاً أو عبداً، رجلاً أو امرأة... أيّ إنّ اللّه لم يميّز إنساناً عن إنسان. الجميع أبناؤه، والكلّ ينال رضاه، ويسير إليه كيفما شاء، وعلى أيّ مسار سار، أو أيّ دينٍ اتّبع.

١١ . **حلول الروح القدس على الوثنيّين (١٠ / ٤٤-٤٥) «٤٤. وكان بطرس لا يزال يَفوه بتلك الأقوال، إذ نزل الروح القدس على كلّ مَن يسمعون الكلمة. ٤٥. دُهِشَ المؤمنون المختونون، الذين رافقوا بطرسَ، لأنّ هِبةَ الروح القدس أُفيضَتْ حتّى على الأمم».**

يسمّي مفسّرون هذا الحدث «عنصرة الوثنيّين». وقد تحقّق بطرس من ذلك في قوله: «وما كدتُ أبدأ بالكلام، حتّى نزل الروحُ القدس عليهم (الوثنيّين) نزوله علينا (اليهود) في البدء» (١١/١٥)، وفي قوله أيضاً: «والله.. أعطاهم الروحَ القدسَ كما أعطانا» (١٥/٨)؛ وقوله أيضاً: «وما فرَّق (الله) بيننا وبينهم» (١٥/٩)...

هذه هي، بالنتيجة، تعاليم الرسل في مجمع أورشليم (١٥/٥-٢١)، الذي ساوى بين اليهود والوثنيّين؛ وبتعبير آخر أوضح، الذي ألغى الدِّينَ اليهوديَّ والأديان جميعها، واعتبر الخلاص إنّما يكون عن طريق يسوع المسيح الوسيط الوحيد. وليس بأيّة شريعة، أو دين، أو نهج، أو أي طريق كان، بل بعمل الروح القدس لا غير، لا بقوّة أيّ شريعة أو وصاية أيّ نبيّ...

١٢ . الامم ايضاً قَبِلوا كلمة الله (١١/١-١٨) «١. **وسمع الرسل والإخوة المقيمون في اليهوديّة أنّ الامم أيضاً قَبِلوا كلمة الله. ٢. فلمّا صعد بطرس إلى أورشليم، كان المختونون يناقشونه؛ ٣. يقولون: دخلتَ على غُلْفٍ، وأكلتَهم!**[٧]**.. ٧. وسمعتُ هاتفاً يهتف بي: قم، يا بطرس،**

(٧) كانت شريعة موسى ترى في مؤاكلة اليهوديّ للوثنيّ تدنيساً له (رسل ١٠/٢٨)؛

فاذبحْ وكُلْ. ٨. قلتُ: معاذَ اللّه، سيّدي! ما دخلَ فمي يوماً نَجِسٌ أو دَنِس!. ٩. فعاد الهاتف يهتف من السماء: لا تُنجِّسْ أنتَ ما طهّره اللّه!.. ١١. ووقف ثلاثةُ رجالٍ بباب بيتٍ كنّا فيه.. ١٢. قال لي الروح: انطلقْ معهم، ولا تُفَرِّقْ (أي لا تفرّق بينك وبينهم، بين يهوديّ ووثنيّ). **ورافَقَني هؤلاء الإخوة الستّة، ودخلنا بيت الرجل.. ١٥. وما كِدتُ أبدأ بالكلام، حتّى نزل الروحُ القدس عليهم نزوله علينا في البدء.. ١٧. فإن كان اللّه قد أنعم عليهم بمثل ما أنعم علينا، إذ آمَنّا بالربّ يسوع المسيح، فمَن أنا لأستطيع أن أمنعَ اللّه؟ ١٨. طاب خاطر السامعين، ومجّدوا اللّه قالوا: هو اللّه قد أنعمَ على الأمم أيضاً بأن تتوب لتحيا!».**

لقد أنعم اللّه على الوثنيّين بمثل ما أنعم على اليهود. لم يفرّق. ولم ينجّس الوثنيّون ما طهّره اللّه.. الكلّ نزل عليهم الروح القدس، يهوداً كانوا أو وثنيّين. وهذا ما يجعل المسيحيّة تقول إنّ الأمم أيضاً قبلوا كلمةَ اللّه؛ أي لن يكون فرقٌ، عند اللّه، بين يهوديّ ووثنيّ، أي بين دينٍ ودين. الجميع أبناؤه. وكلّ خلاف في الناس ليس هو من عند اللّه.

وكانت مؤاكلة المسيحيّين من أصل يهوديّ للمسيحيّين من أصل وثنيّ مشكلة شائكة في الجماعة المسيحيّة الأولى (غل ٢/ ١١ ـ ١٤).

هذا يعني أنّ كلّ الأديان ليست من صنع اللّه، بل من صنع الناس.

١٣ . دعوة الأمم (١٣/ ٤٤–٤٨) «**٤٤. وفي السبت التالي، كادتِ المدينةُ** (أورشليم) **كلُّها تجتمع لتسمع كلمة الرب** (من فم بولس). **٤٥. ورأى اليهود تلك الجموعَ فامتلأوا حسَداً، وعارضوا أقوالَ بولس بالتجاديف**[8]. **٤٦. فجَرُؤَ بولس وبرنابا، وقالا: كان على كلمة الله أن تُقال لكم أوّلاً، ولكنّكم تنكّرتم لها، ورأيتم أنفسكم غير أهلٍ للحياة الأبديّة. فها نحن نتحوّل عنكم إلى الأمم. ٤٧. إنّه الربّ أوصانا قال: جعلتُكَ نوراً للأمم، لتكونَ خلاصاً لها حتّى أقاصي الأرض**»...

لقد تحوّل بولس وبرنابا عن اليهود إلى الأمم، ما يعني أنّ اليهوديّة لم تعد وحدَها الطريقَ إلى اللّه، وأنّ شريعة اللّه ليست في التوراة وحدها. هذا التحوّل سبّب لبولس وللرسل وللمسيحيّين متاعب كثيرة. فالأمم أيضاً هم أبناء اللّه ومختاروه وأحبّاؤه كاليهود أنفسهم. ولا فرق. وهذا ما لا يقبل به يهوديّ غيور على دينه.

١٤ . رجم بولس وبرنابا (١٤/ ٢–٧) «**٢. إنّ الذين**

---

(٨)رَ: رسل ١٤/ ٢؛ ٥/ ١٧؛ ١٧/ ١٠٥ تس ٢/ ١٤

لم يؤمنوا مِن اليهود أثاروا الوثنيِّين، وأوغَروا صدورَهم على الإخوة.. ٤. وانقسم أهل المدينة، هذا مع اليهود، وذاك مع الرسولَين. ٥. فهمُّ الوثنيّون واليهود، ورؤساؤهم، بإذلالِ الرسولَين، ورجمِهما. ٦. وشعرا بذلك، فلجأا إلى مدينَتين في إيقونية، إلى لِسْتَرة ودرْبة وضواحيهما. ٧. وهنالك أيضاً طفقا يُبَشِّران».

لا يزال اليهود يلاحقون بولس وبرنابا وسائر المسيحيِّين الذين لا يزالون ينادون بتخطّي شريعة موسى ورفضها، من أجل الإيمان بيسوع المسيح على أنّه هو وحدَه مخلّص الجميع، أي اليهود والوثنيِّين على السواء.

١٥ . **اليهود يشكون بولس** (١٨/ ١٢-١٣) «١٢. **... اتّفق اليهودُ على مقاومة بولس، وساقوه إلى المحكمة، ١٣. وقالوا: إنّ هذا الرجلَ يستميل الناس إلى عبادة الله عبادةً تتنافى والتوراة».**

يعلّق المفسّرون: "كان القانون الرومانيّ يسمح لليهود بممارسة توراتهم. واليهود يشكون بولس بنشر دينٍ جديد، مخالفٍ للتوراة، وغيرِ مرخّص به قانوناً"، أي إنّ بولس يدعو إلى إلغاء اليهوديّة وتعاليم التوراة، وإحلال الإيمان بيسوع المسيح على أنّه وحده مخلِّص الجميع.

١٦ . بولس يودّع كنيسةَ أفَسُس (٢٠/ ١٩) «قد خـدَمْتُ الربَّ بكلِّ تواضع، وبدمـوع، وبمحَنٍ لَقِـيـتُهـا من مكايد اليهود»[٩].

ليست مكايد اليهـود ضد بولس من دون سببٍ يبرّر اضطهـادهم إيّاه. فـهـو لم يتـرك لهم مـجالاً لـيمـارسـوا شريعتهم، بحسب ما شاءها موسى في التوراة؛ بل نقضها نقضـاً تاماً، ونادى بدينٍ آخـر يقوم على شـخصٍ آخر هو يسوع المسيح وحدَه مخلِّصاً لجميع الأمم.

١٧ . بولس يلقى يعـقوبَ في أورشليم (٢١/ ٢٠- ٢٦) «٢٠. مجّد السامعونَ الله، وقالوا: أنتَ ترى، أيّها الأخ، كم ألفٍ من اليهود قد آمنوا، وكـلُّهم على التوراة غيور، ٢١. وقـد أُخبِـروا أنّك تعلِّمُ كـلَّ مَن عايش الأمم من الـيهـود أن يرتدّوا عن مـوسى، وتوصـيـهم ألاّ يَخـتُنوا أولادهم، وألاّ يَجْروا على التقاليد»[١٠]

يعلّق المفسّـرون: "موقف بولس من التـوراة جازم: ما عادت التوراة ميزة اليهوديّ على الوثنيّ، إذ لا يتبرّر أحدٌ

---

(٩) رَ: فل ٢/ ٣، ٢/ ١٨؛ ٢ قور ١/ ٨-٩؛ ١١/ ٢٣، ٣١.

(١٠) رَ: رسل ٦/ ١١، ١٤؛ ١٥/ ١؛ ٢٨/ ١٧؛ ١٥/ ٣٠؛ ١٦/ ٣؛ ٢١/ ٢٨؛ غل ٢/ ٣؛ مـر ٧/ ١-١٣.

إلاّ بالإيمان بيسوع المسيح[١١]. على أنّ بولس كان يحرص على تحرير الوثنيّ من تقاليد اليهود، ولا يهمّه ردع اليهود عنها، شرط ألاّ تتعارض والإيمان المسيحيّ. ولقد قبلَ أن ينفّذ ما طلبته منه الكنيسة، عن طريق يعقوب والشيوخ، حفاظاً على رباط المحبّة والسلام".. ومع ذلك لم يسلم بولس من رفض اليهود لتعاليمه ومواقفه من الشريعة التوراتيّة؛ كما لم يسلم من مكايدهم له، واعتقاله.

١٨ . إعتقال بولس في الهيكل (٢١/٢٧-٣٦)

«٢٧. رأى اليهودُ الآسيَويّون (بولس) في الهيكل، فأثاروا الجمعَ كلّه، وألقَوا القبضَ على بولس؛ ٢٨. وهم يَصيحون: النّجدة، أيّها الإسرائيليّون! هذا هو الإنسان الذي يعلّمُ كلَّ إنسان، وفي كلّ مكان، ما يُخالف الشعبَ والتوراة، وهذا المُقام! بل قد أدخل يونانيّين إلى الهيكل، فدنّس هذا المُقام المقدّس، ٢٩. ذاك أنّهم كانوا قد رأوا ترُوفيمُس الأفسُسيّ معه في المدينة، فظنّوا أن قد أدخله الهيكل. ٣٠. هاجتِ المدينة بأسرها، وتجمّع الشعب، فأمْسَكَ بولس، وجرّه إلى خارج الهيكل، وأُغلِقَتِ الأبواب في الحال.

٣١. وكانوا يتلمّسون قتلَه، إذ بلغ قائدَ السَّرِيّة أنّ

---

(١١) ر. رو ١/١٦؛ ٣/٢٢.

أورشليم كلّها هائجة. ٣٢. فأخذ حالاً جنوداً، وقادةَ مئة، وعَدَا إليهم، فكفّوا، لدى رؤية قائد الألف وجنوده، عن ضرْب بولس. ٣٣. ثمّ دنا قائدُ الألف وقبضَ على بولس، وامرَ أن يُوثَقَ بسِلسِلتَين، وكان يستعلم مَن هو، وماذا فعل. ٣٤. وكان الجمع يصيح كلٌّ على هواه، وعجزَ القائدُ، في هذه الغوغاء، عن معرفةِ أيّ شيءٍ راهنٍ، فأمَرَ أن يُساق بولس إلى القلعة. ٣٥. ولمّا انتهى بولس إلى الدَّرَج، حمله الجنود اتّقاءً لعُنفِ الجمْع، ٣٦. فالشعبُ بأسره كان يَتبَعه، وهو يَصيح: ألا اقْضِ عليه!».

يعلّق المفسّرون: "بدأت تتحقّق مقاصد بولس (١٩/ ٢١؛ ٢٠/١٦)، وحَدْسه (٢٠/٢٢، ٢٥؛ ٢١/١٣)، والنبوّات المتعلّقة به. سيبقى بولس أسيراً، وفي محاكمة مفتوحة حتّى آخر الكتاب: في أورشليم (٢١/٢٣-٢٣/ ٣٠)، ثمّ في قيصريّة (٢٣/٣١-٢٦/٣٢)، ثمّ في رومة (٢٨/١٣-٣٠) بعد إبحارٍ إليها خطر (٢٧/١-٢٨/١٤)..

ثمّ إنّ بولس يُتّهم.. بما اتُّهم به إسطفان (٦/١١- ١٤)، واتّهم به يسوع[١٢]". فمن الطبيعيّ، إذاً، أن يثور اليهود على بولس لأنّه يعلّم بما يخالف التوراة، وأدخل

---

(١٢) متى ٢٦/٦١؛ يو ١١/٤٧-٥٠.

يونانيّين إلى الهيكل، فدنّسه، وكأنّه يريد إنشاء دين جديد غير ما علّم موسى والأنبياء..

السبب إذاً واضح: بولس يدعو إلى دين جديد غير دين الآباء والأجداد. لهذا اعتقلوه، وضربوه، وهمّوا بقتله، لولا تدخّل قائد الألف وجنوده الرومانيّين الوثنيّين.

١٩ . تآمُرُ اليهود على بولس (٢٣/١٢-٢٢) **«١٢. ولمّا طلَع النهار، اجتمع اليهود، وأقسَموا ألاّ ياكلوا أو يشربوا ما لم يَقتُلوا بولس. ١٣. وكان عدد المتآمرين يربو على الاربعين. ١٤. وأقبَلوا على الأحبار والشيوخ، وقالوا: أقسمنا ألاّ نذوقَ شيئاً أو نَقتُلَ بولس...».**

يعتبراليهود أنّ تعاليم بولس تؤذيهم وتؤذي اللّه وموسى والشريعة والأنبياء وتعاليم التوراة كلّها. فلهذا قرّروا «وأقسموا ألاّ يأكلوا أو يشربوا ما لم يَقتُلوا بولس». فقضيّته، إذاً، أصبحتْ لا تُطاق، لا عند اللّه ولا عند موسى والتوراة ولا في تقاليد السلف. فقتْله بات واجباً ملحّاً لئلاّ يفسد كلّ شيء جاء به الآباء والأنبياء من شرائع وتعاليم وتقاليد.

٢٠ . رسالة من كلوديوس إلى فيلكس (٢٣/٢٣-٣١) **«٢٦. السلام من كلوديوس ليسياس على الوالي**

الشـريف فيلِكْس. ٢٧. كان اليـهود قـد قـبضـوا على هذا الرجل، وأوشكوا أن يقـتلوه، فتداركْتُ بالجـند، وأنقذْتُه، إذ علمتُ أنّـه رومـانيّ. ٢٨. وأردتُ أن أعلَـمَ مـا به يـشكونه فأحضرتُه إلى مجلسهم. ٢٩. ورأيتُ أنّهم يشكونه بمسائلَ تتعلّق بتوراتهم، وأنْ ليس لديهم شكوى تـستوجبُ موتاً أو سـلاسل. ٣٠. ثمّ بلغني أنّهم يُعِـدّون مكيـدةً لهـذا الرجل، فأرسـلتُه إليك، وأوعـزْتُ إلى الشاكين أن يُحـاكمـوه لديك. ٣١. ونفّذَ الجُندُ الأمر...».

هذه الرسـالة، إضافـة إلى أنّهـا شـهـادة على براءة بولس، وعلى موقف السـلطة الرومانيّة المتـسامح منه ومن أتبـاعه (١٨/ ١٥)، هـي شـهـادة أيضـاً على عـداء اليهـود للمسـيحيّين. لهـذا فإنّنا نتـأكّد جيّـداً من موقف بولس من الشريعة اليهوديّة وتقاليد السلف ومن اليهوديّة كلّها..

٢١ . بولس مُـتّهم (٢٤/١-٩) «١. **وبعـد خمسة أيّام، انحـدر عظيمُ الأحبـار حَنَنِيّا مُـستَصـحِبـاً شيـوخاً، ومُـحـامـياً اسـمُـه تَرتُلُّس، وشكَـوا بولسَ إلى الوالي. ٢. واستُـدعيَ بولس، فشـرع تَرْتُلُّس يتّهِـمُه قـال.. ٤. أسألكَ** (أيّها الوالي) **أن تَعطِفَ، وتُصغِيَ قليـلاً إلينا. ٥. وجَدْنا هذا الرجلَ وباءً يُثيرُ فِتَناً، في المعمورة، بين اليهود كلّهم، وإماماً**

في ملّة النصارى. ٦. بل قد حاول أن يُدنّس الهيكل، فقَبَضنا عليه، وأرَدنا أن نُحاكمَه بما تَقضي به توراتُنا،...

واضح قول اليهود عن بولس وموقفهم منه، بسبب قول بولس وموقفه العدائيّ منهم ومن التوراة: بولس "وباء"، "يثير الفتن"، "يدنّس الهيكل"... فلا بدّ من أن يُقضى عليه بحسب ما تقضي به التوراة... **هذا كلّه نتيجة** دعوة بولس إلى نقض اليهوديّة وإبدالها بملّة النصارى، التي تتّبع تعاليم يسوع..

٢٢ . بولس يرفع دعواه إلى قيصر (٢٥/ ١-١٢)

«٧. وحضر (بولس)**، فأحاط به اليهودُ النازلون من أورشليم، وشكَوه شكاوى عديدةً وثقيلة.. ٨. ودافع بولس عن نفسه قال: ما أجْرَمْتُ مرّةً على توراةِ اليهود، أو الهيكل، أو قيصر!».**

لم يُجرم بولس على اليهود، بل كما قال فَسْتُس: إنّ «كلّ ما بينهم وبينه مسائل تتعلّق بدينهم الخاصّ، وبرجل مات اسمُه يسوع، ويجزم بولس أنّه حيّ» (٢٥/ ١٩).

فهمُّ بولس، لا أن يقضي على توراة اليهود فحسب، بل أن يقدّم بديلاً عنها هو الإيمان بيسوع المسيح.

***

يمكن أن نسمّي سِفر أعمال الرسل سفرَ اضطهاد الرسل والمسيحيّين الأوائل، أو سِفر رفض بولس والمسيحيّين الذين تبعوه التوراةَ والشريعةَ اليهوديّة وتقاليدَ السلف. بل هو سِفر تكريس الفصل والعداء ثمّ الاستقلال بين المسيحيّة واليهوديّة، بين المسيح وموسى، بين النعمة والشريعة.. تعاليم تتناقض في العمق، في مفهوم اللّه وطبيعته ودوره الخلاصيّ بوساطة يسوع.

فالمسيحيّة التي نشأتْ في بيئة يهوديّة، لا تتبرّأ من ذلك؛ ولكنّها تنقضها وتتبرّأ من تعاليمها وشرائعها، أي تتخطّاها لتكمّلها.

فكيف والحال هذه، نتّهم المسيحيّة بأنّها دين يرتكز على اليهوديّة والتوراة؟! أو كيف نتّهم اللّه بأنّه هو الذي أسّس الدين اليهوديّ، وأنشأ سائر الأديان؟! الدين هو من صنع البشر؛ لهذا هم يختلفون ويتقاتلون بسببه أكثر من أي سبب آخر.

الفصل السادس

موقف يسوع في رسائل بولس

مَن هو بولس؟

١ ، بولس يهوديّ فرّيسيّ. تثقّف ثقافة توراتيّة عميقة. كان متعصّباً لله ولشريعة موسى، سائراً سيرةً مثاليّة متشدّدة كاملة، حتّى إنّه آثر الحياة البتوليّة على الحياة الزوجيّة، خلافاً للتقاليد اليهوديّة[١].

ولشدّة غَيرته الفرّيسيّة المفرطة على شريعة موسى وتعاليم التوراة اضطهَد بعنفٍ أشدّ كنيسةَ المسيح، حتّى

(١) رسل ٢٦/٤-٥؛ غل ١/١٤؛ ٢ قور ٧/٨؛ ٩/٥، ١٢.

ذاع صيتُه في أورشليم وكلّ اليهوديّة (غل ١ / ٢٢-٢٣)، وفي مجامع دمشق كلّها (رسل ٩ / ٢١).

وبدل أن تكون له الشريعة «مؤدِّبة» تقوده إلى المسيح (غل ٣ / ٢٤)، راح يضطهد الكنيسة باسم الشريعة، وبسببها[٢].

"ما اهتدى بولس إلى المسيح اهتداءَ كافرٍ اكتشف اللّه فتاب عن كفره؛ ولا اهتداءَ إنسان خاطئ شرّير عاد، بعد اختبار طويل وتأمّلٍ وتفكير، عن طريق الضلال إلى طريق الحقّ؛ بل اهتدى اهتداءَ يهوديٍّ مؤمن باللّه ومسيحه الموعود الآتي، ووجده محقَّقاً في شخص يسوع الناصري، ابنِ اللّه الحيّ القائم من الموت، مخلِّصاً لشعبه. كان اهتداءُ بولس بادرةً مجّانيّة ودعوةً حرّة من المسيح شخصيّاً... إنّه اهتداء من فرّيسيّ يتّكل على حفظه أحكام اللّه وشريعته ووصاياه، صار بولس مسيحيّاً يتّكل على شخص يسوع المسيح، واهباً له ذاته برمّتها (فل ٣ / ٨-٩؛ غل ٢ / ١٩-٢٠)".

بولس "هو اليهودي الفرّيسيّ المتطرّف المتزمّت المنغلق على شريعة موسى، تحوّل إلى رسول العالم

(٢) مقدّمة رسائل بولس، إونجليون، ص ٦٣٢.

الوثني، ودافع عنه في مجمع أورشليم ليحرّره من عبء الشريعة اليهوديّة، وتحمّل في سبيله كلّ اضطهاد وعذاب[٣]، شاهداً للمسيح في كلّ مكان، حتّى أقاصي الأرض (رسل ١/٨)، بغير انقطاع، وَفْقَ مبدأه الشهير: «الويل لي إنْ لم أبشّر» (١ قور ٩/١٦) "[٤].

وجال بولس جولاته الرسوليّة، مبتدئاً، في جولته الأولى مع برنابا (سنة ٤٥-٤٩)، في أنطاكية، وقبرص، وبمفيلية، وبسيدية، وليقونية، عوداً إلى أنطاكية.

ثمّ ابتدأ جولته الثانية مع سيلا (سنة ٤٩-٥٣)، في سورية، من قيليقية.. حتّى ميسية، في فيلبّي، وتسالونيكي، وبيرية، وأثينا، وقورنتس، " ولمّا أراد أن يُبحر (من قورنتس) إلى أفسس، بلغه أنّ اليهود كمنوا له ليقتلوه، فغيّر طريقه عائداً أدراجه إلى مقدونية "[٥].

ثمّ عاد إلى أنطاكية، ومنها جال جولته الثالثة (سنة ٥٤-٥٨)، إلى أفسس، ومقدونية، وأورشليم. ومن أورشليم اقتيد أسيراً إلى رومة...

---

(٣) غل ٤/٢٩؛ ٥/١١؛ ٦/١٢، ١٧.

(٤) المرجع السابق نفسه، ص ٦٣٣.

(٥) مقدّمة رسائل بولس، إونجليون، ص ٦٤٠.

" بينا بولس في الهيكل، لوفاء النذر، قبض اليهودُ عليه، بتهمة أنّه أدخل معه رجلاً أفسسيّاً، ودنّس الهيكل. وراحوا يوسعونه ضرباً ملتمسين قتله، لو لم يسرع الجنود الرومانيّون فينتشلوه من أيديهم. لمّا عرف قائد الألف أنّ بولس روماني، فكّ قيوده. وظهر الربُّ لبولس، وشجّعه على الشهادة له في أورشليم ثمّ في رومة "[٦].

" في قيصريّة تآمر أكثر من أربعين يهودياً، وأقسموا ألاّ يأكلوا أو يشربوا ما لم يقتلوا بولس، وكمنوا له. كشف المكيدة ابنُ أخت بولس، وبلغ الخبرُ أُذُنَ قائد الألف، فنقل بولس ليلاً من أورشليم إلى قيصريّة، حيث بات بولس محروساً في قصر هيرودس مدّة سنتَين.

" اتُّهم بولس بثلاث : أنّه ثائر على سلامة الدولة، ورئيس ملّة دينيّة ممنوعة، ومسيء إلى قداسة الهيكل (٢٤ / ٢-٨). برأ بولس نفسه من التهم: لا يثير فتناً، ويؤمن بكلّ ما تقضي به التوراة، ولم يدنّس الهيكل (٢٤ / ١١-١٩)، وليس رئيساً لأيّ دين أو مذهب.

استمرّ بولس، بهذه الحياة الصاخبة، يناضل ويجاهد حتّى الرمق الأخير من أجل إيمانه بأنّ الخلاص لم

(٦) المرجع نفسه، ص ٦٤١.

ولن يكون إلاّ بيسوع المسيح مصلوباً، وبيسوع المسيح وحده، وأنّ الخلاص لن يكون إلاّ شاملاً جميع البشر...

هذه هي رسالته المسيحيّة، وهذه هي مواقفه من التوراة اليهوديّة والشريعة التي نسبوها إلى اللّه. واللّهُ منها براء. لقد انتهت، في رأيه، شريعة العهد القديم ليبدأ دور المسيح الخلاصيّ في العهد الجديد.

رسالة بولس إلى أهل روما

٢ . البرّ بالإيمان بيسوع المسيح لا بأعمال الشريعة (رو ٣/ ٢٠-٢٢): **«لذلك لن يُبَرَّرَ أحدٌ أمامه بأعمال الشريعة، لأنّ بالشريعة معرفةَ الخطيئة.. ٢٢. برّ اللّه بالإيمان بيسوع المسيح، لجميع المؤمنين، وما من فارق».**

يعلّق شرّاح: "يعتبر صاحب المزامير (مز١٤٣/ ٢) أعمالَ الإنسانِ، في ذاتها، غير صالحة للتبرير؛ إنّما أمانة اللّه لوعده بالخلاص (١ قور ١/ ٩)، هي وحدها الضمانة،

وقد ظهرت في شخص يسوع بن الله (رو ٣/ ٢٢)، تشهد له الشريعة والأنبياء (رو ٣/ ٢١). لا دور للشريعة في تبرير الإنسان من الخطيئة، بل دور الشريعة أن تُظهر الخطيئة الكامنة في قلب الإنسان" (رو ١/ ١٦؛ ٧/ ٤و٧).

لقد " ملكت الخطيئة على جميع الناس، يونانيّين ويهوداً، وما من فارق: «إنّ الجميع، يهوداً ويونانيّين، هم تحتَ الخطيئة» (٣/ ٩و٢٢)، فلم يعُد من خلاص للبشريّة إلاّ بتدخّل الله العجيب، في شخص يسوع المسيح. وحده الإيمان بالمسيح يسوع يفتح باب التبرير والخلاص "[٧].

٣ . التبرير بالمسيح مجّاناً (رو ٣/ ٢٤) **«فيُبَرّرون مجّاناً بنعمته، بالفداء الذي صار في المسيح يسوع».**

يقول شرّاح : "برّ الله يعني ما يلي:

" أوّلاً – الله أمين، صادق، مساوٍ لذاته، وقد وعد بالخلاص، فسيخلّص، مهما حدث من جهة الإنسان. إنّه تصميم وقصد عند الله أظهره للبشريّة جمعاء، في يسوع المسيح، وأعلنه في بشارة الإنجيل (رو ١/ ١٧).

" ثانياً – برّ الله يتحقّق تجاه الإنسان الخاطئ (رو ٣/ ٢٣-٢٤) بنعمة من الله مجّانيّة، لا تتوقّع من الإنسان

---

(٧) حاشية على رو ٣/ ٢٢.

سوى قبول متواضع، وخضوع كامل يعبّر عن طاعة الإيمان. كلّ بِرٍّ لا يأتي من الله ومن الإيمان بيسوع المسيح باطل[٨].

" *ثالثاً* – هذا التبرير المجّانيّ يخلق في الإنسان حياة جديدة، الحياة بالروح (رو ٨ / ٢)، والقداسة (١قور ١ / ٣٠)، الحياة المنزّهة عن الخطيئة (رو ٦ / ١٣–٢٠)، والتي تثمر أثمار المجد (رو ٧ / ٤؛ فل ١ / ١١).

" *رابعاً* – إنّ الله هو الذي يدين الناس، وفق مشورته الصالحة، بناءً على استحقاق المسيح يسوع، الذي مات وقام، وهو لا يزال يشفع لهم[٩].

لكنّ الرسول بولس يُلحّ، في نصوص عدّة، على أهمّيّة الأعمال الصالحة، والطاعة لشريعة المحبّة، لأنّ الله يجازي كلّ واحد بأعماله "[١٠].

٤ . التبرير بالإيمان (رو ٣ / ٢٨) **«لأنّا نعتبر أنّ الإنسانَ يُبرَّر بالإيمان، بمعزلٍ عن أعمال الشريعة».**

---

(٨) رو ٣ / ١٩ ، ٣٠ ، ٤ / ٢ ، ١٠ ؛ ٩ / ٣٠–٣١ ، ١٠ / ٣–٤ ؛ غل ٢ / ١٦ ، فل ٣ / ٦-٩.

(٩) رو ٨ / ٣٠–٣٩ ، فل ٣ / ٨ ، ١٤.

(١٠) رو ٢ / ٥–٦ ، ١٢–٢٧ ، ٤ / ١٠–١٢ ؛ ٢قور ٥ / ١٠.

كلام واضح في الفرق بين الإيمان بيسوع المسيح وأعمال الشريعة؛ أي ليس برٌّ يأتي من الأعمال مهما كانت صالحة؛ إنّما البرّ يأتي من الإيمان بيسوع المسيح. هذا الإيمان هو الذي يقدّس الأعمال بتدخّلٍ من الروح القدس.

٥ . تحقيق الوعد بالإيمان (رو ٤ / ٢) **«فلو أنّ إبراهيمَ بُرِّر بأعمال، لكان له فخْر، لكن ليس عند الله».**

الخطيئة في جوهرها ادّعاء وافتخار أمام الله، يفتخر اليهوديّ بأعماله، واليونانيّ بحكمته. أمّا المؤمن فيعترف أنّ كلّ شيء هو من عمل نعمة الله المجّانيّة، في يسوع المسيح، الذي ألغى كلّ افتخار بشريّ[١١]. وصار هو نفسه موضوع الفخر الجديد الأسمى، في الأفراح والآلام، على حدّ سواء"[١٢].

٦ . تبرير إبراهيم كان بالإيمان (رو ٤ / ٣) **«.. قد آمن إبراهيمُ بالله، فحُسب له ذلك برّاً».**

يقول شرّاح: "ليس فعل الإيمان عملاً قانونيّاً يستحقّ التبرير أجراً؛ لأنّ محبّة الله الفائقة، وبادرته الخلاصيّة، نعمة مجّانيّة، وهي المبرِّرة.. يجمع بولس معاً

(١١) رو٣/ ٢٧؛ ١قور ١/ ٢٩، ٣١؛ غل٦/ ١٣.

(١٢) فل١/ ٢٦؛ ٢/ ١٦؛ ٢قور١/ ١٢؛ ٧/ ٤؛ ١١/ ٣٠؛ ١٢/ ٩؛ ١تس٢/ ١٩.

التبرير بالإيمان مجّاناً، ومغفرة الخطايا مجّاناً. والله هو الذي يبرّر المؤمن، ويغفر للخاطي، مجّاناً، على حدّ سواء (٣/ ٢٤؛ ٤/ ٧-٨)، لأنّ تبرير المؤمن قائم بغفران خطاياه.

٧ . تحقيق الوعد بالإيمان (رو٤/ ١٣-١٥) «**١٣. فليس بالشريعة أُعطي الوعد لإبراهيم أو لنسله.. بل ببرّ الإيمان. ١٤. فإن كان ذوو الشريعة هُمُ الوارثين، فالإيمانُ عُطِّل، والوعد أُبطِل؛ ١٥. لأنّ الشريعة تُنشئ الغضب، وحيث لا شريعة، فلا تعدِّيَ للشريعة**».

يعلّق شرّاح: "يجعل بولس، في نظرته الشاملة إلى تاريخ الخلاص، لكلٍّ من الوعد والإيمان والشريعة، دوراً خاصاً مميّزاً: دور الإيمان، إستناداً إلى وعد الله الحرّ، أن يمنح المؤمن الميراث. أمّا دور الشريعة، وقد أتت في وقت لاحق (غل٣/ ١٧)، فهو أن تُظهر للإنسان الخطيئة والتعديَ (رو٣/ ٢٠؛ ٧/ ٨-١٢)، فيعي الإنسان نفسه أنّه خاطئ أمام الله، يحتاج إلى إيمان وتبرير. وهذا ما حدث في موت المسيح وقيامته".

ألا يعني هذا أنّ الدِّين، الذي هو هنا الشريعة، هو الذي أظهر للإنسان الخطيئة والتعدّي؟ وبسببه وعى الإنسان نفسَه أنّه خاطئ أمام الله! ولا يمكن، بالتالي، أن

يتبرّر إلاّ بالإيمان بيسوع المسيح المخلّص، لا بأيٍّ دِينٍ مهما سمتْ تعاليمُه.

أضفْ إلى ذلك أنّ كلّ صاحب دين، يتصرّف بعداوة مع مَن هم مِن غير دينه. من هنا يشدّد بولس على إلغاء كلّ شريعة ودين من أجل الوفاق والمحبّة بين أبناء اللّه.

٨ . الشريعة والخطيئة (رو٥ / ٢٠) **«امّا الشريعة فقد اندَسّتْ لكي تَكثُرَ الخطيئة».**

يعلّق شرّاح: "لا يقول بولس إنّ غاية الشريعة تكثير الزلاّت، لكنّه يرى أنّ الشريعة أسهمت إلى حدّ بعيد في إظهار الزلاّت وتكثيرها.

"لا يعلّق بولس أي أهمّيّة خلاصيّة على الشريعة، كما علّق التقليد الربّيني المعاصر، والرؤيوات اليهوديّة المعاصرة، بدلاً من أن تعطي الشريعةُ الحياة، قوّت سلطان الخطيئة والموت"..

هذا يعني أنّ في كثرة الأديان والشرائع برهاناً على كثرة الزلاّت والخطايا، وبالتالي كثرة الخلافات بين الناس.

٩ . التحرّر من الخطيئة (رو٦ / ١٤-١٥) **«١٤. لا تتسلّط عليكم الخطيئة، لأنكم لستم في قيد الشريعة بل في**

قيد النعمة. ١٥. إذاً، ماذا؟ أنخطأ لأنّا لسنا في قيد الشريعة، بل في قيد النعمة؟ معاذَ الله!»

يعلّق شرّاح: "قيد الشريعة لا يحلّه إلاّ الموت... يموت المسيحيّ عن الخطيئة (رو ٦/٢و١١؛ ١ بط ٤/١)، وعن الشريعة (٧/٦؛ غل ٢/١٩)، وعن أركان العالم (قو ٢/٢٠)، ليحيا في نظام النعمة والروح (رو ٨/٥-١٣)، لا لنفسه بل للمسيح ولله الآب"(١٣).

لهذا لا يحقّ لمن كان في حال النعمة أن يعود إلى الخطيئة ونظام الشريعة.

١٠. **المسيحيّ محرَّر من الشريعة** (رو٧/١-٤)

«أوَتجهلون، أيّها الإخوة.. أنّ الشريعةَ تتسلّطُ على الإنسان ما دام حيّاً؟.. ٤. «إذاً، يا إخوتي، فأنتم أيضاً قد أُمِتّم بالنظر إلى الشريعة».

قال شرّاح: "يشدّد بولس على أمرين هامّين:

الأوّل أنّ المسيحيّ قد تحرّر بالمسيح من شريعة موسى (٧/١-١٦)، *والثاني* أنّ الشريعة في ذاتها صالحة نظريّاً، لكنّها في الواقع كانت سبباً لمأساة الإنسان الدهريّة، وصارت نقيض إنجيل المسيح يسوع (٧/٧-٢٥). ينقض

---

(١٣) ٦/١١، ١٢، ١٤؛ ٧/٧-٨؛ ٢ قور ٥/١٥؛ غل ٢/٢٠؛ ن: حاشية على رو ٧/٤.

بولس رأي الربّينيّين الذين يرون في الشريعة ضرورة أبديّة، لتضع حدّاً لغريزة الشرّ في قلب الإنسان الخاطئ".

"ليست شريعة موسى مجموعة فرائض ورسوم خارجيّة فحسب، كالختانة والسبت؛ بل هي أيضاً شريعة أدبيّة، كالوصايا العشر، فُرضت على ضمير الإنسان، ولا يسعها إلاّ أن تعرِّف الإنسان بطريق الخير والصلاح، لكنّها تبقى عاجزة عن إعطائه القوّة على العمل بموجبها.

"فالشريعة في ذاتها صالحة، لأنّها تُظهر إرادة الله (رو٧/١٢-٢٥)؛ وهي امتياز لشعب الله القديم (رو٩/٤). مع ذلك تبدو فاشلة، لأنّ شعب الله خاطئ، مثل باقي الناس الذين لا شريعة لهم[١٤]، رافض لنعمة المسيح[١٥]. فالمؤمنون، وقد ماتوا وقاموا مع المسيح، حازوا شريعة الروح، وتحرّروا من أيّ شريعة أخرى".

١١ . عِتْقُ الحَرْف (رو٧/٦) **«أمّا الآن فقد أُعتِقْنا من الشريعة، مُتنا عمّا كان يأسُرُنا، حتّى نَخدُمَ لا في عِتْقِ الحَرْفِ بل في جِدّة الروح».**

(١٤) رو٢/٢١-٢٧؛ غل٦/١٣؛ أف ٢/٣.

(١٥) غل ٦/١٢؛ فل ٣/١٨؛ رسل ١٥/١؛ ١٨/١٣؛ ٢١/٢١.

يعلّق شــرّاح على تعـبيـر «عِتْـقِ الحَرْف» بقــولـهم : "هي الشــريعة القـديمة المكتـوبة، العـاجزة عن تبـرير مَن يخدم فيها[١٦] لسببَين :

الأوّل لأنّ الشــريعة في ذات طبـعهـا نور إلهيّ يزيد الإنسان وعيـاً ومعرفة لإرادة اللّه، لكنّهـا لا تمنحه أيَّ قوّة داخليّة تساعده على عمل الخير، ولا أيّ مناعة تُسند ضـعفه ضدّ عـمل الشرّ، مع أنّهـا تعبّـر عن إرادة اللّه[١٧]. فهي إذاً تُسهم، ولو في صورة سلبيّة، في مأساة الإنسان الضـعيف الخاطئ: تذكي فــيه الشهوة (٧/٧-٨)، ولا تداوي ضــعفه إلاّ بقـصــاص غضب الـلّه (٤/١٥)، واللّعنة (غل ٣/١٠)، والدينونة (٢ قـــور٣/٩)، والموت (٢ قــور٣/٦-٧). لذلك يدعوها الرسـول «شريعة الخطيئة والموت»[١٨].

والثانـي لأنّ الشريعة نظام موقّت، أراده اللّه مرحلة من تاريخ الخلاص، يكون فـيها للشريعــة دورٌ مؤدِّب يقود إلى المســيح (غل ٣/٢٤)، ومنبِّه ومـحذِّر (رو٣/١٩-٢٠؛ ٥/٢٠؛ غل ٣/١٩)، يجعـلنا لا نأمل التبـرير والخلاص إلاّ من اللّه وحده (غل ٣/٢٢؛ رو١١/٣٢).

---

(١٦) غل ٣/١١، ٢١-٢٢؛ رو٣/٢٠؛ عب ٧/١٩.

(١٧) رو ٧/١٢-٢٥؛ ١ طيم ١/٨/

(١٨) رو ٨/٢؛ ١ قور ١٥/٥٦؛ رو٧/١٢.

" والمسيح يسوع قد وضع حدّاً لنظام الشريعة (أف ٢/ ١٥؛ رو١٠ / ٤) بموته فداء (غل ٣/ ١٣؛ رو٨/ ٣؛ قول ٢/ ١٤)، فاستحقّ للإنسان المفتدَى موهبة الروح القدس (أف ٢/ ١٤)، ومنح الإنسان المؤمن قوّةً داخليّة تمكّنه من العمل بما كانت تأمر به الشريعة (رو٨/ ٤-٥)، وأحلّ نظام النعمة مكان نظام الشريعة، يدعوها بولس «شريعة الإيمان» (رو٣/ ٢٧)، و«شريعة المسيح» (غل ٦/ ٢)، و«شريعة الروح» (رو٨/ ١). تختصرها وصيّة المحبّة.

١٢. مهمّة الشريعة (رو٧/ ٧-١٠) **«٧. .. ما عرفتُ الخطيئةَ إلاّ بالشريعة.. ٨. فالخطيئة اتّخذتِ الوصيّةَ سانحةً.. لأنّ الخطيئة بدون الشريعة ميْتة. ٩. أمّا أنا فكنتُ حيّاً مِن قبْلُ بدون الشريعة. ولمّا جاءت الوصيّة عاشتِ الخطيئة، ١٠. ومُتُّ أنا. والوصيّة التي هي للحياة، صارتْ لي هي نفسُها للموت».**

يوضح بولس في قوله هذا: لولا الشريعة لما كانت خطيئة. ويقول أيضاً: بالشريعة عاشت الخطيئة.. وجاء يسوع المسيح ليقضي على الخطيئة، يعني ليقضي على الشريعة التي عنها نتجت الخطيئة. والخطيئة بدون الشريعة ميتة.. ويوم يعود حكم الشريعة، تعيش الخطيئة

من جديد. أي: بكثرة الشرائع، والأديـان الحاضنة لها، تكثر الخلافات بين البشر. وهذا ما هو حاصل فعلاً.

١٣ . اللّه قضى علـى الخطيئة بالجـسد (رو ٨ / ٣)

«إنّ ما عجـزتْ عنه الشريعة، وقد أضـعفها الجـسد، أنجزه اللّه، لمّا أرسل ابنه من أجل الخطيئة في شِبْـهِ جسدِ خطيئة، فقضى في الجسد على الخطيئة».

يقول شرّاح: "عجـزت شريعة موسى عن أن تكون مبدأ خلاصٍ للإنسان، لأنّها اكـتفت بإعطائه مبادئ وأوامر، دون أن تُعينَه على تنفيـذها، فبقيت الخطيئـةُ متسلّطةً على الجسد، وأضعفتِ الشريعة وأعجزتْها. وما استطاع أحد أن يقـتل الخطيـئة إلاّ المسـيح وحـده، على الصليب. وإحـلال روحه القدّوس في الجسد، مبدأ خلاصٍ وحياة".

عندما حـلّ اللّه في الجسد قـضى على الخطيـئة في عقـر دارها، أي لم يعد الجـسد مقـرّاً لها، ولا مكاناً لفـعلها الشـرير. بموت جسـد المسـيح على الصليب أمـات جسـد الخطيئة، حيث منبت الشريعة.

١٤ . لا هدف للشريعة (رو ٩ / ٣١-٣٢) **«٣١. أمّا إسرائيل الذي سعى إلى شريعةِ بِـرّ، فما بلغ تلك الشريعة. ٣٢. لماذا؟ لأنّه ما سعى إلى بـرٍّ مِن الإيمان بل مِن الأعمال،**

فعَثَروا بحجرِ العَثرة».

يعلّق شرّاح: "لم يصل شعب إسرائيل، شعب الشريعة، إلى الغاية التي كان على الشريعة أن توصله إليها؛ إمّا لأنّه لم يحفظ الشريعة[١٩]، وإمّا لأنّه لم يدرك الهدف الأسمى، أي المسيح؛ وقد كان على الشريعة أن تقوده إليه، ولم يَسَعْها!".

بالشريعة لا يصل الإنسان إلى البرّ، لأنّ الشريعة تجعله يُتقن أعماله فقط؛ أمّا بالإيمان بيسوع المسيح فالبرّ حاصل به، لا بسواه. لهذا، لا يسع الشريعة أن تقود إلى البرّ، وبالتالي إلى الخلاص.

١٥ . **الخلاص بالإيمان لا بالشريعة** (رو ١٠/١-٢١) **«٤. إنّ غاية الشريعة إنّما هي المسيحُ تبريراً لكلّ مؤمن.. ٩. إنِ اعترفتَ بفمك أنّ يسوع ربّ، وآمنتَ بقلبك أنّ الله أقامه من بين الأموات، تَخلُص.. ١٢. فما من فارقٍ بين يهوديٍّ ويونانيّ، لأنّ الربَّ نفسَه ربٌّ للجميع، غنيٌّ لجميع الذين يَدعونه. ١٣. فكلُّ من يدعو اسمَ الربّ يَخلُص».**

يعلّق شرّاح: "شعبُ الشريعة مسؤول عن عثرته وخطيئته: لأنّه جهل برّ الله في المسيح يسوع، وقد كان في

(١٩) متى ٢٣/١٣؛ رسل ١٥/١٠؛ رو ٢/٢١-٢٣.

متناول يده (١٠/١-٤)، فلا خلاص له بشريعة موسى، بل بالإيمان بيسوع المسيح (١٠/٥-١٣)؛ ولا عذر له إن لم يؤمن (١٠/١٤-٢١)".

ويقولون: "لا ينكر بولس أنّ شعب التوراة قد عرفوا برّ اللّه، بل يأخذ عليهم جهلهم أن برّ اللّه لا ينتج عن عمل بشريّ أو جهد شخصيّ، كممارسة الشريعة مثلاً، بل هو نعمة مجّانيّة تُقبَل بالإيمان بيسوع المسيح (١/١٦؛ ٤/٢٥؛ ٧/٧). والبرهان القاطع على جهلهم إنّما هو رفضهم للمسيح يسوع، باسم التوراة نفسها!".

الرسالة الأولى إلى أهل قورنتس

١٦ . بولس يريد أن يربح الكلّ للمسيح (٩/ ٢٠-٢١) «٢٠. صِرتُ لليهود كأنّي يهوديٌّ لأربح اليهود، وللذين هم في قيد الشريعة كأنّي في قيد الشريعة، مع أنّي لستُ في قيد الشريعة، لأربح الذين هم في الشريعة[٢٠]. ٢١. وللذين هم بغير شريعة كأنّي بغير شريعة، مع أنّي

---

(٢٠) رَ: رسل ١٦/٣؛ ٢١/٢٠-٢٦؛ غل ٤/٤-٥.

لستُ بغير شريعة الله، بل أنا في شريعة المسيح، لأربح الذين هم بغير شريعة».

يقول شرّاح: "الذين هم بغير شريعة هم الوثنيّون الذين ما أوحى الله إليهم بالشريعة الموسويّة". ومع هذا فإنّ بولس يعمل من أجل أن يربحهم للمسيح. وهم مؤهّلون لذلك، لأنّ المسيح لم يأتِ من أجل فئة من الناس على حساب فئة، كما يظنّ اليهود.

١٤ . قوّة الخطيئة إنّما هي الشريعة (١٥/٥٦)

هذا كلام يضع الخطيئة في أساس الشريعة؛ ويضع الشريعة أساساً للخطيئة. إنّ "شريعة الله موضوعة للناس العاصين المخالفين، لتُظهر لهم الخطيئة الكامنة في أعماقهم. لذلك تصبح الشريعة هدفاً للمعصية، أداة الخطيئة، التي تعمل في العاصين الموت المؤدّي إلى الهلاك".

الرسالة إلى أهل غلاطية

١٥ . التحرّر من الشريعة: يعلّق شرّاح على هذه الرسالة بقولهم: "لم يكن بولس أوّل من بشّر العالم

الوثني، بل أوّل مَن رسّخ مبدأ التحرّر من شريعة الختانة. قاومه قوم متحفّظون يرون في الختانة لزاماً على كلّ مسيحيّ، وإكمالاً وأمانة للعهد القديم، فكان على الرسل أن يُدلوا برأيهم: إمّا الشريعة وإمّا المسيح! إمّا مسيحيّة منغلقة في العالم اليهوديّ، وإمّا مسيحيّة منفتحة على العالم الوثنيّ والناس أجمعين. فكان مجمع الرسل سنة ٤٩، أيّد فيه الرسلُ والشيوخُ والكنيسةُ مبدأ بولس، مبدأ الحرّيّة المسيحيّة"(٢١).

١٦ . عودة إلى شريعة موسى : يقول شرّاح: "..قَبِل أهل غلاطية الإنجيل (غل ١ / ٩)... وتحرّروا من شريعة موسى (٣ / ١٣). لكنّ تغييراً جذريّاً مفاجئاً طرأ على مؤمني غلاطية: عودة سريعة إلى شريعة موسى والختانة، وعودة إلى الماضي الوثني، عودة إلى حياة الجسد بعد أن بدأوا بالروح (٣ / ٣)، من الحرّيّة إلى العبوديّة.

"لا يُخفي بولس تأثّره العميق، وانفعاله العنيف، وجرحه الدامي، إزاء هذا التغيير المفاجئ المذهل: لكأنّ

(٢١) شرّاح أورشليم، مقدمة الرسالة إلى الغلاطيّين، ص ٨٢٤.

ساحراً سحرهم!"[٢٢]، وأعادهم من الحرّيّة إلى العبوديّة، من النعمة إلى الشريعة.

١٧ . الدهر الحاضر الشرّير (١/ ٣-٤) « ٣. والربّ يسوع المسيح، ٤. الذي بذل نفسَه عن خطايانا، ليُنقِذَنا من الدهر الحاضر الشرّير»..

يقول شرّاح: "يعني بولس بتعبيره «الدهر الحاضر الشرّير»، لا زمن الأمم والوثنيّة فحسب، بل زمن اليهود والشريعة أيضاً، أيَ كلَّ زمن خارج عن المسيح يسوع، وهو زمن خاضع لسلطان الشيطان، إله هذا الدهر[٢٣]، زمن تملك فيه الشريعة والخطيئة (غل ٣/ ١٩). فالمسيح وحده، بصلبه وموته وقيامته، قد حرّرنا من عناصر العالم القديم (غل ٤/ ٣، ٩-١٠)، وجعلنا خليقة جديدة (غل ٦/ ١٥)، ونقلنا إلى ملكوته أو ملكوت أبيه (رو ١٤/ ١٧)، وبدأ معنا عهداً ودهراً جديداً.. لكنّ الدهر الحاضر الشرّير لا يزال يعمل عمله ليعود ويستعبدنا. لذلك لا نزال ننتظر الحرّيّة الكاملة والخلاص النُّهْيَوِيّ، يوم مجيء المسيح (٥-٨)".

---

(٢٢) المرجع السابق نفسه، ص ٨٢٤.

(٢٣) رسل ٢٦/ ١٨؛ متى ٦/ ١٣؛ ١٢/ ٢٨؛ ٢ قور ٤/ ٤؛ اف ٢/ ٢؛ ٦/ ١٢؛ يو ١٢/ ٣١.

١٨ . عجب بـولس من تحوّل أهل غـلاطية (غل ١ / ٦–٨) **«٦. يأخذني العجب من أنّكم تتحوّلون بهذه السرعة إلى إنجيل آخـر عن الذي دعاكم بنعمة المسـيح. ٧. وما هذا الآخر بإنجـيل، إلاّ أنّ أناساً يبلبلونكم ويقصـدون تحريف إنجيل المسيح. ٨. حتّى لو نحن بشّرناكم، أو بشّركم ملاكٌ من السماء، بخلافِ ما بشّرناكم، فليكنْ محروماً».**

يعلّق شرّاح: "إنجيل المسيح واحد، هو الذي بشّر به بولس، وهو الدعـوة إلـى الخـلاص، بالمسـيح وحـده، إلى الحياة الجديدة (١ قـور ١١ / ٤؛ ١٥ / ١١). كلّ دعوة أخرى إلى غيـر المسيح لا يسـعهـا أن تكون إنجيـلاً، بل دعوة إلى «الدهر الحاضر الشـرّير» (١ / ٤)، وتحريف للإنجيل الحقّ الواحد (١ / ٧). "وما هذا الآخر بإنجيل" .

١٩ . رِضـى الـلّـه أولـى (غـل ١ / ١٠) **«والآن، أأستـعطف الناسَ أم اللّه؟ أم أسعى إلى مـرضـاة الناس؟ لو كنت ما أزال أُرضـي الناس، لما كنتُ عبداً للمسيح!».**

يقول شرّاح: "اتّهم المتهوّدون بولسَ بالمساومة على حقيقة الوحي الإلهي، لأنّه بات لا يُلزِم بالختانة مَن يهتدون على يده من الأمم إلى المـسيـح، وذلك، في نظرهم، طمـعـاً بعطف الأمم وكسباً لرضـاهم! يوجّه بولس الحرم إلى أمثال

أولئك المتهوّدين، مؤكّداً لهم أنّ تحرير الأمم من شريعة الختانة ليس إلاّ أمانة للمسيح لا غير!".

٢٠. التبرير بالإيمان لا بالشريعة (غل ٢/ ١٦)

«لكنْ على علمنا أنْ ليس أحدٌ يُبَرَّر بأعمال الشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح، فقد آمنَّا نحن أيضاً بالمسيح يسوع، لكي نُبَرَّر بالإيمان بالمسيح، لا بأعمال الشريعة، إذ ليس أحدٌ يُبَرَّرُ بأعمال الشريعة»..

هذه اللازمة الأساسيّة الدائمة في تفكير بولس يردّدها في كلّ رسالة وفي كلّ حين: التبرير، والقداسة، والخلاص.. إنّما تكون كلُّها بالإيمان بيسوع المسيح، لا بإتمام أعمال الشريعة التي كانت صالحة في حينها، وإلى وقتٍ محدَّد؛ أمّا اليوم، بعد عمل المسيح الخلاصيّ، فقد انتهى دورها.

٢١. البِرُّ بموت المسيح لا بالشريعة (غل ٢/ ٢١)

«لستُ أنقُضُ نعمة الله (بالعودة إلى الشريعة)**: فإنْ كان التبرير بالشريعة، إذاً فباطِلاً مات المسيح!»**

يشدّد بولس أكثر فأكثر على أنّ التبرير لا يكون بالشريعة؛ إنّما يكون بالإيمان بيسوع المسيح، وبالنعمة التي وهبناها. وإلاّ كان موت المسيح باطلاً.

٢٢ . القداســة من الإيمان لا من الشــريعة (غل ٣ / ١-٥) **«١. أيّها الغلاطيّون الأغبياء.. ٢. شيئاً واحداً أريد أن أعرف منكم: أمِن أعمال الشريعة قَبلتُمُ الروحَ، أم من سماع الإيمان؟».**

أي إنّ الإنسان يتبرّر ويتقدّس بعمل روح يسوع، لا بأعماله هو، ولا بأعمال الشــريعة.. وقبول الروح القدس لا يكون بأعـمال الشريعــة أو بأعمــال الإنسان، مــهمــا كانت صالحــة؛ إنّما يكون بالإيمان بيســوع المسيح إلهاً مــخلّصاً جميعَ البشر.

٢٣ . المسيح افتدانا من لعنة الشريعة (غل ٣ / ١٠-١٣) **«١٠. فجـميع الذين هم من أعـمال الشــريعة هم تحت لعنة، لأنّه قد كُتب: "ملعــونٌ كلُّ مَن لا يَثْبُتُ على العمل بكلّ ما كُتِب في الشريعة"[٢٤]. ١١. أمّا أنّه ما من أحد يُبرَّرُ في الشريعة أمام الله فأمر واضح، لأنّ البارّ بالإيمان يحيا[٢٥]. ١٢. فمــا الشريعة من الإيمان، بــل إنّ من يعمل برسومــها يحيا بها. ١٣. لقد افتدانا المسيح من لعنة الشريعة، إذ صار لعنةً من أجلنا، لأنّه كُتب: ملعون كلُّ معلَّقٍ على خشبة».**

---

(٢٤) تث ٢٧ / ٢٦؛ ١٨ / ١٨؛ سي ٤٤ / ٢١؛ رسل ٣ / ٢٥.

(٢٥) رو ٣ / ٢٠؛ غل ٢ / ١٦؛ حب ٢ / ٤؛ رو ١ / ١٧؛ عب ١٠ / ٣٨.

يعلّق شـــرّاح: "تفـرض الشـــريعـة عـلى الإنســـان ممارسـات، ينبـغي أن يتمّمهـا كاملة (غل ٣ / ١٠؛ ٥ / ٣؛ يع ٢ / ١٠)؛ لأنّ الحياة تأتي من العمل بـرسـوم الشريعة، لكنّ الشريعــة لا تُعطي القوّة على تتميم مــا تفرض (رسل ١٥ / ١٠؛ رو٧ / ٧). لذلك يســتحيــل على الإنسان تطبـيقــها. إذاً فــالخــلاص لا يأتي من الشـــريعــة، بل من الإيمان وحــده بالمسيح، الذي يعطينا شريعة الروح (رو٨).

ويعلّقون أيضـــاً : "الإنسـان عاجــز عن تتميم جــميع أحكام الشريعة، لذلك فهـو واقع تحت اللعنة لا محالة (٣ / ١٠). ويسوع البارّ، صار في حكـم المحفل اليهوديّ، وحكم بيلاطس الروماني، المجدِّفَ الأكبر على الله وشريعته، وفي عين الشريعة والشـعب، صار لعنة بموته على الصليب[٢٦]؛ أخذ يـسوع على نفـسه لعنة الشــريعة، فــأبطل الشريــعة؛ وحرّر شعبه منها، مظهراً حبّه للآب وللناس (رو ٥ / ٨؛ أف ٢ / ٤–٥)، ومســتحقّاً البـركة لشعــبه، ولجميع الشــعوب، وللغلاطيّين أنفسهم".

٢٤ . لا وســـيط بين الله والإنســـان (غل ٣ / ٢٠)

«غير أنّ الواحد لا وسيط له. والله واحد».

---

(٢٦) تث ٢١ / ٢٣؛ رو٨ / ٣؛ ٢قور ٥ / ٢١؛ قول ٢ / ٤.

يعلّق شرّاح: "أعطيت الشريعة للشعب على أيدي وسطاء، موسى والملائكة (٣ / ١٩)، بينما الوعد صدر عن اللّه مباشرة دون وسيط. لا شكّ في أنّ الشريعة إلهيّة، لأنّ سلطة الملائكة وموسى هي من اللّه. لكنّها لا يسعها أن تحقّق قصد اللّه الخلاصيّ الشامل لكلّ البشر بغير استثناء. فقد أخضعت شعبَ اللّه لعناصر العالم (٤ / ٣)، وشطرت البشريّة قسمين: يهوداً وأمماً. لذلك يشدّد بولس على أنّ «اللّه واحد» (رو ٣ / ٣٠)، وأنّ إرادته الخلاصيّة لن تتحقّق بالشريعة، بل بالإيمان بيسوع المسيح[٢٧]، الذي هو «الوسيط الواحد» (١طيم ٢ / ٥) بين اللّه والبشر. ولقد حقّق اللّه وعده شخصيّاً في ابنه الواحد، يسوع المسيح".

مرّة أخرى يركّز بولس على أنّ الخلاص لن يكون إلاّ بوسيط واحد هو يسوع المسيح. فلا الشريعة ولا ممارساتها ولا تقاليد الآباء والأنبياء تستطيع أن تعطي الخلاص للعالم.

٢٥ . الشريعة ووعود اللّه (غل ٣ / ٢١-٢٨) **«فهل تَنقُض الشريعةُ وعودَ اللّه؟ معاذَ اللّه! فلو وُهِبتْ شريعةٌ**

(٢٧) ٣ / ٢٢، ٢٦، ٢٨؛ رو ٣ / ٢٩، ٣٠؛ أف ٢ / ٨، ١١-١٨.

جديرةٌ بأن تُحْيي، لكان التبرير حقّاً بالشريعة[٢٨].. ٢٣. قبل أن يأتي الإيمان، كنّا محفوظينَ محبوسين تحت الشريعة، على توقُّعٍ أن يَظهر الإيمان، ٢٤. بحيث إنّ الشريعة كانت لنا مؤدِّبةً تقودنا إلى المسيح، لكي نُبَرَّرَ بالإيمان. ٢٥. فلمّا أتى الإيمان، لم نَعُدْ تحتَ مؤدِّب. ٢٦. فجميعُكم أبناءُ الله بالإيمان، في المسيح يسوع. ٢٧. فأنتم جميعَ الذين عُمِّدْتُم في المسيح، قد لَبِسْتُمُ المسيح. ٢٨. لا يهوديٌ بَعد ولا يونانيّ، لا عبدَ ولا حرّ، لا ذكرَ ولا أنثى، فإنّكم جميعاً واحدٌ في المسيح يسوع».

يعلّق شرّاح: "يرى بولس أنّ الشريعة حفظت اليهود في وضع معيّن خاصّ ميّزهم عن الشعوب الباقين، ولكنّها ما عصمتهم من الخطيئة، ولا برّرتهم، لأنّ الإيمان بيسوع المسيح هو وحده المبرِّر".

«جميعكم واحد في المسيح»، أي "في المسيح تُلغى جميع الحواجز التي تفصل البشر: العِرقيّة (يهودي ويونانيّ)، والاجتماعيّة (عبد وحرّ)، والطبيعيّة نفسها (ذكر وأنثى)، لأنّ المسيح يوحّد فيه جميع الذين يشتركون في حياته الإلهيّة بالإيمان والعماد والعيش المسيحيّ الملتزم

---

(٢٨) رَ: رو٨/ ٢ - ٤: ٣/ ٣٠: أف ٢/ ١٤ - ١٥: رسل١٣/ ٣٨-٣٩.

(قول ٣ / ١١)، فيجعل منهم إنساناً جديداً واحداً في المسيح. فالمؤمنون جميعهم أعضاء جسد المسيح السرّي الواحد[٢٩]".

لذلك فالطريق إلى اللّه واحد، وهو الإيمان بالوسيط الوحيد يسوع المسيح. هذا يعني أنّ الدين واحد. وإذا شئتَ لا دين، أو أيضاً، لا أديان حدّدها اللّه وجعل بين البشر اختلافاً بسببها، فيما الطريق الموصل إلى اللّه واحد.

٢٦ . الخوف من العودة إلى الشريعة (غل ٤ / ١١)

«إنّي لخَائفٌ أن أكونَ تَعبتُ في سبيلكم عبَثاً!».

يعلّق شرّاح: "يخاف الرسول أن يَهلك مؤمنو غلاطية، بعودتهم إلى شريعة موسى، ويكون تعبه هو في سبيلهم عبثاً" (رَ: فل ٢ / ١٦)..

٢٧ . «كونوا مِثْلي» (غل ٤ / ١٢).

يعلّق شرّاح: "ترك بولس من أجل المسيح شريعةَ موسى وبرَّها، وعدَّها كلا شيء، فأضحى مثل أهل غلاطية، مثل الأمم لا يَفْرُق يهودياً عن وثني (٣ / ٢٨). وها هو الآن يناشد الغلاطيّين أن يقتدوا به هم بدورهم فيرفضوا العودة إلى الشريعة، ليثبتوا على إيمانهم بالإنجيل".

(٢٩) رو١٢ / ٥؛ ١قور١٢ / ١٢-٢٧

الرسالة إلى أهل فيلبّي

٢٨ . الحذر من أهل الختانة (فل٣ / ٢) **«إحذروا الكلاب، إحذروا العمَلة الأردياء، إحذروا قطْعَ اللحم».**

يقول شرّاح: "كان «الكلب» يعني حيواناً نجساً، كالخنزير أحياناً (متى ٧ / ٦؛ ٢ بط ٢ / ٢٢)، حتّى كان اليهود يُلقّبون الوثنيّين بالكلاب (متى ١٥ / ٣٦؛ رؤ ٢٢ / ١٥)؛ أمّا بولس هنا فيعني المسيحيّين المتهوّدين الداعين إلى حفظ الختانة، كما يتّضح من تسميتهم بذوي «قطْع اللحم» و«العَمَلة الأردياء»، ومن المقطع كلّه (٣ / ٢–١١).

و«العَمَلة الأردياء»: سمّى يسوع تلاميذه «عَمَلة» لحصاده الإنجيليّ الكثير[٣٠]؛ ويسمّي بولس «عَمَلة أردياء» أولئك المسيحيّين المتهوّدين المروّجين لشريعة موسى ضد إنجيل يسوع، في فيلبّي، مثل أولئك «العَمَلة الماكرين» في قورنتس[٣١].

(٣٠) متى ٩ / ٣٧–٣٨؛ لو ١١ / ٢.

(٣١) ٢قور ١١ / ١٣؛ متى ٢١ / ٤١؛ ٢٤ / ٤٨.

و «قطْع اللحم»: تعبير مُحقِّر للمسيحيّين المتهوّدين المتمسكين بشريعة الختانة اللحميّة (غل ٥/١٢). إنّ الختانة الحقيقيّة هي ختانة القلب (رو ٢/٢٩)، ختانة المسيح (قول ٢/١١).

٢٩. البِرُّ من الإيمان (فل٣/٩) **«.. لا بِرَّ لي من الشريعة، بل من الإيمان بالمسيح».**

يعلّق شرّاح: "إنّ التبرير لا يأتي من الشريعة، بل يأتي مجاناً من الإيمان بالمسيح. وهذا هو الموضوع الأساسي" عند بولس، والذي يتكرّر دائماً في رسائله.

الرسالة إلى أهل قولسّي

٣٠. بولس في خدمة الأمم (قول١/٢٧-٢٨)

«٢٧. الذين شاء الله أن يُعرِّفهم ما غنى مجد السرّ في الأمم، وهو المسيح فيكم، رجاءُ المجد. ٢٨. به نحن نُبَشِّرُ ناصحينَ كلَّ إنسان، ومعلّمين كلَّ إنسان في كلِّ حكمة، لكي نجعلَ كلَّ إنسان في المسيح كاملاً»[٣٢].

---

(٣٢) ر: ١ قور ٢/٦؛ أف ٤/١٣؛ قول ٣/١٦.

يعلّق شرّاح: "كان الأمم غرباء مُـبعَدين عن خلاصٍ محفوظٍ لإسرائيل، فكانوا بلا إله، بلا مسيح، بلا رجاء (أف ٢/ ١٢). إنّ سـرّ تصميم الله الخلاصيّ، الذي أُوحِي في المسيح يسوع وفي الكنيسة، يدعو جميع الأمم إلى الخلاص والمجد السماوي، في المسيح يسوع (أف ٢/ ١٣-٢٢؛ ٣/ ٦). إنّ حضور المسيح بين الأمم في قولسّي قد أظهر غنى مجد الله بخلاصهم[٣٣]".

٣١ . الحياة الجديدة في المسيح (قول٢/ ٢٠) **«إن كنتم قد مُتُّم مع المسيح عن أركان العالم، فلماذا تَركُمون على أنفسكم فرائضَ كأنّكم ما بَرِحتُم تَعيشون في العالم؟»**

هذا يعني أنّ المسيحيّ الذي دخل بالمعموديّة، في حياة يسوع، كيف يحقّ له، بعد ذلك، أن يعود إلى الوراء، إلى نظام الشريعة وأحكامها، وإلى التقيّد بمعطيات العالم!

(٣٣) رسل ١٢/ ٤٧؛ رو ١٥/ ٧-١٣.

الرسالة الأولى إلى أهل تسالونيكي

٣٢ . غضب الله على اليهود (٢/ ١٦) **«.. لكنْ عليهم** (أي على اليهود) **وقعَ الغضبُ إلى النهاية».**

أي : إنّ " غضب اللّه الذي كان يهدف إلى غير اليهود، انقلب، مع بولس، على اليهود أنفسهم، وقد طَفَّحوا كيلَ آثامهم.

" سبق بولس فذكّر أنّ الإيمان بالمسيح ينجّي المؤمنين من غضب اللّه (١/ ١٠). أمّا الكفر بالمسيح فيوقع غضب اللّه على الكافرين إلى النهاية " .

أي إنّ محبّة اللّه للعالم إنّما تمرّ عبر يسوع المسيح الذي خلّص البشر من غضب اللّه.

الرسالة إلى العبرانيّين

ليست هذه الرسالة من يد القدّيس بولس مباشرة، بل من أحد تلاميذه. إلاّ أنّها تسير في خطّه، وتتناول

موضوعات كثيرة من تفكيره وإيمانه بالمسيح.

٢٣. الكهنوت يعني التحرّر من نظام الشريعة :

"موضوع كهنوت المسيح نفسه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوعين أساسيّين في تفكير القديس بولس، هما: التحرّر المسيحيّ من نظام الشريعة القديمة، وطاعة المسيح الخلاصيّة المطلقة للّه الآب السماويّ"[٣٤].

"افترض (شرّاح) آخرون أنّها (أي الرسالة إلى العبرانيّين) موجّهة إلى مؤمنين من أصل يهوديّ، كهنة ولاويّين، ليثبّتهم على الإيمان، لئلاّ يسقطوا في تجربة العودة إلى اليهوديّة"[٣٥].

"كان على الكهنوت القديم أن يقوم بجميع طقوس العبادة المتعدّدة والمتنوّعة[٣٦]. تلك الطقوس لم يقم يسوع بواحدٍ منها، ولا بقي منها شيء في العبادة المسيحيّة"[٣٧].

"ويرى الكاتب سرّ كهنوت المسيح الجديد في علاقة مثلّثة بالعهد القديم:

(٣٤) مقدّمة عبرانيّين، ص ١٠٢٨.
(٣٥) المرجع السابق نفسه.
(٣٦) تث ٢٣/٨-١١؛ أح ١٢-١٤/ عد ٦// ٢٢-٢٧: ١٩؛ سي ٤٥/ ٦ ٢٢.
(٣٧) مقدّمة عبرانيّين، ص ١٠٢٢

١". يراه مواصلاً من جهة، يُظهر قصد اللّه الثابت الأمين في تاريخ الخلاص الشامل (٥/١؛ ٧؛ ٩/١٣-١٤)؛

٢". وناقضاً من جهة ثانية، مُلغياً ذبائح الكهنوت القديم وطقوسه، يُحِلُّ محلَّها ذبيحةً جديدة أفضل، هي ذبيحة نفسه (٩/١١-٢٢، ٢٤-٢٦)؛

٣". ثمّ مبلّغاً إلى الكمال، من جهة ثالثة، يحقّق ملء النعمة والمجد والخلاص الأبديّ (١٠/١٠، ١٤، ١٨)"[٣٨].

٣٤ . يسوع يعلو على موسى (عب٣/٣) **«فإنّه** (أي يسوع) **قد أُهِّلَ لمجدٍ يعلو مجدَ موسى، بمقدار ما كرامةُ باني البيت تعلو البيتَ الذي بناه».**

يعلّق شرّاح: "أخذ الكاتب.. يقارن يسوع بموسى، كما سبق فقارن يسوع بالملائكة: يسوع أسمى من الملائكة بما لا يُحَدّ، فبالأحرى هو أسمى من موسى.. يختلف دور يسوع عن دور موسى، ويعلوه، بأمرين: *الأوّل*، موسى أمين في بيت اللّه، أمّا يسوع فهو الباني بيت اللّه، منشئ الدهور (١/٢)؛ *والثاني*، موسى خادم، أمّا يسوع فهو الابن المكلَّل بالمجد والكرامة (٢/٧)، عن يمين الآب، بالقيامة من بين الأموات".

---

(٣٨) ص ١٠٢٢-١٠٢٢.

٣٥ . لم توصل الشريعــة إلى كمال شيء (عب ٧/ ١٨-١٩) **«١٨. إذنْ فتُبطَل وصــيّةٌ سابقة، بسبب ضعــفها وعدم نفعها، ١٩. لأنّ الشريعة ما بَلّغَتْ شيئاً كمالاً، ويُدخَل رجاءٌ أفضل، به نَقْتَرِبُ من الله»**[٣٩].

يقــول شــرّاح : هنا يشــدّد الكــاتب " على الضــعف والزوال الملازمَين للشــريعة القديمة، التي بمقــتضـــاها كان الكهنوت اللاويّ، مقــابل التعبير «وفق قــوّة حياة لا تزول» (٧/ ١٦)، صــار بمقــتضــاها كهنوت يســوع الحيّ القائم من الموت، وعظيم الأحبــار، الذي أدخل رجاء أفــضل، به يقرّب الناس من الله ".

٣٦ . ذبيحــة المسيح هي الــبديل (عب ١٠/ ٤-١٠) **«٤. فإنّ لَمِنَ المــستحــيل على دمِ ثيــرانٍ وتيوس أنْ يَمــحوَ الخطايا**[٤٠]**. ٥. لذلك يقـــول حين دخــوله إلى الــعــالم**[٤١]**: " ذبيــحةً وقــرباناً لم تشأ، لكنّك أعــددتَ لي جســداً**[٤٢]**"، ٦. وبمحرقاتٍ عن الخطيئة لم ترضَ.٧. حينئذٍ قلتُ: هاءنذا آتٍ،**

(٣٩) رَ: عبر ٤/ ١٦، ٦/ ١٨؛ ٩/ ٩؛ ١٠/ ١٩؛ ١١/ ٤٠.
(٤٠) شدّد الكاتب على فاعليّة ذبيحة المسيح وحدها، ويُعلن مبدأ إلغاء الذبائح الأخرى.
(٤١) حين دخوله إلى العالم أبطل بذبيحته ذبائح العهد القديم جميعاً.
(٤٢) في «الجسد» المعلّق على الصليب، تحقّقت تقدمة الذات الكاملة (عب ١٠/ ١٠)، والأمانة التامة لمشيئة الله (١٠،٧ و٩-١٠)، مكان الذبائح بحسب الشريعة.

فقد كُتب عنّي في درجِ الكتاب، لأعمَلَ بمشيئتك يا ألله. ٨. يقول أوّلاً: ذبائحَ وقرابينَ ومحرقات عن الخطايا لم تشأ ولم ترضَ، -مع أنّها تُقَرَّبُ وَفْقَ الشريعة- ٩. ثمّ قال: هاءنذا آتٍ لأعملَ بمشيئتك. فهو يُلغي الأوّل ليُثْبِتَ الثاني. ١٠. في هذه المشيئة قُدِّسْنا بقربانِ جسدِ يسوعَ المسيحِ مرّةً واحدةً[٤٣]».

يعلّق شرّاح: "شدّد الأنبياء الأقدمون على عدم فاعليّة الذبائح الخارجيّة[٤٤]. أمّا الكاتب (في هذه الرسالة إلى العبرانيّين) فيشدّد على فاعليّة ذبيحة المسيح وحدها، ويُعلن مبدأ إلغاء الذبائح الأخرى كلّها".

٣٧ . الغفران بذبيحة المسيح (عب ١٠/١٨)

«فحيث يكون مغفرةُ آثامٍ وخطايا، فما من قربانٍ بعدُ عن خطيئة!»

يعني: "أنّ الذبائح التي كانت تقرّب قديماً عن الخطايا، لم يعد لوجودها أيُّ مبرّر، لأنّها أُلغيت بقربانِ

(٤٣) مشيئة الله قوّة خلاص تقدّس المؤمن، أي تحرّره من الخطيئة، وتصيّره وقفاً على الله دائماً، لأنّها بادرة مجانيّة. تلك المشيئة وحدها كانت سبب إلغاء للعبادة اليهوديّة القديمة، من ذبائح وقرابين ومحرقات، وإثباتاً للعبادة الجديدة، وهي العمل بمشيئة الله، حتّى تقدمة الذات الحرّة بالموت قرباناً، كما فعل يسوع المسيح.

(٤٤) رَ: أش ١/١٠-١٧؛ إر ٦/٢٠؛ ٧/٢٢؛ ١١/١٥؛ عا ٥/٢٠-٢١؛ هو ٦/٦؛ مي ٦/٦-٨؛ مز ٥٠/٧-١٥، ٥١/١٨.

يسوع المسـيح، الذي قرّبه مرّة واحـدة، على الجلجلة، وهو يتواصل سرّياً في قربان الخبز والخمر الإفخرستيّ (١٠/ ١٨)، بفضل موت المسيح وقيـامته وجلوسه عن يمين الآب حيّاً شفيعاً إلى الأبد (١٠/ ١٤)".

***

خاتمة

بولس واليهودية

يوضح بولس رسـول الأمم ما جاء من أجلـه يسوع وما علّمَـه وعمله طوال حياته، فـأوجز وقال: «**لا بِرّ لي من الشريعة**» (في ٣/ ٩)، أي ليس من دينٍ تجـد فيـه الخلاص والبرارة والقداسة.

وقال أيضاً : «**أمّا الآن، فـبغَيـرِ شريعةٍ قـد ظَهَرَ بِرُّ الله**» (رو ٣/ ٢١) أي إنّ خلاص المؤمنين بيسوع وبرّهم لم ولن يكونا بالشريعة الموسويّة والدّين اليهوديّ.

وقال أيـضاً: «**إنّ غـايةَ الشـريعةِ إنّمـا هي المَسـيحُ**

تبريراً لكلّ مؤمن» (رو ١٠/ ٣). هذا كلام واضح كلّ الوضوح، أي إنّه، إذا كان من شريعة من عند اللّه، فغايتها إنّما هي تبرير المؤمنين وخلاصهم بواسطة الإيمان بيسوع المسيح، على أنّه المخلّص وابن اللّه.

وقال أيضاً: «**إنّ برَّ اللّهِ يُعلَنُ بالإنجيل**» (١/ ١٧)، أي إنّ التوراة وتعاليمها ليس فيها الخلاص، ولا التبرير، ولا القداسة، ولا معرفة اللّه الحقيقيّة. كلّ هذه أعلنتْ في إنجيل يسوع المسيح.

وقال أيضاً: «**ليس أحدٌ يُبَرَّرُ بأعمَالِ الشريعة، بل بالإيمان بيسوعَ المسيح**» (غل ٢/ ١٦). أي إنّ أعمال الشريعة وحفظ الوصايا وأعمال الإنسان، مهما كانت صالحة، لا تفيد الإنسان ولا تقدّسه إنْ لم يحلّ فيها الروح القدس، ويقدّسها ويقدّس فاعلَها.

هذه أقوال واضحة في الكلام على خلاص الإنسان بواسطة الإيمان بيسوع المسيح وحده. وهذا تفسيرٌ واضحٌ لما قال يسوع لتلاميذه: «**أقُولُ لَكُمْ: يَرْبُو بِرُّكُمْ عَلَى بِرِّ الكَتَبَةِ وَالفَرّيسيِّين، أو لَن تَدْخُلُوا مَلَكُوتَ السَّمَوَات**» (متى ٥/ ٢٠)، أي إنّ خلاصهم وتبريرهم لن يكونا بواسطة شريعة الكتبة والفرّيسيّين.

وهذا يعني أيضاً أنّ الذين يحافظون على الشريعة ليسوا كاملين، لأنّ الشريعة لا تستطيع أن تصيّرهم كاملين، أو أن تبرِّرهم، «**لذلك، لن يُبَرَّرَ أحدٌ أمامَه بأعمال الشريعة**» (رو ٣ / ٢٠)؛ أي إنّ أعمال الإنسان، في ذاتها، غير صالحةٍ للتبرير؛ إنّما الإيمانُ بيسوع المسيح وحدَه يضمن تبريرَ الإنسان. وما كان للشريعةِ من دور فهو إظهار الخطيئة الكامنة في قلب الإنسان (رو ٧ / ٧). وبرّ الله ظهر بالمسيح لا بسواه.

ومتى كان التبرير بالمسيح فلا بدّ من أن يُحدث في الإنسان انقلاباً داخليّا، حياةً جديدةً، منزَّهةً عن الخطيئة. والله يَدين البشر، لا على أعمالهم ومحافظتهم على الشريعة، بل على إيمانهم بالمسيح الذي يجعلُ حياتهم كلّها مقدّسة، وأعمالهم كلّها حسنة، أي مشتركة بأعمال المسيح الخلاصيّة. أي أن تصبح أعمالُهم وأعمالُ يسوع المسيح سواء بسواء.

ثمّ ذهب بولس إلى أبعد من ذلك، فلامَ الغلاطيّين ملامةً شديدة، واتّهمهم بالغباء والجهل. قال: «**أيّها الغلاطيّون الأغبياء!.. شيئاً واحداً أريد أن أعرفَ منكم: أمِن أعمالِ الشريعةِ قَبِلْتُمُ الرّوحَ، أم مِن سماعِ الإيمان!!! أهكذا**

أنتم أغبياء!!؟» (غل ٣ / ١-٦).

هذا التوضيح البولُسيّ لأعمال الشريعة وتعاليم التوراة والأنبياء لا يزال في خطّ يسوع في تعاليم المجابهة بين "ما قِيل لكم... وما أقول لكم".

ذروة الطعن بالشريعة والدِّين، إذاً، هي عند بولس الرسول، الذي انقلب على اليهوديّة انقلاباً جذريّاً، كاملاً، ونهائيّاً؛ وقلب معه العالمَ كلّه، إلى أن جاء الإسلام وأعادنا إلى تلك الشريعة القديمة التي كانت قد انتهتْ بالمسيح.

ولكن، بعد الإسلام، جاءت الدرزيّة فنقضت الشرائع والأديان السابقة. هكذا عرّفت الحكمة الدرزيّة عن حمزة، نبيّ الدروز، بقوله عن نفسه بأنّه «ناسخُ الأديان، وقاتلُ الإبليس والشيطان، ومهلكُ العجلِ (محمّد) والشيصبان (علي)»[٤٥]. وعرّف عن نفسه بقوله: «أنا مُهدِم القبلتَين، ومُبيدُ الشريعتَين ومُدحِضُ الشهادَتين»[٤٦].

---

(٤٥) الشيصبان من أسماء الشيطان الرجيم (لسان العرب / شصب) وهو، عند الدروز، لقب «الأساس»، أي علي بن أبي طالب (الدرر ص ٣٣ / شصب)؛ راجع كتاب «العجل والشيصبان»، سلسلة الأديان السرّيّة، رقم (٤)، سنة ١٩٨٥.

(٤٦) «القبلتين» يعني: مكة وبيت المقدس. «الشريعتين» هما شريعة محمّد والتنزيل، وشريعة عليّ والتأويل. «الشهادتين» أي: "أشهد أن لا إله إلاّ الله"، ثم "أشهد أنّ محمّداً رسول الله". انظر رسالة ٢٢ / ٢٤٣، ٣٤ / ٢٤٨ الخ...

هذه المهمّة التي قام بها بولس، وعُرف عنه ذلك، تعني أكثر ما تعني أنَّ الشريعة اليهوديّة قد انتهتْ، وانتهى دورُها. ولا يمكن لإنسانٍ أن يخلص بها. إنّما الخلاص لن يكون إلاّ بيسوع المسيح، الطريق الأوحد إلى اللّه.

خاتمة القسم الأوّل

منذ عهدها الرسوليّ، كان على الكنيسة أن تحدّد نظرتها إلى العهد القديم، وأن تأخذ موقفاً منه :

هل أتمّ يسوع، برأيها، انتظار العهد القديم؟ وهل بقي من العهد القديم شيء جوهريّ لم يتمّه المسيح؟ وهل تمّ منه شيء على خلاف ما كان منتظراً؟

منذ البدء، انقسم الرسل إلى فئتين: فئة تقول بضرورة العهد القديم، وبضرورة تطبيق الشريعة الموسويّة، لكي يكون المسيحيّ كاملاً؛ وفئة تقول إنّ الإيمان بيسوع المسيح يكفي للخلاص.

الفئة الأولى سمّوا يهوداً متنصّرين؛ والفئة الثانية سمّوا مسيحيّين. هؤلاء يأخذون بتعاليم بولس رسول الأمم؛ وأولئك يأخذون بشريعة موسى كشرط للإيمان بيسوع المسيح.

واستمرّ الخلاف طويلاً في تاريخ الكنيسة، حتّى جاء الإسلام وطبّق شريعة اليهود-المتنصّرين. هؤلاء سمّوا في الإسلام «نصارى»؛ وأولئك لم يعرفهم الإسلام، وهم المسيحيّون الذين يؤمنون بالمسيح إلهاً مخلّصاً لجميع البشر.

***

مسيحيّون كثيرون يرفضون جمْعَ العهد القديم مع العهد الجديد. ولهم حججهم.

وكثيرون أيضاً مَن يجمعونهما معاً. ولهم حججهم أيضاً.

ولستُ بغير حذَرٍ من الفريقين:

لستُ مع الرافضين رفضاً مطلقاً، لأنّ في العهد القديم أيضاً مبادئ وتعاليمَ وتوجّهاتٍ وقيماً هي في غاية الروعة والإبداع. فهو، من أجل ذلك يستحقّ التكريم والتقدير. ويكاد بعض ما فيه يؤهّله لأن يكون إنجيلاً سابقاً للإنجيل الحقيقي.

هذا بالإضافة إلى أنّ العهد القديم هو البيئة الدينيّة والاجتماعيّة التي نشأ الإنجيل في كنفها. وكم من أمور لا

تُفهم في الإنجيل إنْ لمْ نعد بها إلى العهد القديم؟!

بالمقابل، لستُ مع الجامعين بين العهد القديم والعهد الجديد، على أنّهما متساويان متوازيان متكاملان بعضهما مع بعض. كما أنّي لست مع شريعة موسى وتعاليم التوراة على أنّها شرط للخلاص...

ومع ذلك جمع المسيحيّون منذ البدء بين العهدَين، وفي ذلك عقيدة أساسيّة في تعاليم الكنيسة التي تعتقد أنّ المسيح جاء ليتمّم تعاليم الدّين اليهوديّ.

ولكن، شتّان ما بين الإنجيل والتوراة. لهذا لا يمكن جمعُهما وضمّهما في كتابٍ واحد، وتحت اسم واحد، أي «الكتاب المقدّس»؛ كما لا يمكن أن نفصل بينهما كأن لا علاقة بينهما، ولا استمراريّة لعمل الله في التاريخ.

إنّي آخذ بالعهد القديم على أنّه البيئة الفكريّة والدينيّة والثقافيّة والروحيّة والتاريخيّة والجغرافيّة للعهد الجديد. وعلينا أن نعرفه معرفة جيّدة لنتمكّن من معرفة العهد الجديد معرفةً جيّدة.

وفي الوقت ذاته، إنّي حذرٌ من العهد القديم، ليس إلاّ لأنّه ليس بمستوى العهد الجديد في شيء: فاللّه نفسه هنا

يختلف عمّا هو هنـاك، أي إنّ هويّة إله العهد الجديد ودورَه الخلاصي يختلف عن هويّة إله العهـد القديم وعن كثير من تعـاليمـه وتصرّفـاته مع شعـبه. فـالمسيح رفض تعـاليم الأحـبار والرؤسـاء اليهـود، وهم أيضـاً رفضـوه. ولذلك صلبوه.

وكذلك إنّ مـسيح العـهد الجـديد يختلف تمـاماً عن مسيح العهد القديم: المسيح في العهد الجديد هو «ابن اللّه»، والأقنوم الـثـاني من الثـالوث الإلـهيّ، أسـاس الإيمان المسيـحيّ برمّتـه؛ فيـما الثـالوث، في العهـد القديم، غـير موجـودٍ، بل يرفضـه رفضاً قـاطعاً، على أنّه رمـز الشرْك والكفر والإلحاد.

وكـذلك قلْ عن مـفـهـوم الكنيـسـة، والمعـمـوديّة، والإفخـارستـيّا، والأسـرار جمـيعـها، وقـيامـة الأموات، ومفهوم محبّة الإنسان للّه ولأخيه الإنسان.. وغير ذلك بما لا يُحصى من تعاليم جديدة كلَ الجدّة. وقد عُرفت المسيحيّة بهذا «الجديد». إنّها «الرقـعة الجديدة في ثوبٍ بالٍ»، على ما جاء في كلام يسوع في الإنـجيل.

❊❊❊

عليّ الآن أن أوضح أكثر معنى قولي بأنّ اللّه بريء من الأديان والمذاهب. فكلام يسوع كلّه في هذا الاتّجاه. والأناجيل والرسائل وأعمال الرسل وتعاليم الكنيسة الأولى كلّها تقوم على أنّ يسوع جاء لينقض ما جاء في الدِّين اليهوديّ، كما يرفض تماماً ما أعاده الإسلام من التوراة.

وهذا صريح واضح في الخصام الذي قام بين يسوع والأحبار اليهود، والنزاع القائم بين المسيحيّة والإسلام.. يسوع يريد الإنسانَ وخلاصَه؛ أمّا الأحبار اليهود فيريدون الشريعة الموسويّة ولو كان ذلك على حساب الإنسان. والمسيحيّة أيضاً تعتمد على محبّة اللّه للبشر، كلّ البشر؛ فيما الإسلام يريد الدفاع عن اللّه ولو على حساب البشر، كلّ البشر...

هنا تكمن المشكلة كلّها. وهنا نجد حقيقة ما من أجله كان يسوع، وكانت المسيحيّة، وكانت الكنيسة... وكلّما تقدّم الإنسان في حضارته وثقافته، كلّما وجد هذه الحقيقة تعلو وتثبت ولا حقيقة سواها بمستواها.

وقد نختصر المسيحيّة برمّتها على أنّها لا تعلّم ولا

تعـمل إلاّ لخـلاص حرّيّـة الإنسان من كلّ مـا يقـيّـدها من شرائع وأديان قضتْ على هذه الحرّيّة باسم الله.

***

إستناداً إلى هذه النظرة المسيحيّة الحقيقيّة، نتساءل دائماً عن معنى الدِّين؟ وعن معنى الحوار بين الأديان؟ وعن معنى شــتم الأديان والمذاهب والشرائع التي قيل عنهـا أنّها سماويّة، ولكنّها قضتْ على الإنسان وحرّيّته قضاءً كاملاً.

إنّنـي لم آتِ بشــيء من عندي، بـل كلّ شيء عـندي يســتند إلى مـواقف يسوع، وتــعاليم الإنجـيل والرســائل، وتعاليم الكنيسة وآباء الكنيسة.

لقد كان وقتٌ وضعتِ الكنيســة فيه شرائع وقوانين، وحدّدت عـقائد، ورســمت طقوســاً، وأقامت حـدوداً بين ما كانت تراه، حينَها، حقّاً وخطأً... لا ضير في ذلك. فالإنسان كان بهذا المستوى من الثقافة والتطوّر.

أمّا وإنّ الإنسان يتـقدّم ويتطوّر، والعالم ينقلب على ذاته انقلاباً سريعاً وجذريّاً، فـما على الكنيسة إلاّ أن تواكب التقدّم والتطوّر والإنقلابات المتسارعة؛ وإلاّ ليست هي لهذا العالم، ولا لهذا الإنسان.

من هنا نقول إنّ يسوع نفسه لم يؤسّس ديناً جامداً، ولم ينزّل كتاباً، ولم يسنّ شرائع وقوانين، ولم يحدّد حقائق وعقائد. إنّه لم يضع إلاّ شريعة واحدة هي شريعة المحبّة، أي محبّة الإنسان لأخيه الإنسان أوّلاً، ثمّ من خلالها، محبّة الله. ونقول أيضاً إنّ المسيح لم يؤسّس إلاّ كنيسة، مبنيّة على بشرٍ ضعفاء خاطئين، تواكب العالمَ في تطوّره والإنسانَ في تقدّمه، والعلم في مختلف مجالاته...

القسم الثاني

يسوع وحده دليلنا إلى الله

الفصل السابع

معرفة يسوع لله

ثمّة قولٌ بأنّ معرفة الإنسان لله معرفةً كاملة، هو احتقار لله، وانتقاص من مجده وسموّه؛ بل هو الكفر بعينه. فالإنسان لا يمكنه أن يعرفَ الله، ولا مشيئةَ الله، ولا كيف هو الله، ولا كيف لا هو. لا أحد يعرف الله إلاّ الله وحده، أو مَن كان اللهُ عندَه، أو مَن كان هو عند الله، أو مَن شاء له الله ذلك.

لهذا إنْ عرف المسيحيّون عن الله شيئاً، فلأنّهم يؤمنون بأنّ يسوع المسيح هو الذي عرّفهم عليه. ولهذا هم مسيحيّون. وهذا هو ركن إيمانهم، بل هو كلّ إيمانهم، في أن يعرفوا شيئاً عن الله بواسطة يسوع المسيح.

إنّ أبلغ ما نقرأ في الإنجيل قول يسوع لكلّ إنسان: **«ما مِن أحدٍ يعرِفُ الآبَ إلاّ الابنُ، ومَن يشاءُ الابنُ كشْفَه له»** (متى ١١/٢٧).

يعلّق شرّاح إونجليون على هذا الكلام بقولهم: "هذه الآية إحدى آياتٍ ثلاث (١١/٢٧؛ ٢١/٣٧؛ ٢٤/٣٦) يعبّر فيها يسوع عن صلته البَنَويّة الفريدة بأبيه[1].

يتّفق متّى ويوحنّا في ثلاث: في أنّ الآب آتى يسوع كلّ شيء (يو ٣/٣٥؛١٣/٣)، وفي استعمال «الابن» في المطلق ليسوع (يو ٥/١٩-٢٦؛ مر ١٣/٣٢)، وفي المعرفة المتبادلة بين الآب والابن (يو ١٠/١٤-١٥؛ ١٧/٢٥). هذا التشابه بين الازائيّين ويوحنّا دليل على طابعه الأصيل، وشهادة على إيمان الجماعة الأولى بألوهيّة يسوع "[2].

إنّ معرفتنا لله منوطة إذاً بيسوع المسيح وحدَه. فلا يعتدّنَ أحدٌ بأن يعرف شيئاً عن اللّه من دون يسوع المسيح. وكلّ مَن ادّعى معرفة اللّه من غير طريق يسوع المسيح ووساطته، فهو قد يعرف شيئاً، ولكن معرفة ناقصة جداً، بل قد تكون غير صحيحة، وقد لا تفيد شيئاً. وإنْ أفادتْ

(١) مر ١٤/٣٦، لو ٢/٤٩؛ ٢٤/٤٦، يو ٢٠/١٧

(٢) إونجليون، طبعة الكسليك، لبنان ١٩٩٢، حاشية على متى ١١/٢٧، صفحة ٩٠.

فإنّها تفيد بصيصاً ضئيلاً من نورٍ شاحب لا يُرى ولا يُعتدّ به.

ثمّ إنّ علاقتنا بالله ليست علاقة معرفة فحسب، بل بالأحرى هي علاقة محبّة، تماماً كعلاقة الطفل بأمّه. فهو لا يعرف عنها شيئاً البتّة. ولكنّها هي له كلّ شيء. ولهذا أعلنتِ المسيحيّة في إيمانها صارخةً: أنّ «اللّه محبّة»، أكثر ممّا هو «عقل»، أو «كائن»، أو «علّة»، أو «خالق»، أو «خير»، أو «كلّيّ القدرة»، أو غير ذلك...

ولذلك أيضاً بالغ يسوع في معرفته للّه وفي تعريفه للناس، وذلك في قوله: «**أظهرتُ اسمَكَ للناس**» (يو ١٧ / ٦)؛ لكأنّ الناس، قبل يسوع، لم يعرفوا اللّه، ولم يظهر اللّه لهم، ولا كان بإمكانهم أن يعرفوه من طريق آخر غير طريقه.

❊❊❊

لم يعد اللّهُ اليومَ موضوع شكّ، أو إلحاد، أو كفر، أو نكران... لأنّ اللّه الذي يطعنون به، طعن هو بنفسه من قبلهم. فهو ينكر تماماً كلّ المفاهيم التي يراها الملحدون في اللّه. هذا ولم يبقَ من المشكّكين والملحدين في العالم إلاّ معاندون، ليسوا جدّيّين في شيء.

ولم يبقَ أيضــاً من المعـانين من اللّه إلاّ باحـثـون لا يجدون له في حياتهم أيَّ دور، أو أيّة علاقة. فلا هم أبناؤه، ولا هو أبوهم. هو خلقــهم وهم اسـتقلّوا عـنه. وكلٌّ يسيـر بعيداً عن الآخر بُعداً شاسعاً.

قصّـتنا اليوم، مع اللّه، إذاً، ليست قصّــة وجوده، أو عدم وجــوده. فاللّه فـرضَ ويفرض وجودَه عـلى الإنسان بطرق عدّة : الوثنيّون، كالمتـديّنين، قالوا بوجوده، وإن كان كلٌّ على طريقته. الكلّ عرفوه كائناً كاملاً مُطلقاً، خالقاً، كلّيَّ القـدرة والعلم، أبديّاً أزليّاً، واحـداً أحداً، صـمداً. والبـعض عـرفه أيضــاً أباً محـبّاً رحـيمـاً ودوداً، يعتني بمخلوقـاته جميعها، ويحبّها إلى آخر حدود الحبّ...

ولكنّ المسيحيّين، المؤمنين بيـسوع المسيح، وحدَهم، عرفوا علاقة اللّهِ بهم، عرفوه مخـلِّصـاً، عرفوه محبّة كاملة، وعرفوه بأنّه رجاؤهم وأملهم، وحياتهم. فهو يسـعى إلى أن يُشركـهم في حياته، ويجـعلهم يسعَون إلى أن يتّـحدوا به اتّحـاداً كـامـلاً، من دون خـوفٍ من شـرْكٍ، أو من وَحـدةِ وجود، أو من حلول...

***

ليس لنا اليوم، مع وجود اللّه، في معتقدي، أيّ مشكلة. وجوده ليس موضوعَ إيمانٍ، أو موضوع كفر وإلحاد؛ بل هو موضوع خاضع للعقل وأبحاثه وأدلّته. فإله الوثنيّين وإله اليهود والمسيحيّين والمسلمين وغيرهم، إلهٌ موجود، ذو صفاتٍ لا يختلف فيها اثنان. إنّها صفات واحدة مشتركة بينهم جميعاً.

أمّا الخلاف في ما بينهم فهو على هويّة هذا الإله عند المسيحيّين وعلى دوره الخلاصي. اللّه، عند المسيحيّين هو موضوع إيمان، لا موضوع عقْل وأبحاث. لذلك هم يبدأون إيمانَهم ويعلنونه في أولى كلمات قانونهم: «نؤمن بإلهٍ»، لا بقولهم: «نعرف»، أو «نبرهن»، أو «نعقل»، أو «نستدلّ»... إله المسيحيّين يطلب منكَ إيماناً واستسلاماً، لا بحثاً عقلياً. فأنت إن بحثتَ عن وجوده فستجده فكرةً تريح عقلك، ولكنّها لا تزيل عنك القلق.

أنتَ لا تستطيع أن تبحث عن طبيعة اللّه، وماهيّته، وجوهره، ودوره... فأنت لن تعرف مَن هو؟ وكيف هو؟ وكم هو؟ ولماذا هو؟ وما عمله معنا وفينا؟ وهل هو قريبٌ أم بعيد؟ واحدٌ أم أكثر؟ ذكرٌ أم أنثى؟ في مكان أم في لا مكان؟ في زمان أم في لا زمان؟ أمُغلَق على ذاته أم منفتح على

غـيره؟ أصـامـدٌ لا يتغـيّـر أم هو يتغـيّـر؟ أحيٌّ أبداً أم أنّه يستطيع أن يموت؟ ألا يتعرّض للألم أم أنّه يتألّم؟..

إله المسـيحـيّين، لا تسـتطيع أن تعـرفَه بعـقلك. بل يقتضي لك إيمان. والإيمان يقتضي له مُـخبِر ومُبشّر. ومَن يُخبرنا عن اللّه غير اللّه ذاته، أو مَن كان عند اللّه، أو مَن هو مرسَلٌ من لدن اللّه؟!

ولقد أبدع بولس عندما ربط الإيمان بمبـشّر، فقال: «كيف يـؤمنون بمن لم يسمـعوا به؟ وكـيف يَسمـعون بلا مُنادٍ، وكيف يُنادون إنْ لم يُرْسَلوا» (رو ١٠/ ١٤-١٥).

***

لنذهب أبعد ونقـول: لا يجوز للمسيـحيّ أن يعرف اللّهَ بالاعتماد على ما توصّل إليه عقله، وبالاستناد إلى أدلّة أرسطو، أو توما الأكـويني، أو عمانويل كـانط، وسواهم... هؤلاء جمـيعهم يَدلّون على ما يـحتاج إليه عـقلُنا في شأن اللّه، لا على مَن هو اللّه في حقـيـقـته. لذلك قـال يسـوع: «أظْهَـرْتُ اسْمَـكَ للْنّاس» (يو ١٧/ ٦). فلكأنّ الناس، حـتّى زمن يسوع، لم يعرفوا بعدُ شيئاً عن اللّه.

ولكن مـاذا يعني هذا؟ ألم يكن الناس، قـبلَ يسـوع، يعرفون اللّه؟ أم أنّهم كانوا يعرفونه على غير ما عرّفهم هو

عليه؟ وهل الأنبياء الذين سبقوا يسوع لم يكشفوا للناسِ عن ذات اللّه؟ أم أنَّ الناسَ لم يسمعوا للأنبياء؟

أليس قول يسوع هذا هو قولٌ مشكِّك، مثير للدهشة والاستغراب؟! أم أنّه كقولِ أنبياء ورسلٍ سبقوه فقالوا مثلّما قال؟ وهل هذا القول هو من جملة الأقوال التي عليها استحقَ يسوع الجَلْدَ والعذابَ والصلبَ والموت؟!

إنّي أميل إلى أنّ هذا القولَ هو قول الحقيقة، ولو هو قولٌ غيرُ مألوف، بل قول مشكِّك، وقد يستحقّ عليه قائلُه ما استحقّه يسوع من جَلْدٍ وعذابٍ وصلبٍ وآلامٍ وموت.

وإليكم توضيح ذلك:

١. هذا القول يعني أنّه ليسَ بوسعِ إنسانٍ أن يعرفَ اللّهَ من دون يسوع. أي لا يسعُ إنسانًا -مسيحيًا بنوعٍ خاصّ- أن يدّعي الوصول إلى الآب، كما يقول القدّيس بولس، «لأنّا بِهِ -أي بيسوع- نِلْنَا الوُصولَ إلى الآب» (أف ٢/ ١٨).

ليس من مسيحيٍّ يحقّ له معرفة اللّه بغيرِ الوسيط الوحيد الذي هو يسوع. ولا مسيحيَ يستطيع أن يدركَ اللّهَ، أو أن يَدلَّ عليه، أو يبرهنَ عنه، أو يصلَ إليه، إلاّ

بواسطة يسوع. فيسوع المسيح هو الدليل على اللّه والطريق إليه، و«به نَقتربُ مِنَ اللّه» (عب ٧/ ١٩)؛ «فهوَ قادرٌ أنْ يُخَلِّصَ الّذينَ بِه يُقْبِلُونَ إلى اللّهِ الخلاصَ كلَّه، لأنَّه حيٌّ على الدَوام لِيَشْفَعَ لهم» (عب ٧/ ٢٥)، «وهو مَاتَ من أجلِكُم ليُوصِلَكُم إلى اللّه» (١ بطر ٣/ ١٨)، و«الوصول بثقة» (أف ٣/ ١٢).

٢ . وهذا يعني أيضًا: أنّ كلَّ برهانٍ على اللّهِ عن غير طريق يسوع باطل، لا قيمةَ له. أي: لا الأدلّة العقليَّة، ولا الأدلّة الطبيعيَّة، ولا الأدلّة الأدبيَّة... ولا أي شيء غيرُ الوسيط الوحيد يسوع المسيح، يستطيع أن يكونَ طريقنا إلى اللّه، أو دليلنا عليه. والمسيحيّ، الذي يستدلّ على اللّه من غيرِ طريقِ يسوع، هو كلّ شيء ما عدا أن يكونَ مسيحيًا؛ لأنّ المسيحيّ هو، أوّلاً وآخراً، مَن عرفَ اللّهَ بواسطةِ يسوع المسيح. والذي يدّعي أنّه يعرفُ اللّهَ من دون يسوع يطعن باللّه، وبيسوع نفسه، ويطعن أيضاً بكلِّ ما من أجله كان يسوع.

٣ . لنوضح أكثر: يستطيع الوثنيُّ، أو اليهوديُّ، أو المسلمُ، أو أيُّ إنسانٍ آخَر، أن يستدلَّ على اللّهِ مِن غيرِ طريق يسوع؛ إلاّ أنّه يستدلُّ بذلك على كائنٍ مطلَقٍ، بعيدٍ،

متعال، كلّيّ الكمال والقدرة والعلم، خالقِ السماوات والأرض، لا يَحُدُّه مكانٌ ولا زمان، ولا يخضع لمتغيّراتِ الكون. إنّه كاملُ الصفات، استلّها العقلُ من الكائنات، وأوجدها، بالمماثلة والمقاربة، في كائنٍ أسمى، اسمه اللّه.

٤ . هذه الكمالات السامية قد تفيدنا، من دون شكّ، في معرفةِ وجودِ كائنٍ أسمى، ولكنّها لا تفيدنا في تعيينِ شخصيّةِ هذا الكائن، ولا في تحديدِ هويّتِه، ولا في معرفةِ علاقتِه بنا أو علاقتنا به. إنّنا، مع هذا الكائن، وكأنّنا مع «كائنٍ ما» يتّصف بكلِّ الكمالاتِ؛ ولكن، من دون أن يعني «شخصًا معيّناً»، يقيم له معنا علاقةً ما. هو «كائن» قد لا يهمّنا أمرُه، ولا يهمّه أمرُنا، ولا يعنينا وجودُه أو عدم وجوده في شيء.

ولكن، إذا قلنا إنّ هذا «الكائن» المتّصف بهذه الكمالات هو «أب» لنا، أو «أخ»، أو «ابن». عندئذ نعرف أنّ هذا الشخص يعني لنا أمراً ما. إنّه كائنٌ مميَّز، وليس كائنًا ما. لنا به صلة، وله معنا علاقة، هي علاقة محبّة.

مثل هذه العلاقة هي، في الحقيقة، من جوهر هذا الشخص المعيّن، وليستْ عَرَضاً دخيلاً عليه. فالأب بكونِه أباً، أصبح بهذه العلاقة معنا، وكأنّه شخصٌ يخصّنا،

يعنينا، يتعاطف معنا، ويُحبّنا ونحبّه...

٥ . هكذا نقول عن اللّه؛ فهو، في الاستدلال عليه من غير طريق يسوع، كائنٌ غيرُ مميَّز، ولا علاقة لنا به، ولا يعنينا أبداً، ولا يهمّنا أمرُه، ولا يهمّه أمرُنا. هو لا يفيد، أكانَ موجوداً أم غيرَ موجود، أكان كلّيَّ الخيرِ والكمال، أم أيَّ شيء آخر...

يسوع، وحدَه، حدّد اللّهَ، وعيّن علاقتَنا به، ورسم موقعَنا بالنسبة إليه، وعرّفَنا بشخصه ودوره. إنّه أب محبّ عطوف رؤوف حنون، يهمُّه أمرُنا، يعمل على خلاصنا. يسوع، وحده، «أظهر اللّهَ للناس»، و«كشفَ لهم» عن هويّته المحبّة، وعن حقيقته الأبويّة.

٦ . ينتج من ذلك: أنّ ما يقوله الوثنيّ واليهوديّ والمسيحيّ والمسلم وغيرهم عن اللّه إنّما هو قولٌ صحيح. وتأتي صحّتُه من منطقِ القولِ بواجبِ وجودِ كائنٍ مطلقٍ، خالقِ الكون... ولكن هو، بالنسبة إلى المسيحيّ، قولٌ ناقصٌ، بل تافهٌ لا معنى له؛ بل هو عَودٌ إلى الوراء. هو كحالِ مَن ترَكَ أبوّةَ أبيهِ وعلاقتَه المميَّزةَ به ليعودَ إليه إنساناً لا علاقةَ له به، ولا يعرفه إلاّ إنسانًا كسائر الناس، له صفاتٌ إنسانيّةٌ عامّة.

فأيُّ أبٍ هو ذاكَ الذي لا يتميَّز، بالنسبة إلى بنيه بشيء؟! وأيّ إلهٍ هو ذاك الذي لا يتّصف إلاّ بصفاتٍ عامّةٍ ومطلقة؟!

٧. إذا كان على اليهوديّ والوثنيّ والمسلم وغيرهم أن يبحثوا عن اللّه بواسطة العقل والحكمةِ البشريّة، على ما قال بولس الرسول (١قور١/١٩؛ رو ١ /٢٢)، وهو أمر جائز بالنسبة إليهم؛ فإنّه، على المسيحيّ، أن يبحثَ عن اللّهِ على نور يسوع وعن طريقه، وهذا أمرٌ لا يجوز لغيره.

لهذا نقول: إنّ معرفةَ اللّه الطبيعَيةَ، وعلى نور العقل، ليست في الحقيقةِ إلاّ معرفة تعالجُ قلقَ عقل الإنسان حيال أسرار الكون وألغازه. وبهذا فضلُ الباحثين عن أسبابِ الكائنات وعللها. وهو ما توصّلتْ إليه «الأديان» و«الفلسفات» و«الأبحاث» جميعها.

أمّا معرفة المسيحيّين للّه فليستْ إلاّ من طريق وحيد، هو يسوع المسيح وبواسطته؛ لأنّها إنّما هي معرفةٌ لجوهرِ اللّهِ وعلاقتِه بنا وعلاقتِنا به. وهذا هو الذي جاء يسوع من أجله.

فهل يجوز، بعد ذلك، لمن عرف اللّهَ أبًا ومخلِّصًا، وأقامَ معه علاقةً بنوّةٍ حقيقيّة، أن يعودَ إلى الوراء؟! هل

يحقّ لمن عرفَ أنّ بينَه وبينَ اللّهِ عـلاقةَ أبوّةٍ وبنوّةٍ أن يكونَ موقفُه كموقفِ الإبنِ الذي لا يعرف بينَه وبينَ أبيه إلاّ علاقةً إنسانيّة طبيعيّة عامّة فحسب؟!

٨ . إنّ الذين عرفوا اللّه بواسطةِ يسـوع دخلوا حقّاً في سرِّ اللّه. وها هم يسمعونه يقول لهم: «**إنّي عَرّفْتُكُمْ كُلّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي**» (يو ١٥ / ١٥). ولهذا نقول: ليستْ قوّةُ إيمانِنا باللّه مـستـمَـدَّةً مِن منطقِنا ومن الحكمـة البشـريّة والأدلّةِ العـقليّة؛ بل من وسـاطة يسـوع المسيح ونعـمتـه، بكونِه الإبنَ الأوحد الذي فيه ظهرتْ مـحبّةُ اللّهِ للبشر (طي ٣ / ٤). كـمـا وإنّ خـلاصَنا ليس «بِأعْـمَـالِ بِـرٍّ عَـمِلْنَاهَا» (المرجع نفسـه)؛ بل بعملِ يسوع الذي جـدّدنا بروحٍ قدُسٍ. فهل على المسـيحيِّ، بعدَ هذا، أن يعـودَ إلى العقلِ وبراهينه ليعرفَ سرَّ اللّهِ مِن وراء ظهرِ يسوع أو من دونه؟! إنّه لأمرٌ عجَبٌ ومرفوض.

٩ . مـثل هذا التـعليم عـبّرتْ عنه أقـوال ومـواقف عديدة في العـهد الجديد: لقد قال يـسوع بوضوح: «**مَا مِن أحَدٍ يَعْرِفُ الآبَ إلاّ الإبْنُ، ومَن يَشاءُ الإبنُ كشْفَه له**» (متى ١١ / ٢٧)، وقـال: «**الإبن الأوحـدُ اللّهُ، الكـائنُ في حـضنِ الآبِ، هُوَ هُوَ خَبّر**» (يو ١ / ١٨). يسوع وحـدَه شاهدَ وجهَ

اللّه، لأنّه ابنُ اللّه؛ ويسـوع وحدَه تكلّم عن اللّه وخـبّر، لأنه كلمةُ اللّه الموجود في حضنِ الآب منذ الأزل وإلى الأبد.

١٠ . هذا الكلام الرائع يوضحه ويؤكّده كلام آخر: «**مَـا مِن احَدٍ رأى الآبَ إلاّ الّذي مِن لدن الآب. فـهو قَـد رَأى الآب**» (يو ٦/ ٤٦). أمّـا غيـر يسوع، مـهـما كـان وضعُـه ومقـامُه وموقعُـه من اللّه، ومهمـا كانتْ قداسـتُه وبرارته ومكانته، أكان نبيّاً ملهَماً، أم رسـولاً غيوراً، أم ملاكاً مقرَّباً، أم رائياً صاحبَ إيحـاء وإلهام، فلا يستطيع مـشاهدةَ وجهِ اللّه؛ وبالتـالي لا يستطيع أن ينقلَ إلينا عـن طبيعـةِ اللّه أيّةَ صورةٍ حقـيقيّة، ولا يستطيع أن يقدِّم لنا أيّ دليل مـقبول؛ ذلك لأنّ الفـرقَ بين مقدورِ عـقلنا وبين طبـيعة اللّـه شاسعٌ جدّاً جداً. ولا مجال معه للاستدلالِ على أيّ شيء.

١١ . ومـثله قـول آخر ليـسـوع: «**أنا أعـرفُه** (أي الآب)، **لأنّي مِن لدُنْه جِئتُ. وهو أرسلني**» (يو ٧/ ٢٩)، أمّا العالَم فلا يعرِفه. هذا هو واقعنا مع اللّه : نحن، بكوننا أبناء هذا العالَم، لا نستطيع أن نعرفَ اللّه: «**أنتم لا تَعرفونَه**» (يو ٨/ ٥٥). كـلام واضـح: نـحن لا نعـرف اللّه، لأنّنـا لم نكن عنده، ولأنّنا لن نسـتطيع من ذات طبعنـا معرفـة أيّ شـيء عنه، ولأنّنا غيرُ قـادرين على أن نعرفَه: «**مَن هُو في حضنِ**

الآب هو هو خبّر»، هو هو شاهدَ اللّه وجهاً لوجه وعرفه: «**ما عَرَفكَ العَالَم... وَعَرَفْتُك أنَا**» (يو ١٧ / ٢٥).

١٢ . «**قد عرّفتهم اسمَك وسأعَرّف**» (يو ١٧ / ٢٦).

هذا كلامٌ آخر ليسوع يتحمّل فيه مسؤوليّة معرفتنا للّه. إنّ أتْباعَ يسوع ليسوا هم الذين تعرّفوا على اللّه بأنفسهم؛ بل يسوع هو الذي خبّرهم. ويسوع يكمّل مهمّته هذه حتى نهاية العالَم؛ لأنّه، يومَ يكفّ عن متابعة عمله «التَّعْريفي» هذا، وعن تدريب أتباعِه على «المعرفة»، يكفُّ هؤلاء عن المعرفة الحقيقيّة للّه. يسوع يواصل عمله، وإلاّ كان عملُه موقّتاً، أي ناقصاً، وبالتالي لا معنى له... لهذا فيسوع حاضر لمهمّته ومواظِبٌ عليها إلى مدى الدهور.

١٣ . نستنتج ممّا سبق فنقول: إنّ اللّه كشَفَ لنا عن نفسه، بطريقةٍ نهائيّةٍ في شخصِ يسوع. وفي ذلك لم يبقَ له شيء يحتفظ به لنفسه. «**فالّذي ما ضنّ بابنِه نفسِه.. كيفَ لا يُنعِمُ علينا معه بكلِّ شيء!**» (رو ٨ / ٣٢). «**والسرّ المكتوم منذ الدهور كُشِفَ الآن.. بيسوع. وبيسوع نبَشر، ونعلّم، ومن أجله نجاهد.. لكي نجعلَ كلَّ انسانٍ في يسوع كامِلاً**» (قول ١ / ٢٧-٢٨).

ففي «**سرّ اللّه هذا أعني المسيح**» نجد «**غنًى ملءِ اليقينِ والفهمِ المكنونةِ فيه كنوزُ الحكمةِ والمعرفةِ كلُّها**» (قول ٢/٢-٣). «**فحَذَارِ أن يَخلِبَكُم أحدٌ بالفلسفة**» (قول ٢/٨)، أي بالحكمةِ البشريّة، والبراهين العقليّة؛ بل بيسوع وحده، الذي به أصبحَ اللّهُ في متناوَلِنا.

١٤ . نقول أخيرًا: إنّ أقوال يسوع بأنّه هو هو الذي «خبّر عن الآب»، و«أظهر اسمَه للنّاس»، و«كشفه لمن يشاء»، وغيرها من أقوال ممثالة عديدة، إنّما هي تعني أنّ أحدًا غير يسوع لم يُظهر اللّه للناس، ولم يخبر عنه. وكأنّها أقوالٌ تطعن في الحكمة البشريّة، وفي الأدلّة العقليّة، وتطعن في تعاليم الأقدمين، وفي تقاليد السابقين، وفي كلّ الأديان التي يدّعي أنبياؤها معرفةَ اللّه.. هذا هو الغريبُ، المشكِّكُ، المثيرُ للإعجابِ.

١٥ . والأغربُ من كلّ هذا، أنّ المسيحيّ الذي يؤمن بيسوع قد لا يجوز له، بعد إيمانه هذا، أن يعرفَ اللّهَ إلاّ عن طريق يسوع؛ لأنّ يسوع هو «الوسيط الوحيد» بيننا وبين اللّه.

هذه المعرفة الإلهيّة التي تحصل لنا بواسطة يسوع، وحدَها جائزةٌ لنا... ومَن يقول إنّه يعرف اللّهَ من غير

وساطة يسوع، لم يدخل في ســرِّ اللّه بعدُ، ولا ينتمي لا إلى المسيـحيَـة ولا إلى الكنيســة. أوَليس في هذا ظنٌّ بأنَ بعضَ المسيحيّين اليومَ يريدون مـعرفةَ اللّه من دون يسـوع، ومن غير طريقه! فهل هم مسيحيّون حقّا؟! يُخشى أن يكونوا كلَّ شيء ما عدا أن يكونوا مسيحيّين.

***

نستنتــج ممّا قلناه أنّ طريقَنا إلى الـلّه هو يســوع المسيح وحده، لا أيّ نبيٍّ، أو ملاكٍ، أو أيّة واسطة أخرى، أو أيّ عـقـيــدة، أو شـريعــة، أو دين... لهــذا نقـول: لا دين للمـسيـحيَ يدلّه على الـلّه، بل له يســوع المسيح وحــده لا سواه؛ ولا شـريعة مـفروضـة عليـه وواجبة غـير شــريعة المحبّة.

الفصل الثامن

مَن هو يسوع بالنسبة إليّ؟

لمْ يَحِنِ الوقت، بعدُ، لأجيب على سؤال طرحه يسوع، يوماً، على تلاميذه : «**مَا يقولُ النّاسُ فيّ؟ مَن أنا؟.. وأنتم ما تقولون فيّ؟ مَن أنا؟**» (مر ٨/٢٧-٢٩).. ذلك، وبكل بساطة، لأنّي لم أصِلْ، بعدُ، إلى متابعة التلاميذ ليسوع؛ ولم أتشرّف برفقته؛ ولم أبلغِ الخبرةَ الكافية، ولا الإيمانَ القويّ، ولا المعرفة المبتغاة.

ومع هذا، لن أقولَ مع مَن قال له : «إنّكَ يوحنّا المعمدان، أو إيليّا، أو إرْمِيا، أو أحد الأنبياء».

ولن أقول أيضاً: إنّكَ «المسيح» بالمعنى اليهوديّ التّوراتيّ التقليديّ، حيث للمسيح دورٌ وطنيّ سياسيّ، هو تحرير شعبه من طغيان الرومان.

ولن أقـولَ مع مَن يقـول اليـوم : إنّكَ قـائدٌ بطلٌ، أو معلّمٌ صاحبُ عقـيدة، أو مؤسِّسُ حركةٍ عالميّـة، أو مشترعٌ يسنّ الدساتير والقوانين والأنظمة للبشريّة.

ولن أقـولَ مع مَن يقول اليـوم وغداً : إنّك مـؤسّسُ دينٍ، أو منشـئُ مـذهب، أو منزِّلُ كـتبٍ من السـمـاء، أو إنّك ملاكٌ من عند الله، أو نبيّ رسولٌ من ربِّ العالمين، أو أركونٌ من أراكين الأرض والسماء...

حـاشاكَ من كلّ ذاكَ حـاشاك. وإنْ كنتُ أتبـعك من أجل ذلك فأنا صالبُكَ من جديد، وأنتَ منّي بريء.

إنّ أيَّ قـولٍ من تلك الأقوال يـجعلك كـشـيخ قبـيلة وزعيمِ عشيـرة؛ ويحتّم عليك أن تصنّف الناسَ، بين مَن هم معك ومَن هم ضدّك، أو بين مـؤمنينَ بك ومنكرين لكَ... وما عدْتَ، بالتالي، إنساناً مثالَ كلّ إنسان، أو مخلِّصاً يعمل على خلاص الناس أجمعين.

فـعليـه، والحـال هذه، لا يمكن أن يكـون يسـوع، بالنسبة إليّ، إلاّ ذاك الإنسان مثال كلّ إنسان، وذاك المخلّص الذي يعـمل على خـلاص كلّ الناس. إنّه الإنسـان المثـالي، الذي لا يميّز في حسابه أحداً: بـارّاً كان أو خاطئاً، مؤمناً أو كافراً، يهودياً أو وثنيّا، عبداً أو حرّاً، رجلاً أو امرأةً...

لقد علّم يسوع ذلك، وعمل ذلك، وجاء من أجل ذلك. لقد قال في ما قال: «**إنّ الله محبّة**». و«**عليكم أنْ تُحبّوا بعضكم بعضاً**».

وعلّم أيضاً أنّ محبّة الإنسان، بالنسبة إليه، تكون **أوّلاً** ثمّ محبّة الله ثانياً؛ ذاك لأنّ الإنسانَ هو الواسطة إلى اللّه؛ والواسطة تكونُ، في الزمن، قبل الغاية.

عن هذه **الأولويّة**، علّم يسوع قائلاً: «**إنْ جِئتَ تُقرّبُ على المذبحِ قربانَك، وذكرتَ لأخيكَ شيئاً عليكَ، فدعْ هنالك قربانَك، وبادرْ فصالِحْ أوّلاً أخاك. ثمّ عُدْ وقرّبْ قربانَك**» (متى ٥/٢٣-٢٤).

هذا التعليم فريدٌ، بل غريبٌ عن منطق الأديان والمذاهب والفلسفات جميعها. إنّه يعني: أترك القربانَ والمذبحَ والهيكلَ، واتركِ اللّهَ نفسَه... واذهبْ إلى أخيكَ، **أوّلاً**، صالحْه، أحببْه، إغفرْ له، تُبْ إليه... ثمّ تعالا معاً، أنتَ وأخوك، إلى اللّه. فيكون اللّه معكما[1].

يكفيني من يسوع هذا التعليم لكي أكون معه، وله: محبّة الإنسان **أوّلاً** ثمّ محبّة اللّه ثانياً.

(١) ر: متى ١٨/٢٠.

حياة يســوع، وتعاليمُه، وأعمــالُه، وسلوكُه، وحتّى موتُه، كلُّها تعلّم ذلك وتؤكّده :

١ . مَن من البشر يلتــمس من اللّه أن يغفر له، وهو لا يغفر لأخيه؟! إنَّ اللّهَ لن يغفر له أبداً[٢].

٢ . وهل يكون إنسانٌ صادقــاً إنْ قال إنّه يُحبّ اللّهَ وهو يبغض أخاه؟ «**إنْ قال أحدٌ: إنّي أحِبُّ اللّه، وهو يُبغض أخاه، كــان كذّاباً. فمَن لا يُحِبُّ أخاه الذي يراه، لا يَســعُه أنْ يُحبَّ اللّهَ الذي لا يراه**» (١يو ٤ / ٢٠). هنا نحــن في قــمّــة منطق المسيحيّة.

٣ . وأيّ صــلاةٍ أعظم من هذه التي تقــول: «**وَاعْفُ عَنّا ذُنوبَنا عفْــوَنا عمَّن أذنبَ إلينا**». فالمعادلــة واضـحة: «**إنْ تَغْفِـروا للنّاس يَغْفِرْ لكـم أبوكم السّماوي. وإنْ لمْ تغْـفِروا للنّاس فأبوكم لن يَغْفِرَ لكم**»[٣]. فمغفرة اللّه للإنسان رهنٌ إذاً بمغفرة الإنسان لأخيه الإنسان. فهذه تتقدّم على تلك.

٤ . و«**مَن يقــولُ إنّه في النّور، وهو يُبــغض أخَــاه، فهو حــتّى الآنَ في الظلمة... وفي الظلمة يَســير**» (١ يو ٢ / ٩–١١)؛ أي مَن يحبّ أخــاه يكون في النور؛ ومن يبــغضــه

(٢) أنظر مثل العبد القاسي في متى ١٨ / ٢٣–٣٥.

(٣) متى ٦ / ١٢ و١٥

يكون في الظلمة. النور والظلمة لا يلتقيان، كذلك الحبّ والبغض لا يلتقيان في قلب الإنسان المؤمن بمحبّة اللّه له.

٥ . **«هذه هي البُشرى: أن يُحبَّ بعضُنا بعضاً.. نحن نعلم أنّا انتقلْنا من الموت إلى الحياة، لأنّا نُحبُّ الإخوة. مَن لا يُحبُّ يمكُثُ في الموت. كلُّ مَن يُبغِض أخاه يكون قاتلاً. وتَعلمون أنّ كلَّ قاتلٍ لا حياة أبديّةٌ له ثابتةٌ فيه. بهذا عرفنا المحبّة: أنّ المسيحَ جادَ بالنفس في سبيلنا، ونحن أيضاً علينا أن نجودَ بالنفس في سبيل الإخوة»**[٤].

٦ . هذا هو الإنجيل، أي البشرى السارّة. وهذه هي تعاليم المسيحيّة، من هنا تبتدئ وإلى هنا تنتهي. ولا تعاليم سواها بمستواها. هذا ما يعني أنّ الحياة، هنا وهناك، إنّما هي في المحبّة؛ فيما الموت والهلاك يكونان في البغض. البغض إذاً هو القتل بعينه، أي هو الموت والهلاك. والإنسان الذي يبغض أخاه هو قاتل؛ ويسوع، في ذروة مهمّته وحقيقة رسالته، سلّم نفسه ومات بإرادته ليحيا الإنسان.

٧ . **«اللّه محبّة، ومَن يثبُتُ في المحبّة يَثْبُتُ في اللّه، واللّهُ يثبتُ فيه... نحنُ نُحبُّ، لأنّه هو أحبّنا أوّلاً»**[٥].

(٤) رسالة يوحنا الأولى ٣/ ١١-١٦.

(٥) رسالة يوحنا الأولى ٤/ ٧-٢١.

الله الذي جاء يسوع يعرّفنا عليه هو «محبّة». إنّه يُحبّ. لا يبغض. لا يكره. ولا يُهلك إنساناً، لأنّ الإنسان خليقته، وابنه..

٨ . والذين يرثون الملكوت هؤلاء هم الذين قال لهم يسوع: «**جُعْتُ فأطْعَمْتُمُوني، وعَطِشتُ فسَقَيتُمُوني، واغْتَرَبْتُ فآوَيتُمُوني، وعَرِيتُ فكَسَوتُمُوني، ومَرِضْتُ فعُدتُمُوني، وسُجِنْتُ فزُرْتُمُوني**».

ويسألُه الأبرار: «**متى رَأيناكَ، يا ربُّ، جائعاً فأطعمناك، أو عطشانَ فسقيناك؟ ومتى رأيناكَ غريباً فآويناك، أو عرياناً فكسوناك؟ ومتى رأيناكَ مريضاً، أو سجيناً، فزرناك؟**».

فيُجيبهم : «**الحقَّ أقولُ لكم: كلّما صنَعتُم هذا إلى أحدِ إخوتي الأصغَرينَ هؤلاء فبِيَ صنعتموه**».

أمّا الذين يذهبون إلى عذابٍ أبديّ فهؤلاء هم الذين لم يَصنعوا شيئاً من هذا إلى أحدٍ من هؤلاء الأصغَرين[٦].

٩ . هذه التعاليم الرفيعة رافقها تصرّفٌ أرفع : لقد «**كان يسوع يجوبُ الجليلَ كلّه.. ويشفي الشعبَ من كلّ**

(٦) متى ٢٥/٣١-٤٦.

مـرضٍ ووهْنٍ.. وشـفى كلَّ عليـلٍ جِيء به إليـه، كلَّ أنواع المرضى والمـوجـوعين: ممســوســين، ومــصــروعين، ومفلوجين»[٧].

إنّ معجزات يسوع مع الإنسـان، صنعها لا ليبرهن على مقـدرته بمقدار مـا أظهر من مـحبّة للإنسـان المسكين الذي قسا عليه المجتمع وظروف الحياة...

***

لستُ أتـبع يســوع إلاّ لأنّه علّم: «الإنســان **أوّلاً**».

ولستُ أتبعه إلاّ لأنّه لم يعمل إلاّ من أجل الإنسـان ومحبّته، لا من أجل اللّه أو أيّ شـريعة أو دين أو نبيّ، أكـان من عند اللّه أو من عند غير اللّه.

أقولها بوضوح تامّ: لا يُغريني من يسوع سوى أنّه جاء يخلّص الإنسـانَ من ظلمِ أخيـه الإنسان، أن يُعيـدَ إليه حرّيّتَـه التي سلبهـا منه الأنبيـاءُ والرسلُ باسم اللّه، والتي قـيّدَتْهـا الأديان بشـرائعـها. وإنّي عـلى يقينٍ بأنّ المسلوبَ باسمِ اللّه لا يُعيده إلاّ اللّه. لهذا كـان يسوعُ مُرسَلاً من عند اللّه، وسيطاً وحيداً بين اللّـه والإنسان، مخلّص الإنسان من

---

(٧) متى ٤/ ٢٣-٢٤؛ مرقس ١/ ٣٩؛ لوقا ٤/ ٤٤؛ ٦/ ١٧-١٨

قيود أخيه الإنسان، ومن شرائع الأديان. بل **هو المخلّص**...

وأبالغ في الوضوح لأقول: ليست المسيحيّةُ ديناً جامداً، ولا كتاباً منزَلاً، ولا شريعةً سماويّةً، ولا حقائقَ جاهزة، ولا مبادئ ثابتة، ولا عقائدَ محدَّدة، ولا قوانينَ جامدة، ولا طقوساً منتظمة، ولا نبوّةً ولا وحياً... بل المسيحيّة، بمنتهى الكلام، هي تلك التي تعمل من أجل الإنسان **أوّلاً**؛ أي هي «جماعة» من البشر، لا مجموعة شرائع وحقائق وعقائد. إنّها «جماعة» تعمل بعضها مع بعض من أجل رقيٍّ الإنسان وقداسته. أو هي «الكنيسة» المكوّنة من أناسٍ، قد يكونون خطأة ضعفاء، وجهلة مساكين، يساعد بعضهم بعضاً في البحث عن اللّه والحقيقة، وفي استعادة الحرّيّة التي سلبها الأنبياءُ والرسلُ، وقضت عليها الأديانُ والشرائع.

***

ليست المسيحيّة شيئاً إن لم يكن يسوع ذاك الوسيط الأوحد بين اللّه والإنسان. لقد جاء يسوع **يُخلّص** الإنسانَ من إله الأنبياء والرسل والأديان والشرائع والكتب المنزلة جميعها. لم يكن في همّ يسوع أن يؤسّسَ ديناً لفئةٍ من البشر، لأنّ البشر كلّهم خلْقُه وأبناؤه وأحباؤه وفي

عنايته وحمايته؛ بل كان همّه أن يحرّر البشر كلّ البشر. فهو للأبرار والأشرار سواء، للأصحّاء والمرضى، لليهود والأمم، للأحرار والعبيد، للرجال والنساء... الكلّ مدعوٌ إلى وليمته، المرذولون قبل المقرّبين، الخطأة قبل الأبرار.

ليس يسوعُ شيئاً إن كان جاء ليعلّمنا ويثقّفنا، ويسنّ لنا شرائع، وينزّل علينا حقائق، ويفسّر لنا أسرار الموت وما بعد الموت وألغاز العالم والكون... نحن نريدُ من يسوع أن يُعطيَنا ذاتَه، وأن يَبقى معنا، ويكون حاضراً بيننا، ويشركنا في ألوهيّته.

ويسوع كان كذلك: فهو حاضرٌ في كنيسته التي هي امتدادٌ له، ومكانٌ لخلاص البشر أجمعين، حاضرٌ في كلّ اثنين يجتمعان باسمه، حاضرٌ في كلّ جماعة، حاضرٌ في أتعابنا وأفراحنا، في ارتفاعنا وسقوطنا. إنّه حاضر في مأكلنا ومشربنا، وبنوع خاصّ ومميّز، في وليمة الإفخارستيّا ومائدة المحبّة حضوراً فعّالاً.

ليس يسوعُ شيئاً إنْ لمْ يكنْ في تدبيره الإلهيّ رفْعُنا إليه حتّى نصير شركاءه في ألوهيّته، ومتّحدِين به اتّحاداً كاملاً ونهائيّاً.

دونَ هذه الشــركــة في الألوهــيّــة، والاتّحــاد باللّه، والحيــاة التامّــة معــه، والسعــادة به لا بغيــره... دون هذه الرغبة في أن نكون مثل اللّه، لا يَعنينا يسوعُ بشيء.

نحن لا نريد يسوعَ نبيّاً، ولا ملاكاً، ولا مرسَلاً، ولا قائداً، ولا زعــيمــاً، ولا معلّمــاً، ولا مشــترعــاً، ولا مؤسّس دين... نريده «وســيطاً» بيننا وبين اللّــه. نريد أن يدلّنا على اللّه، أن يشركنا في ألوهيّــتِه، أن يحيــا فينا ونحيا فــيه، أن نمجّــده ويقدّســنا، أن نحتــفل به ويتــجلّى فــينا. نريده أن يوحّدنا به وبأبيه، وأن يقدّسَنا بروحه القدّوس..

ليس يسوعُ شــيئــاً إنْ لمْ يحملْ عنّا بعضَ شــقائنا، خطايانا وآلامنا، صليبنا وموتَنا... يسوع الذي لم يُصلَبْ لا يعنينا أبداً؛ لأنّ إلهاً لا يعرف الألم والصليب والموت لا مكان للإنسان عنده. إلهٌ خلقَ الألمَ والصليبَ والموت، من دون أن يتألّم ويُصلب ويذوق المــوت، هو إلهٌ مستهــزِئٌ بنا جميــعاً، إنّه يتجنّبنا ويبــغضنا مجّــاناً... يسوعُ المصلوب هو لنا كلّ شيء. ونحن نرى في صلــيبــه عنوان بشــريّةٍ ســائرةٍ في طريقِ الخلاص والمجد.

إنّي لا أُحــسنُ التعــامل مع إلهٍ واحد، أحَــد، صمَــد، مــتعــالٍ، مهــيمنٍ، جــبّارٍ، كــلّيِّ القدرةِ، ضــابطِ الكلِّ، ديّانٍ

العالمِين... مع هكذا إله لا أجد لي مكاناً. لا أطمئنّ إليه. لا أعرف كيفَ ومِن أين أدخل فيه... إنّ عقلي يسلّم بوجوده، ولكنّ قلبي لا يسعدُ ولا يطمئنّ إلاّ لإلهٍ يُحِبّ، ويُحَبّ، يَعتني بالصّغير والضعيف والمسكين، ويتحمّلُ اللّعنةَ عن الملعونِين، ويتعذّبُ مع المعذَّبين، ويُصلَبُ مع المصلوبين، ويموتُ مع المائتِين.

وكذلك أيضاً لا أُحْسِنُ التعامل مع إلهٍ يقف لي بالمرصاد، ويتّهمني دائماً بأنّني خرّبتُ العالم، وأفسدتُ مخطّطاته، وأبعدتُه عن خليقته... مع مثل هذا الإله أجد نفسي متَّهَماً دائماً، مُذنِباً عالميّاً، شرّيراً كبيراً، بل شيطاناً رجيماً...

يلوح لنا، مع إلهٍ كلّيٍّ الكمالِ والجمال، أنّنا كلّيّي النّقص والقبح.. وبالتالي، لا لقاء بيننا وبينه. فلولا يسوع، لما كان هو يتخلّى عن كماله وجماله، ولا نحن نستطيع أن نغيّرَ نقصنا وقبحنا بقدرتنا الذاتيّة. يسوع تولّى الأمر، فنجح وانتصرنا، وانتصرنا معه ونجحنا.

لولا يسوع، لما عرفنا أنّ اللّه أبٌ محبٌّ، يُقيم معنا، يحلّ فينا، يتجلّى فوق جبالنا، يملأ أرضنا، يتمجّد بالدبّابات والزحّافات وحيتان البحر وطيور الجوّ... يسوع عرّفنا على

أنّ اللّه محبّة، أبٌ، وابنٌ، وروحٌ، وكنيسة، وتوبة، ورحمة... لقد ظلمناه بقولنا عنه واحداً، وثلاثة، ومئة، وألف، وأكثر.. إنّه الكلّ، بل هو الكلّ في الكلّ، لأنّه يستوعب الكلّ.

فلولا يسوع، لعاد اللّهُ واحداً أحَداً صَمداً، مغلَقاً على ذاته بإحكام، لا يُحبُّ أحداً، ولا يهمّه أحد..

لقد حاول البشر، عَبر تاريخهم، إنشاء أديان ومذاهب كثيرة، حدَّدوا عقائدها، وثبّتوا مبادئها، وأقاموا فرائضها، ونظّموا طقوسَها، وربطوها كلّها بعمد السماء، لعلّها تكون واسطة بيننا وبين اللّه. ولكنّ الإنسان، إرضاءً للّه، ظلمَ أخاه، أبغضه، وقتله. وكان سؤال اللّه لهذا القاتل منذ البدء: «مَاذا صَنعتَ بأخيك.. إنّ صوتَ دماءِ أخيكَ صارخٌ إليّ مِن الأرض» (تك٤ / ٩-١٦).

ولا يزال الأمرُ هكذا بين البشر، إلى أن كان يسوع الذي جاء من عند اللّه ليقول لنا: «اللّه مَحبّة». «من يُحبُّ هو من اللّه». «بادر وصالح أخاك **أوّلاً**، ثمّ عُدْ إلى اللّه...

فبسبب هذه الأقوال، أعتقد أنّ يسوع وحدَه جاءَ من عند اللّه. وهو كذلك بسبب ما تكبّد من جرّاء هذه الأقوال من آلام وعذابات واتّهامات...

الفصل التاسع

أيّ إلهٍ هو هذا الذي نعبد؟!

أيّ إله هو هذا الذي تتكلّم عليه الأديان جميعها، وتصفه بصفات البشر من دون معرفة أيّ دور خلاصيّ له مع الإنسان؟!

لا أعتقد أنّ هذا الإله الذي يعبده المسيحيّون اليوم هو نفسه الإله الذي يعبده اليهود والمسلمون والدروز والنصيريّون وغيرهم من المتديّنين الغيورين على صمديّة اللّه، أي إنّ إله الإنجيل ليس هو نفسه إله التوراة والقرآن.

إله الإنجيل يهتمّ بعباده جميعهم، ويعتني بهم جميعاً، ويحبّهم من دون تمييز، ويرأف بهم إلى منتهى الرأفة ، ويجهد في إعلاء حرّيّتهم، ويعمل على خلاصهم. إنّه، باختصار، كما يقول عنه الإنجيل، «إله محبّة».

أمّا إله القرآن فهو إله أزليّ أبديّ، واحدٌ، أحَدٌ، صَمَدٌ، بعيدٌ، متعالٍ، قيّد الإنسان بشريعةٍ لا تتغيّر ولا تتبدّل، لا تتطوّر ولا تخضع للزمن ولا للأحداث في العالم[١]..

وكذلك هو إله التوراة الذي عُرف بإبرام العقود، وقطع العهود مع شعبٍ اختاره له من بين شعوب الأرض جميعاً، ورافقه في مصر وفي بـرّيّة سيناء، في السبي إلى بابل، وفي مسيرته كلّها.

١ . لقد قطع إله اليهود عهداً مع أبيهم إبراهيم، فكانت علامته الختان، «فيكون عهدي في أجسادكم عهداً أبديّاً» (تك ١٧ / ٩–١٥).

٢ . وفي أيّام موسى، قال الله لهم: «إن حفظتم عهدي، فإنّكم تكونون لي خاصّةً من بين جميع الشعوب... وتكونون لي مملكةً من الكهنة وأمّةً مقدّسة» (خر ١٩ / ٥).

٣ . وأهمّ عهدٍ قطعه الله معهم هو عندما أخذ موسى الدمّ، ورشّه على الشعب، وقال : «هوذا دم العهد الذي قطعه الربّ معكم» (٢٤ / ٧–٨).

٤ . ثمّ جاء عهد الخضوع للشريعة، ولا سيّما

---

(١) لمعرفة المزيد عن إله القرآن والإسلام، راجع فصل «الله»، ص ٧٣–١٠٢ من كتابنا «بين المسيحيّة والإسلام»، سلسلة «الحقيقة الصعبة»، رقم ١٨.

شريعة السبت، الذي إذا ما «استباحه أحدٌ يُقتَل قتلاً.. إنّه عهد أبديّ بين الله وبين بني إسرائيل» (خر ٣١/١٦-١٧).

٥. ثمّ إنّ الله نفسه الذي أوحى لابنتَي لوط بمضاجعة أبيهما ليكون لهم نسل. لقد «سقَتا أباهما خمراً، وضاجعتاه، فحملتا منه، ووُلد لهم بنون» (تك ١٩/ ٣٠..).

٦. والله نفسه أيضاً يمتحن إبراهيم بذبْح ابنه الوحيد الذي يحبّه، وقد وعده الله بنسلٍ منه يملأ الأرض؟! (تك ٢٢/١-١٩).

٧. وهو الله إيّاه أيضاً يقوم بمصارعة بينه وبين يعقوب، فتتخلع، بسبب هذه المصارعة، حُقُّ وِرِك يعقوب؛ حتّى أصبح يعقوب «يعرُجُ من وَرِكه. ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عِرْقَ النِّسا الذي في حُقِّ الوَرِك إلى هذا اليوم» (تك٣٢/ ٢٣-٣٣).

٨. ثمّ وُصف إله التوراة بأنّه ساحر يتعاطى السحر والشعوذة، كما فعل موسى مع فرعون من خزعبلات وبهلوانيّات وشعوذات ليدهشه.. وبرهن على ذلك عندما ضرب اللهُ مصر عشر ضربات :

١- فقد طلب اللهُ من موسى أن يُلقي عصاه على الأرض فتصير حيّة (خر ٧/٨-١٣)؛

٢- وعلّمه أن يقلب ماء النيل دماً (خر ٧/ ١٤)؛

٣- وأراه النيلَ يعجّ بالضفادع، التي تصعد وتدخل بيت فرعون وبيوت شعبه (خر ٧/ ٢٦-٨/ ١١)؛

٤- وقال له أن يضرب تراب الأرض، فيصيرَ بعوضاً في كلّ أرضِ مصر (خر ٨/ ١٢-١٥)؛

٥- وأن يُرسل الذباب على فرعون وشعبه وبيوتهم. ودخل ذبابٌ كثيف كلّ أرض مصر وأُتْلِفَتِ الأرض (خر ٨/ ١٦-٢٨)؛

٦- وأن يُرسل إلى فرعون وشعبه ومواشيهم بطاعون شديد جدّاً (خر ٩/ ١-٧)؛

٧- وأن يقوم بذرّ التراب على الناس والبهائم فيصير قروحاً تفرّخ بثوراً (خر ٩/ ٨-١٢)؛

٨- وأنّ يُمطر برَداً ثقيلاً جدّاً لم يكن مثلُه في مصر من يوم تأسيسها إلى الآن (خر ٩/ ١٣-٣٥)؛

٩- وأن يُغطّي الجراد أرض مصر، حتّى لم يكنْ قبلَه جرادٌ مثلَه ولا يكون بعده كذلك (خر ١٠/ ١-٢٠)؛

١٠- وأن يجعل ظلاماً على أرض مصر.. فكان ظلام كثيف ثلاثة أيّام. ولم يكن الواحد يُبصر أخاه، ولم يقم أحدٌ من مكانه ثلاثة أيّام (خر ١٠-٢١-٢٩).

٩ ـ إله التوراة إله كذّاب مخادع :

١ – لقد خدع آدم بمنعه من أن يأكل من شجرة المعرفة. فأكل؛

٢ – وجعل فتنة بين قايين وأخيه هابيل حتّى قتل قايين أخاه؛

٣ – وعمل طوفاناً أباد به كلّ حيّ على الأرض، وأبقى على نوح وذرّيته كأنّهم هم وحدهم أبناؤه؛

٤ – ودمّر سدوم وعمورة، وأبقى فقط على لوط؛ وما أدراك مَن هو لوط،وما صنعت به بنتاه؟!

٥ – ودمّر برج بابل، لاتّهامه بنّائيه بالفساد، فيما هم بنَوه ليحموا به العالم من غضب الطبيعة وفيضان الأمطار وطوفان الأنهر والبحار؛

٦ – وأعطى موسى عشر وصايا، كأنّها من صنعه هو، فيما هو استوحاها من ملحمة جلجامش، وحرّفها لمصلحة بني إسرائيل...

١٠ . ثمّ يسرد سفر الخروج مآثر اللّه ومعجزاته مع شعبه الخاصّ، ولو على حساب تدمير شعوب الأرض كافّةً :

١ – رأى موسى رجلاً مصريّاً يضرب رجلاً عبرانيّاً من إخوته. فالتفت إلى هنا وهناك فلم ير أحداً، فقتل المصريَّ وطمره في الرمل (خر ٢/١١-١٢)؛

٢ – ونظر موسى، وهو على جبل حوريب، فإذا العلّيقة تشتعل بالنار وهي لا تحترق.. فناداه الله من وسَط العلّيقة...(خر ٣/١-٦)؛

٣ – وقال موسى لشعبه: «إذا انصرفتم، فلا تنصرفون فارغِين، بل ... تسلبون المصريّين (خر ٣/٢١-٢٢)؛

٤ – ثمّ قال الربّ لموسى: ما هذا الذي في يدك؟ قال: عصاً. قال: ألْقِها على الأرض. فألقاها على الأرض، فصارت حيّةً. فهربَ موسى من وجهها. فقال الرب لموسى: مدّ يدك وأمسِك بذَنَبها. فمدّ يده وأمسك بها. فعادتْ عصاً في يده (خر ٤/٢-٩)؛

٥ – قال الربّ لموسى: جميع المعجزات التي جعلتُها في يدك تصنعها أمام فرعون، وأنا أقسّي قلبه، فلا يُطلق الشعب (خر ٤/٢١)؛

٦ – قال الربّ: وأنا أجتازُ في أرض مِصْر في تلك الليلة، وأضرب كلَّ بِكْرٍ في أرض مصر، من الناس إلى

البهائم... فلمّا كان نصف الليل، ضرب الربّ كلَّ بِكْرٍ في أرض مصر، من بكر فرعون الذي سيجلس على عرشه إلى بكر الأسير الذي في الجبّ، وجميعَ أبكار البهائم.. وكان صراخٌ عظيم في مصر، إذ لم يكنْ بيتٌ إلاّ وفيه مَيْت (خر ١٢/١٢، ٢٩-٣٠)؛

٧ - وأنالَ الربّ الشعبَ حُظوة في عيون المصريّين... وهكذا سلبوا المصريّين (خر ١٢/ ٣٥-٣٦)؛

٨ - كانت ليلةَ سَهَرٍ للربّ، لإخراجهم (أي لإخراج الإسرائيليّين) من أرض مصر. فليلةُ السَّهَر هذه يحفظها للربّ بنو إسرائيل جميعُهم مدى أجيالهم (خر١٢/ ٤٢)؛

٩ - ولمّا تصلّب فرعونُ عن إطلاقنا، قتلَ الربُّ كلَّ بِكْرٍ في أرض مِصر، من بكرِ الإنسان إلى بكر البهيمة (خر ١٣/ ١٥)؛

١٠ - وكان الربّ يسير أمامهم نهاراً في عمودٍ من غَمام ليَهديَهم الطريق، وليلاً في عمودٍ من نارٍ ليُضيء لهم، وذلك لكي يسيروا نهاراً وليلاً (خر١٣/ ٢١)؛

١١ - يقول اللّهُ: وأُقسّي أنا قلبَ فرعون، فيَجِدُّ في إثرِ بني إسرائيل... ويعلمُ المصريّون أنّني أنا الربّ (خر ١٤/ ٣-٤)؛

١٢ – قال موسى للشعب: الربّ يُحارب عنكم وأنتم هادئون (خر ١٤/ ١٤)؛

١٣ – وقال اللّهُ لموسى: وأنتَ ارفع عصاكَ ومُدَّ يدَك على البحر فشُقَّه، فيَدخُلُ بنو إسرائيل في وَسَطِه على اليَبَس. وها أنا مُقَسٍّ قلوب المصريّين، فيَدخُلون وراءهم... (خر ١٤/ ١٥–٣١)؛

١٤ – وفيما الشعب في البرّيّة، تذمّر على موسى وقال: ماذا نشرب؟ فصرخ موسى إلى الربّ، فأراه الربُّ خشبةً فألقاها في الماء فصار عذْباً (خر١٥/ ٢٤–٢٥)؛

١٥ – وتذمّرت جماعةُ بني إسرائيل كلّها على موسى وهارون في البرّيّة. وقال لهما بنو إسرائيل: ليتَنا مُتْنا بيدِ الربّ في أرض مصر، حيث كنّا نجلس عند قدْر اللحم ونأكلُ من الطعام شِبعَنا، في حين أنّكما أخرَجتمانا إلى هذه البرّيّة لتُميتا هذا الجمهورَ كلَّه بالجوع. فقال الربُّ لموسى: ها أنا ممطرٌ لكم خبزاً من السماء، فيخرجُ الشعب ويلتقِطُه طعامَ كلِّ يومٍ في يومه، لكي أمتحنَهم... (خر١٦/ ١–٣٦)؛

١٦ – الماء يخرج من الصخرة! (خر ١٧/ ١–٧)؛

١٧ – محاربة العمالقة! (خر ١٧/ ٨–١٦).

هذه بعض معجزات اللّه مع بني إسرائيل في البرّيّة. وهي مآثر لا يمكن لعاقلٍ أن ينسبها إلى اللّه الذي يعمل دائماً لمصلحة بني إسرائيل، فلكأنّ أبناء الأمم لا يستحقّون أيّة عناية، وكأنّه ليس إلههم، وهم ليسوا أبناءه.

١١ . وكذلك أمر إله التوراة أنبياءه بقتل الذكور، وبقْر بطون الإناث والأطفال والرضّع والحيوانات. هذا الإله يحيك المؤامرات مع كلّ أعوانه :

١- لقد دبّر اللّهُ مؤامرة ليخدع الملك آخاب ويُميته ليخلّص بني إسرائيل من شروره (ر: ١مل ٢؛ ٢ أخ ١٨)؛

٢ – وحاك مؤامرة على النبي داود وشعبه؛ وأمره أن يحصي الشعب، ثمّ اعتبره قد أخطأ في ذلك. الشيطان، كما الإله يحيك مؤامرة أيضاً على داود، ويأمره بإحصاء الشعب (١ أخ ٢١). في حين أنّ داود أحصى شعبه دون أن يأمره أحد؛ ولم يترتّب عليه أيّة مخالفة (٢ صم ١٨)...

١٢ . إله التوراة إله منتقم، يثأر لشعبه من أعدائه :

١ – ينتقم لقايين سبعة أضعاف (تك ٤ / ٢٤)؛

٢ – وينتقم لبني إسرائيل من المديانيّين (عد ٣١ / ٢)؛

٣ – ويسمع صلاة داود يتوجّه بها إليه: «أُطارِد أعدائي فأُدمِّرُهم، ولا أعود حتّى أُفنيهم. أُفنيهم وأحطِّمُهم فلا يقومون، تحت قدمَيّ يسقطون... اللّه الذي يُتيح لي الانتقام» (٢ صم٢٢/٣٨-٥١)؛

٤ – «يا إله الانتقام، يا ربّ، يا إله الانتقام، أشرِقْ (مز٩٤/١)؛

٥ – «قال السيّدُ ربُّ القوّات، عزيزُ إسرائيل: لأثأرَنّ من خصومي، وأنتقِمَنّ من أعدائي» (أش ١/ ٢٤)؛

٦ – ويصلّي النبيّ إرميا إلى الربّ قائلاً: «وانتقمْ لي من مضطَهِدِيّ (إر ١٥/ ١٥)؛

٧ – وكذلك يقول النبيّ حزقيال بلسان الربّ الذي يصبّ جامَ غضبه على الفَلسطينيّين: «أُجرِي عليهم انتقاماً عظيماً، فيعلمون أنّي أنا الربّ حين أجعل انتقامي عليهم» (حز ٢٥/١٥-١٧)؛

٨ – «وبغضبٍ وحَنَقٍ أُجري الانتقامَ على الأمم» (ميخا ٥/ ١٤) يقول الربّ؛

٩ – ويصف النبيّ نحوم انتقام الربّ بقوله: «الربّ إله غيور ومنتقم. الربّ منتقم وذو غضب. الربّ منتقم من خصومه، وحاقد على أعدائه.. ولا يتغاضى عن شيء.. مَن

يقف أمام سُـخطه، ومن يُقاوم اضطرامَ غضبـه؟ قد انصبّ حَنَقُـه كالنّار، وتحطّمت مـنه الصـخـور.. يُفني مقـاوميـه، ويتعقّبُ أعداءه في الظلام» (نحوم ١ / ١-٨)...

***

هذا هو إله التوراة واليهود. نادراً ما يتّصف بالرأفة والرحمة والمحبّـة والحنان. إنّه إله لا يرتاح الإنسانُ إليه، أو يمكن أن يرجو منه خلاصاً. لهـذا جاء يسوع المسيح ينقض مفهوم اللّه اليهوديّ، من دون أن يقضي على اللّه نفسه.

وكذلك هو إله القرآن، مـثله مثل إله التوراة، إله حنَقٍ وغضبٍ وثـأرٍ وانتقام: «إنّ اللّه عزيز ذو انتـقام»[٢]... لقد انتقم من المصريّين فأغرقهم في اليم أجمعين[٣].

وظلم حتّى جماعتـه. قال: «وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصـيهم (أي من حصونهم)، وقذف في قلوبهم الرعب، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهـم وأموالهم وأرضاً لم تطأوهـا. وكان اللّه على كلّ شيء قدير»[٤].

(٢) ٣ / ٤، ٥ / ٩٥، ١٤ / ٤٧؛ ٣٩ / ٣٧...

(٣) ٧ / ١٣٦، ١٥ / ٧٩؛ ٤٣ / ٥٥..

(٤) سورة الأحزاب ٣٣ / ٢٥-٢٦.

أيّ إله هو هذا الإله، إله التوراة والقرآن؟! أَفْهَمُ أنّ إله التــوراة هو هكذا، لأنّ مــفــهــوم النــاس له، في ذلك الحين، ينطبق على مــفــاهيم ذاك العصــر. أمّــا أن يعود بنا القــرآن مئــات السنين إلى الوراء، ويترك إله المحبّــة، أي إله الإنـجيل، فهذا ما لا يمكن قبوله.

***

إله التــوراة والقرآن هو نــفســه الذي صنع الأديان، وسنّ الشــرائع، وقــيّد مــجالات الحــرّيّة ورسم حــدودها، وجمّــد الحقائق والعــقائد؛ بل جمّــد الإنسانَ، وأوقف تطوّر التاريخ والإنســان والعلم والعالم.

لهذا، ليس على إنسان اليوم، الضنين بحرّيّته، إلاّ أن يدعــو إلى إلغاء هذه الأديان والشــرائع، وبالتالي إلى إلــغاء الأنبياء وكتبهم التي لا تشــير إلى الإله الحقيقيّ، إله يسوع المسيح.

الفصل ١٠

الشرّ في العالم مسؤوليّة مَن؟

يُقال أنّ خطيئة آدم وحوّاء هي سبب الشرّ والموت في البشريّة. وبسبب خطيئتهما هذه غضبَ الله عليهما وعلى ذرّيتهما إلى الأبد.

ويُقال أيضاً أنّ إبليس استقوى عليهما، وأغواهما، وأسقطهما في حبائله، وجرّهما إلى المعصية؛ ولم يعد بوسعهما القيام من دون مخلّص.

وثمّة مَن قال أيضاً إنّ أحدَ الملائكة غار على سيادة الله، فآثر الدفاع عنه بشتّى الوسائل، بالحروب والزلازل والنكبات والبراكين وعوامل الطبيعة الصاخبة، وبالأوبئة والأمراض والعداوات بين الشعوب، وغير ذلك من شرور...

ومَن قال أخيراً إنّ نيّة الإنسان في تبرئة اللّه من الشرّ جعلتِ الإنسانَ ينسب الشرّ إلى إلهٍ آخر؛ حتّى أصبح لديه إلهان : إله للخير والنور، وإله للشرّ والظلمة...

❋❋❋

أمّا أنا فأقول إنّ سبب الشرّ في العالم كلّه هو الإنسان لا سواه. الإنسان بكونه كائناً حرّاً مسؤولاً عن أعماله كلّها، التي هي من صنعه، لا من صنع سواه، لا من اللّه، ولا من الشيطان، ولا من أيّ روح شرّير آخر... وحده الإنسان، بكونه حرّاً مسؤول عن كلّ ما في العالم من خيرٍ ومن شرّ...

وحدَه الإنسانُ، بين جميع المخلوقات المرئيّة واللاّمرئيّة، يتمتّع بحرّيّة أنعم اللّهُ بها عليه، منذ البدء، ذلك لكي يستحقّ، بجهده وكدّه، أجرَ أعماله، والحياة مع اللّه.

وحدَه الإنسانُ، بسبب حرّيّته، يتحمّل مسؤوليّة أعماله، الخيّرة منها والشرّيرة. ولا يمكنه، بحالٍ من الأحوال، أن يحمّل اللّهَ أيّة مسؤوليّة عن أيّ عملٍ خيّرٍ أو شرّير. اللّه بريء، لأنّ الإنسان، بما وهبه اللّهُ من حرّيّة، يتحمّل وحدَه تبعيّة أعماله.

❋❋❋

الحرّيّة سبب تصرّفات الإنسان وأعماله الخيّرة والشرّيرة كلّها. ولا يحقّ له أن يرفع المسؤوليّة عن كاهله ويُلقيها على سواه، لا على اللّه، إن كانت خيّرة، ولا على الشيطان، إن كانت شرّيرة...

إذاً، لا اللّه، ولا أيّ إنسان آخر يمكنه أن ينزع هذه الحرّيّة المسؤولة من أيّ إنسانٍ شاءها اللّه له منذ أن خلقه.

والشرّ في العالم هو، في حقيقته، يكمن في منع الإنسان من مزاولة حرّيّته؛ أكان ذلك في اتّهام اللّه بصنع الأديان، وتنزيل الكتب، وبعث الأنبياء والمرسلين، أم بتحديد عقائد وتعاليم، ووضع شرائع لا تتغيّر ولا تتبدّل.

حرّيّة الإنسان هذه، وحدها من بين عطايا اللّه، هي مطلقة وعامّة وكاملة وشاملة وثابتة... واللّه نفسه لم يقف يوماً في وجه ممارسة الإنسان لهذه الحرّيّة.

هذه الحرّيّة لا يستطيع أحدٌ أن يدّعي أنّها ملكُه وحدَه، أو أن يسلبها من أيّ إنسان آخر، ولو باسم اللّه ذاته.

ظلمُ الإنسان لأخيه الإنسان يكمن هنا، في استعباده باسم السماء، أي في تنزيل شرائع باسم اللّه، ووضعها في أديانٍ وكتبٍ قيل أنّها من صنع اللّه.

ها هنا يكمن الشرّ العظيم. ولعظمته لا يستطيع الإنسان أن يتحمّله وحدَه، لهذا رأى أن ينسبه إلى قوّة عظيمة أوجدها هو ليرفع عنه المسؤوليّة. هذه القوّة سمّاها الشيطان.

لهذا، إن وُجد الشيطان فهو أحسن وجه أوجده الإنسان، ليحمل عنه أثقالَ شروره.

فكما أنّ اللّه ليس ملك الإنسان ليحمّله كلَّ أعماله الخيّرة، فالشيطان أيضاً ليس ملك الإنسان ليحمّله كلّ أعماله الشرّيرة. اللّه بريء ممّا اتُّهم به، والشيطان أيضاً بريء ممّا اتُّهم به.. كلّ هذه الاتّهامات حاكها الإنسان لأنّه لا يستطيع أن يحمل وحدَه مسؤوليّة أعماله؛ فاتّهم اللّهَ بالخيّرة منها، واتّهم الشيطانَ بالشرّيرة منها... تلك لا يستطيعها الإنسانُ وحدَه، فأناطها باللّه؛ وهذه لا يتحمّل مسؤوليّة شرّها، فأناطها بالشيطان.

لقد توفّق الإنسان باللّه فحمّله صنع الأديان والأنبياء والكتب والشرائع؛ وتوفّق بالشيطان فحمّله أثقالَه وشرورَه.

الثلاثة: أي اللّه والإنسان والشيطان، هم ضحيّة بعضهم بعضاً. فمن هو هذا الذي يستطيع أن يحكم،

ويفصل، ويُعطي لكلٍّ دورَه وعملَه، ويحرّره من أمور كثيرة أُنيطت به؟

لقد كان الإنسان، بين الثلاثة، أكثر حرّيّة من الاثنين الآخرَين؛ فيما يجب أن يكون الإنسان أقلّها. ولكنّه استطاع أن يرفع المسؤوليّة عن نفسه، فوضع الخيّرة في اللّه والشرّيرة في الشيطان. لقد كان أقوى منهما، إذ نقل الأحمالَ إليهما، وارتاح.

لا يستطيع أحدٌ أن يمتلك اللّه. وكذلك أيضاً لا يستطيع أحدٌ ادّعاءَ معرفة الحقيقة وكأنّها أُعطيتْ له. فالحقيقة مِلْك الجميع وهدف الجميع. والجميع يسعى إليها.. فالإنسانُ ليسَ كائناً مطلقاً ليملك كلّ شيء ويعرف كلّ شيء. وحده الكائن المطلق، أي اللّه، هو الملء والكمال والكلّ في الكلّ.

إستناداً إلى هذه المعطيات البديهيّة نقول إنّ الإنسان لا يمكنه احتكار اللّه، ولا احتكار الحرّيّة، ولا ادّعاء الحقيقة، ولا ادّعاء معرفة كلّ شيء. ولا يحقّ له أن يميّز نفسَه عن سواه لظنّه أنّه على اتّصال مباشر باللّه، وبالسماويّات والماورائيّات واللأمرئيّات والأخرويّات...

***

كلّ هذا يدفعنا دفعاً إلى تبرئة اللّه من كلّ شيء، وتحميل الإنسان مسؤوليّة كلّ شيء :

فاللّه بريء من صنع الأديان، وتنزيل الكتب، وإرسال الأنبياء والرسل، وإنزال شرائع من السماء، وتمييز شعب عن شعب، ونسبة أناس إليه دون أناس، أو اختيار أمّة دون أمّة...

وكذلك الشيطان بريء من كلّ شرّ، لم يستطع الإنسانُ تحمّله، فنسبه إليه.

ما بال الإنسان يجعل نفسَه ضحيّةً، ضحيّة اللّه وضحيّة الشيطان؟! ضحيّة اللّه باتّهامه بصنع الأديان، وضحيّة الشيطان باتّهامه بصنع كلّ شرّ في العالم؟!

الفصل ١١

حروب الله في اليهودية والإسلام

مقدّمة

١ . بالرّغم من أنّ اللّه أمرَ الإنسانَ أن «لا تقتل»[١]، ولا يحقّ لك أن تقتل. وقد دانَ، منذ البدء، قايينَ الذي قتلَ أخاه هابيل، ولَعنَه، وطرده من الأرض «تائهاً شارداً». وهي، أي الأرض، لا تعود تعطيه ثمرَها (تك ٤ / ١٠-١٢).

وبالرّغم من أنّ قايينَ عرفَ شرَّه، واعترف به، إذ قال: إنَّ «عقابي أشدُّ مِن أنْ يُطاق»؛ وراح يستتر من وجه اللّه، خائفاً من أن يقتلَه أحد؛ فـ «جعلَ الربُّ له علامةً لئلاّ يَضربَه كلُّ مَن يجده» (٤ / ١٣ و١٥).

---

(١) راجع. خر ٢٠ / ١٣، وتث ٥ / ١٧.

بالرّغم من كلّ ذلك، فإنّ تاريخ البشريّة دُشّنَ بالقتل. ويقوم على حروبٍ لا تتوقّف ولا تنتهي، حروب دائمة ومستمرّة، ومستعرة بين الأمم والبلدان.

٢. وحتّى اللّه سيحارب مع شعبه، وعن شعبه، بضراوة، وينصره على أمم غريبة، ليُعِدَّه إلى غدٍ يعمّ فيه السلام؛ ولكن سلامٌ لن يكون، على ما يبدو، قبل مجيء المسيح، وموته على الصليب الذي به، على ما يقول القديس بولس، قضى على العداوة بين الشعوب.

ولكن، وقبل أن نصل إلى هذا السلام المسيحانيّ الموعود، لا بدّ لنا من أن نجول مع اللّهِ في حروبهِ مع شعبه، وفي جهاده ضدّ كلّ مَن لا يعترف بشريعة التوراة وبشريعة الإسلام.

أوّلاً – حروب الله في العهد القديم

٣. أكثر أسفار العهد القديم دلالةً على حروب اللّه مع اليهود، هو سفر القضاة. يختصر سفر القضاة مسيرة حروب اللّه ضدّ الأمم المجاورة لإسرائيل، كالكَنعانيِّين، والفَرِزِّيِّين، والفَلسطينيِّين، والصَّيدونيِّين، والحُوِّيِّين، والحِثِّيِّين، والأمورِيِّين، والموآبيِّين، واليَبوسيِّين، وغيرهم... وذلك للاستيلاء على أرضهم، بعد ضربهم بحدِّ السَّيف،

ومطاردتهم، والقبض عليهم، وإحراق مدنهم، وسبي نسائهم، وقتل أطفالهم...

٤ . منذ بداية السِّفر، سأل بنو إسرائيلَ الربَّ: «مَن منَّا يَصعَدُ لمحاربةِ الكنعانيّين؟ فقال الربُّ: يهوذا يَصعد، لأنّي إلى يده أسلَمْتُ الأرض. فقال يهوذا لشمعونَ أخيه: إصعدْ معي لِنُحارِبَ الكَنعانيِّين؛ فانطلقا. فأسلمَ الربُّ الكَنعانيِّين والفَرِزِّيِّين إلى أيديهم، فضربوا منهم في بازَقَ عشرةَ آلاف رجل» (١/ ١-٧).

٥ . ثمّ «حاربَ بنو يهوذا أورشليمَ، فاستولَوا عليها، وضربوها بحدِّ السَّيف، وأحرقوا المدينةَ بالنَّار. ومن بعد ذلك، نزلوا ليُحاربوا الكَنعانيِّين المقيمين بالجبلِ والنَّقَبِ والسَّهل» (١/ ٨-١٤).

ثمّ «انطلق يهوذا مع شمعونَ أخيه، فضربوا الكَنعانيِّين المقيمين بصفاة . واستولى يهوذا على غزَّةَ وأرضِها، وأشقَلونَ وأرضِها، وعقرونَ وأرضِها. وكان الربُّ مع يهوذا، فورثَ الجبل» (١/ ١٧-١٩).

٦ . «وصعد آلُ يوسف أيضاً إلى بيتَ إيل، وكان الربُّ معهم. وتجسَّسَ آلُ يوسفَ بيتَ إيل... فضربوا المدينةَ بحدِّ السَّيف» (١/ ٢٢-٢٣).

٧. ثمّ أسلمَ الربُّ إلى أيدي إسرائيل أعداءَه من الموآبيّين، «فضربوا من الموآبيّين في ذلك الوقت نحو عشرةِ آلاف رجل... ولم ينجُ منهم أحد» (٣/ ٢٨-٢٩).

٨. ثمّ ألقى الربُّ رعباً على سيسَرا، قائد جيوش كنعان، وجميعِ مركباته، وقتلَ جميعَ جيشِه بحدّ السيف... وسقط كلُّ مَن كان في جيش سيسَرا بحدّ السيف، ولم يبقَ منهم باقٍ» (٤/ ١٥-١٦)...

٩. (وقال جدعون أحد القضاة الـ١٢): «قوموا لأنّ الربَّ قد أسلمَ معسكرَ مِديَنَ إلى أيديكم. وقبضوا على قائدَي مِديَن، وهما عوريبُ وزيب... وطاردوا المِدْيَنيِّين، وأتَوا برأسِ عوريبَ وزيب إلى جدعونَ في عبر الأردنَ» (٧/ ١٥ و٢٥).

«وكان الذينَ سقطوا (من جيش مدين) مئةَ ألفٍ وعشرينَ ألفَ رَجلٍ مُستَلّ سَيفٍ» (٨/ ١٠).

١٠. ثمّ «أسلمَ الربُّ سِيحونَ وكلَّ شعبه إلى يد إسرائيل، فضرَبَهم، وورِثَ إسرائيلُ كلَّ أرضِ الأموريّين، سكّانِ تلك الأرض» (١١/ ٢١).

١١. ثمّ «عَبَرَ يَفتاحُ (أحد القضاة الـ١٢) إلى بني عمُّونَ ليُحاربَهم، فأسلَمَهمُ الربُّ إلى يده، فضرَبَهم من

عَروعيرَ إلى مدخلِ منِّيت (عشرين مدينة) وإلى آبَلَ كراميم، ضربةً عظيمةً جدًّا. فذلَّ بنو عمُّونَ أمام بني إسرائيل» (١١/ ٣٢-٣٣).

١٢. ويبالغ كاتب سفر القضاة بقوله إنّ اللّه هو الذي حارب وقاتل وطرد، لا شعبه، أو ملوك شعبه، فيقول: «والآنَ فإنَّ الربَّ قد طردَ الأموريّينَ من أمام شعبه إسرائيل. أفَأَنْتَ تَطرُدُهم؟!» (١١/ ٢١-٢٤).

١٣. أسباطٌ عدّة من بني إسرائيل لم يطردوا الكنعانيِّين من مناطقَ استولَوا عليها؛ بل أقاموا في وسْطهم، وأخضعوهم للسُّخرة فقط. هذا ما لم يشأه الربُّ الذي أنذرهم بقوله: «وأنتم لا تَقطعوا عهداً مع أهل هذه الأرض. دَمِّروا مذابحَهم» (٢/ ٢).

الذي فعله بنو إسرائيل هو أنّهم، بإبقاء أممٍ غريبةٍ معهم، أخذوا عنهم عباداتهم الكافرة وعاداتهم المنكَرة، فـ «عبدوا البعل، وتركوا إلهَ آبائهم، الذي أخرجهم من أرض مصر، وتبعوا آلهة الشعوب التي حولهم، وسجدوا لها. فأسخطوا الربّ» (٢/ ١١-١٢)... وكذلك «اتّخذوا بناتِهم زوجاتٍ لهم، وأعطَوا بناتِهم لبنيهم» (٣/ ٦).

هذه الأمم تُركتْ بين بني إسرائيل، على ما يبدو،

لتكون عقاباً لمعاصيهم. وتُركَتْ أيضاً لامتحان أمانتهم، وللمحافظة على روح القتال عندهم.

١٤ . إلاّ أنّ سفرَي الخروج (٢٣/ ٢٩)، وتثنية الاشتراع (٧/ ٢٢)، يأتيان بسبب آخر، وهو لكيلا تصير الأرض قفراً للوحوش الضارية؛ كما أنّ سفر الحكمة (١٢/ ٣-٢٢) يأتي بسبب آخر أيضاً، وهو إمهال السكّان القدماء لكي يتوبوا».[٢].

١٥ . لقد استعمل اللّهُ، في حروبه مع الأمم الغريبة، وسائل غريبة، لا نفهم كيف أمر بها، وأجاز استعمالها. إنّها وسائل تنافي الأخلاق السليمة. وهي قد تُستعمل في الحروب بين بشرٍ أشرار. من هذه الوسائل:

١٦ . حيلة أهود، أحد القضاة، الـ ١٢، الذي خبّأ سيفه تحت ثوبه، ودخل على عجلون ملك موآب، وقال له: «لي إليكَ كلامٌ من عند اللّه»... ثمّ «ضربه في بطنه»... حتّى مات (٣/ ١٥-٢٥)؛

١٧ . ومقتل سيسَرا، قائد جيوش كنعان، على يد ياعيل، التي طمأنتْه بقولها: «مِلْ يا سيّدي، مِلْ إليَّ. ولا تَخفْ». فمال إليها، ودخل خيمتَها. فغطّتْه بغطاء. لكنّ ياعيلَ

---

(٢) راجع حاشية (١٠) على قض ٢/ ٢٠، ص ٤٧١

أخـذتْ وَتَداً من أوتادِ الخـيـمـة، وأخـذت المطرَقـةَ بيـدها، وسـارتْ إليهِ بهدوء، وضـربتِ الوَتَـدَ في صُدْغِهِ حتّى انغرَزَ في الأرض.. وكان نائماً مُنهَكاً. فمات» (٤/ ١٢-٢٢)؛

١٨ . وذبيحـة ابنة يَفتاح، التي قـدّمها أبوها يَفـتاح محرقةً للربِّ، وفاءً لنذرٍ نَذَرَه (١١/ ٢٩-٤٠).

١٩ . وعشْق شـمشـون لدليلة التي أغوتْه، فنوّمَـتْه على رُكبـتَيهـا، ودعت رجلاً من الفلسطينيّين، فـحلقَ سبعَ خُصَـلِ رأسه. وأخذتْ تسـيطرُ عليـه، وقد فـارقتْه قـوّتُه. وقالتْ له: «الفَلسطينيّون عليكَ، يا شمـشـون».. فقبض عليه الفلسطينيّـون وفقأوا عـينَيه، ونزلوا به إلى غـزّة، وأوثقوه بسلسلـتَين من نُحـاس. وكـان يُديرُ الرَّحـى في السِّـجن» (١٦/ ٤-٢٣).

٢٠ . لقـد «صـنـعَ بنو إسـرائيلَ الشـرَّ فـي عـينَي الربّ»[٣]؛ «وتَركـوا الـربَّ، إلهَ آبائهم، الذي أخـرجـهم من أرض مـصـرَ، وتبـعوا آلهـةً أخرى من آلهـة الشعـوب التي حولهم، وسـجدوا لها... وعبَدوا البعلَ وعشتاروت»[٤]؛

(٣) راجع: قض ٢/ ١١؛ ٣/ ٧ و١٢؛ ٤/ ١؛ ٦/ ١؛ ١٠/ ٦؛ ١٣/ ١.
(٤) راجع: قض ٢/ ١١ و١٣؛ ٣/ ٧؛ ١٠/ ٦.

فـ «غضب الربُّ على إسرائيل، فَأسلمهم إلى أيدي السالبين، فسلبوهم، وباعهم إلى أيدي أعدائهم، الذين حولَهم، ولم يَقدروا، بعد ذلك، أن يثبُتوا أمامَ أعدائهم»[٥].

٢١ . لقد كانت هذه الحروب، التي شاءها اللّه، للمحافظة على الأراضي التي استولى عليها الإسرائيليّون، ولاستئصال الأمم الغريبة من بينهم، ولتدمير آلهتهم وحضاراتهم، وللابتعاد عن عباداتهم الكافرة وعاداتهم السيّئة.

وكلّ هذا كان للدلالة على أنّ الربَّ هو الذي يعضدهم ويخلّصهم، ويطارد الشرَّ والأشرارَ من أمام وجهه في أي مكان، وبأيّة وسيلة، إلى آخر الدهر.

٢٢ . مع العهد القديم، نحن مع حروبٍ إلهيّة، دينيَة، مقدّسة ومتتالية: من مقتل قايين على يد أخيه هابيل، إلى مذابح المصريّين زمنَ الخروج، إلى غزو أرض الميعاد أيّامَ القضاة، إلى حروب داود ضدَّ شاول، إلى قتال مملكتَي يهوذا وإسرائيل الشقيقتَين؛ إلى الحروب التدميريَة ضدَ الأمم الغريبة[٦]... حتّى إنّنا نستطيع أن نقول بأنْ ليس من

(٥) راجع. قض ٢: ١٤؛ ٣: ٨؛ ٤: ٢؛ ٦: ١؛ ١٠: ٧.

(٦) مثل الكنعانيّين، والفرزّيّين، والفلسطينيّين، والصيدونيّين، والحوّيّين، والحثّيّين.

حقبةٍ تاريخيَة واحدة سلمتْ من الحروب الإلهيّة.

٢٣ . وأفظع من هذا، أنّ الحــروبَ كلّها كانــت بأمرٍ من اللّه نفسـه. هكذا عبّر الكتابُ عن ذلك فقال:

٢٤ . «الربُّ رجلُ حَــربٍ» (خــر ١٥ / ٣). و«الربُّ يحــاربُ عنكم وأنــتم هادئون» (خــر ١٤ / ١٤)؛ «الربَّ... ضـارِبٌ مِـصْرَ في أبكارها... مُـخرِجٌ إسـرائيلَ من بَينِهم... بيدٍ قويّةٍ وذراعٍ مبسوطةٍ...» (مز ١٣٦ / ١ و١٠-١٢).

٢٥ . اللّه نفــسه يشاء تــدمير المدن، وقـتلَ كلَّ حيٍّ فيهـا، وبأيَّةِ وسيلة كانتْ: «ولتكنِ المدينةُ (أريحـا)، بكلِّ ما فـيهـا، محـرَّمةً للربّ. وحـدَها، راحـاب الزَّانية، (مع أنّهـا زانية)، تنجـو مع جمـيع مَن معهـا، لأنّها أخـفَتْ الرَّسولَين اللَّذَينِ بعـثْناهمــا... وحرَّمـوا كلَّ مـا في المدينة، من الرّجلِ وحتّى المرأة، ومن الشابّ وحتّى الشـيخ، حتّى البقرَ والغنمَ والحميرَ، فقتلوهـم بحدِّ السّيف» (يش ٦ / ١٧ و٢١).

٢٦ . ولن نعــجب، والحــال هذه، مــن مـزامــيـر وصلوات كثيرة، تتوجّه إلى اللّه من أجل إبادة أعدائه وأعداء شــعــبه: «برحــمــتكَ تُدَمّـرُ أعـدائي، وتُهلكُ جـمـيعَ الذينَ

والأمــوريِّين، والموآبيِّين، واليَبــوسيِّين، والأشــوريّين، والبــابليِّين، ومدين، واليــونان، والرومان، وغيرهم...

يُضايقـونَ نفسي» (مز ١٤٣/ ١٢)؛ «لِيـرتدَّ الشرُّ على مَن يترَصَّـدونَ لي. بحقِّكَ يا ربّ دمِّـرْهم» (مز ٥٤/ ٧). بل إنَّ صاحبَ المزامير يدلّ على قلبٍ حـقود ضد أعداء الله وأعداء شعبه فيتـوجّه إلى الله: «ألَمْ أُبغِضْ يا ربُّ مُبغِـضيكَ؟ ألَم أمقُتْ مُـقاوميكَ؟ إنّي أبغـضتُـهم بُغضاً تامّـاً. وصاروا لي أعداء» (مز ١٣٩/ ٢١-٢٢).

٢٧ . بعد هذا المناخ الحربي، نتسـاءل اليوم، عمّا إذا كان إله العهد القديم هو نفســه إله العهد الجديد؟! لقد سبق لمرقـيون (ت ١٦٠)، بسـبب ذلك، وألغى العـهدَ القـديم من مجموعـة الكتب المقدّسة. وسبق للمسيـحيّين أيضاً، وألغوا صلواتٍ كثيرة ومزامير عديدة من كـتبهم الليتورجيّة، تكثر فيها تعابير الحرب والعنف والحقد والبغض والتدمير.

٢٨ . لهذا، وحتّى نقرأ جـيّداً نصوص «حروب الله» في العهـد القديم، يجب أن نتـذكّر أمـرَين ثابتَين في سلوك الله مع البشر :

الأمر الأوّل – إنّ إله العـهـد القديم يتـصـرّف مع شعبه كـ «مربٍّ» يعرف تمامَ المعرفة أنّه لا يستطيع أن يعلّم أولادَه بسرعةٍ، وبين يومٍ وآخـر. إنّه «إلهٌ طويلُ الأناةِ» (خر ٣٤/ ٦). إنّه يرضى بشعبٍ يقبلُ سـرَّ حبِّه له ببطءٍ. ولهذا،

وبعد حروبٍ كثيرة، سوف يفهم إسرائيل بأنّ الحلّ النهائيّ ليس في الثأر ومبدأ الدم بالدم، وليس في أن يكون اسم الله «إله حرب» (خر ١٥/٣)؛ بل سوف يكون اسمُه «محطّم الحروب» (يهوديت ٩/٧)، «إلهٌ يَمحَقُ الحروب» (يهوديت ١٦/٢)؛ بل سوف يتميّز، في عهد يسوع، بالمحبّة. واسمه الحقيقيّ: «اللّه محبّة»، «ومَن لا يُحبُّ ما عرَفَ اللّهَ» (١ يو/٤/٨).

الأمر الثاني – حتّى يستطيع شعبُ اللّه أن يترقّى ويتطوّر عبر التاريخ، عليه أن يعيش «منفصلاً» عن شعوبٍ عديدةٍ يعيش بينها، فلا يسلكُ مسلكها، ولا يتخلّق بأخلاقها، ولا تتملّك فيه عاداتها : فمنذ البداية فصلَ اللّهُ إبراهيمَ عن أرضه وعشيرته؛ ومنعه عن أن يضحّي بابنه مثل الكنعانيّين الذين يضحّون بأبنائهم إرضاءً للآلهة... وقد لزم لذلك وقتٌ طويل حتّى يتعلّم إسرائيلُ أنّه يستطيع أن يتخلّى عن عادات الوثنيّين من دون إبادتهم. وكثيرٌ من رجالات العهد القديم فهموا ذلك، فحاربوا العنفَ والثأر والحروب على أنواعها.

٢٩ . الحرب، في العالم، في إسرائيل أو في شعوب الأرض قاطبة، حدَثٌ مأساويّ تدميريّ؛ ولكنّه عاديّ

مألوف. إنّه، في جميع أشكاله، وجهٌ من وجوه الحياة البشريّة على الأرض: فكما الخيرُ يقابل الشرّ، والنورُ الظلمة، والحياةُ مقابل الموت... هكذا هي الحرب مقابل السلام. إنّ الأضداد في هذا الكون تتحكّم بالكائنات كلّها.

إنَّ اللّهَ يريد الخيرَ والنورَ والحياةَ والسلام والسعادة للعالم؛ ولا يريد له الشرَّ والظلمة والموتَ والحربَ والهلاك. غير أنّ هذه كلّها موجودة في حياة البشر، وتؤلّف جزءاً من تاريخِهم. وهم في جهادٍ دائم لينتصر السلام على الحرب، والحياة على الموت، والخير على الشرّ... فلكأنّ الحربَ جهْدٌ لا بدّ منه في الطريق إلى السلام. بل هي القاعدة التي عليها يرتكز السلام.

٣٠ . لقد كان العالم الوثنيّ القديم يتخيّل حروباً ضارية بين الآلهة، يكون فيها انتصارُ بعضِهم على بعض... وما حروب البشر، بعضهم ضدّ بعض، سوى امتداد لحروب آلهتهم. فلكأنّ العنفَ ابتدأ، على ما يبدو، في السماء، بين الآلهة؛ ومنها نزل إلى الأرض حيث طاردَ الآلهةُ بعضهم بعضاً، واقتسموا الأرضَ والنّاسَ في ما بينهم.

ومع أنّ إسرائيلَ وضعَ حدّاً لتعدّد الآلهة، فهو لا يزال يحتفظ بصورةٍ لإله العساكر السماويّة، وللّه المقاتل،

الذي تطيب له الحروبُ على أعـدائه، وأعداء شعـبه، بجند لا يُحصـى عددهم. فهـو، كمـا يحلو للكتـاب أن يسمّـيه: «إله الصباؤوت»، أو «ربّ القوّات»(٧)...

٣١ . منذ البـدء وعـد اللهُ شـعـبَـه بوطنٍ في أرض الميـعـاد. هذا الـوطن لم يدخلْه بالسلـم والمفـاوضـات، بل بالغـزو والقـتـال: «ملاكي يسـيـرُ أمـامك، ويُدخلك أرضَ الأموريّينَ والحِـثّيّين، والفـرزّيّينَ، والكَنعانيّـين، والحُوّيّين، واليَبـوسيّينَ، وأُبيـدُهم... تُحطِّمُ آلهَتَـهم تحطيمـاً، وتُكسِّرُ أنصابَها تكسيـراً... وأُرسلُ رُعبي أمامَكَ، وأُلقي رعبي على كلِّ الشعوب التي تدخلُ إليها. وأجعلُ جميعَ أعدائكَ مُدبِرينَ أمامك. وأُرسلُ الزّنابيرَ أمامَك، فتطرُدُ الحُوّيّينَ والكَنعانيّينَ والحِثّيّينَ من أمام وجهك.. وأسلِّمُ إلى أيديكم سكّانَ الأرض فتطرُدُهم من أمام وجهك...» (خر ٢٣/٢٣-٣١).

غـريب أمر هذا الإله التـوراتيِّ الدمـويِّ، الذي يغلب على ألوهيّـته سفك الـدماء، ودمار الأرض، وقـتل السكّان، وطرد الجميع من أمام وجهه!!

٣٢ . والحروب، على ما يبدو، مقـدّسـة ومشروعة؛

---

(٧) يرد تعبـير «إله الصبـاؤوت» في العهد القـديم، حوالي ٣٠٠ مرّة، ومـرّة واحدة في العهد الجديد (رو ٩/٢٩). راجع تعليق على ١ صم ١/٣-.

حروب هجوميّة وتدميريّة لحضارات الأمم الغريبة، بحجّة أنّها حضارات فاسدة، تدين بتعدّد الآلهة، وبتأليه قوى الطبيعة، ممّا يشكّل خطراً على إيمان إسرائيل. ولذا يوافق اللّه على إبادتها: «لا تقطعْ لهم، ولا لآلهتهم عهداً. ولا يُقيموا في أرضك كيلا يجعلوكَ تخطأُ إليَّ بأن تعبُدَ آلهتَهم، فيكون ذلك لكَ فخًا» (خر ٢٣/٣٢-٣٣).

ويقول أيضاً: «لا تقطَعْ معهم عهداً، ولا ترأفْ بهم. ولا تُصاهرْهم. ولا تُعطِ ابنتَكَ لابنه. ولا تأخذ ابنتَه لابنكَ؛ لأنّه يُبعدُ ابنَكَ عن السَّير ورائي، فيَعبُدَ آلهةً أخرى. فيغضبَ الربُّ عليكم، ويُبيدَكَ سريعاً. بل اصنَعوا بهم هكذا: تُدمِّرونَ مذابحهم وتكسرونَ أنصابَهم، وتُحطِّمونَ أوتادَهم المقدَّسة، وتُحرِقونَ تماثيلَهم بالنّار، لأنّك شعبٌ مقدَّسٌ للربِّ إلهكَ...» (تث ٧/١-٧).

٣٣. وهكذا، وللدفاع عن وحدانيّة اللّه، وعن حقوق إسرائيل ومبادئه وعاداته وطقوسه، كانت الحروبُ بين اللّه من جهة، والأمم الغريبة من جهة ثانية، طاحنةً مستمرّة ومتتالية. وكان النّصرُ فيها، طبعاً، للّه ولشعبه. إنّه نصر سياسيٌّ ودينيٌّ معاً[٨]...

---

(٨) راجع: مز ٢/٨-٩، ٤٥، ٤-٦، ٦٠-٧، ١٤، ١١٠...

أمّا نحن فلسنا نعلم كيف نميّز، في هذه الحروب كلّها، حقَّ اللّه من منافع إسرائيل... وأغلب الظنّ أنّ منافع إسرائيل كانت هي الأولى.

٣٤ . واللّه، الذي حارب من أجل إسرائيل، سوف يرتدّ على إسرائيل إذا ما خان إسرائيلُ العهدَ وارتكب المعاصي. سوف يحاربه بالقوّة ذاتها التي حارب بها أعداءَه. لقد حدث ذلك في زمن مكوثه في البرّيّة (عد ١٤ / ٣٩-٤٤)، وفي عهد يشوع بن نون (يش ٧ / ٢..)، وفي زمن القضاة (١ صم ٤)، وفي ملكيّة شاول (١ صم ٣١)... وانتهى الأمر بإسرائيل ويهوذا إلى دمار شامل.

إلى هذا أشار الأنبياء : لقد ضربَ اللّه شعبه الخاطئ (إش ١ / ٤-٩)، وسمح للغزاة بغزوه[9]، وأجاز لملوك الأمم بأن يستعبدوه (إر ٢٥ / ١٤-٣٨)، وأسلم أرضه إلى يدِ نبوكدنصّر (إر ٢٧ / ٦-٨).

٣٥ . هذه الحروب بين البشر لن تزول عن وجه الأرض، إلاّ بقتالٍ ضارٍ بين الخير والشرّ، المتمثّل بالشيطان الذي يشنّ هجومه على اللّه ذاته[10].

(٩) راجع : إر ٤ / ٥: ٥ / ١٧: ٦ / ٢: إش ٥ / ٢٦-٣٠.

(١٠) راجع : دا ٧ / ١٩-٢٥: ١١ / ٤٠-٤٥؛ يهوديت ٢ / ٨.

ثانياً – الحرب في العهد الجديد

١ . أمّا يسوع فينبذ كلّ عنفٍ في الدفاع، حتّى عن النفس[١١]؛ كما يرفضُ رفضاً قاطعاً أن يُبادَل العنف بالعنف، والبغض بالبغض؛ بل علّم تعليماً صريحاً واضحاً لا لبس فيه، بأنَّ شريعة «السنِّ بالسنِّ والعين بالعين» قد انتهتْ؛ وجاء محلَّها شريعة «أحبّوا أعداءكم، وصلُّوا من أجلِ مُضطَهِديكم» (متى ٥/ ٣٨ و٤٤؛ لو ٦/ ٢٧-٣٠)...

٢ . لقد أصبحتْ «حروب اللّه» حروباً روحيّة، ضدّ الشيطان، وضدّ العالم، وضدّ الشرّ. والشيطان، الذي انتصر على يسوع في الحكم عليه بالصلب والموت، إنّما حكَم هو على نفسه بهزيمةٍ أبديّة. ومن الغرابة أن يكون صليب الذلّ والعار عند يسوع تأكيداً لنصره: «حانَ لهذا العالَم أن يُدان، وحان لرئيسه أن يُنبَذ»[١٢].

٣ . وبعد القيامة، سوف تحضر قوى الشرّ، ويُعرِّيها المسيح القائم من بين الأموات من قواها، ويفضح أمرَها جَهراً، ويجرُّها بصليبه في موكبه الظافر[١٣]. لقد

(١١) راجع: متى ٢٦/ ٥٢؛ يو ١٨/ ١١.

(١٢) راجع: يو ١٢/ ٣١؛ ١٤/ ٣٠؛ ١٦/ ١١؛ لو ١٠/ ١٨...

(١٣) قول ٢/ ١٥: تعبير حربيّ ملحميّ، يشبّه ظفر يسوع بصليبه على قوى الشرّ «مثلما يجرّ القائد الروماني الظافر، في موكب ظفره، أعداءه عبيداً له أسرى أذلاّء» (تفسير

غلبَ يسوعُ العالم بحبّه له، وبموتِه من أجله : «ثِقُوا. فأنا غلبتُ العالَمَ»[١٤]؛ ونحن أيضاً سوف «نغلبُ بالذي أحبَّنا» (رو ٨/ ٣٧).

٤ . بهذا النّصر المبين، بصليبِ يسوع وموته، لم تعدِ الحروبُ من تعاليم المسيحيّة، ولا من حالات الكنيسة في هذا العالم. الكنيسة تدعو إلى سلام المسيح، الذي هو سلام مع اللّه، ومع كلِّ إنسان. هذا السلام ليس من نتاج هذا العالم. لهذا، فإنّ الذين يؤمنون به، سوف يبغضهم العالم؛ «لأنَّ كلَّ مولودٍ من اللّهِ يَظفَرُ على العالَم.. ومَن يظفرُ على العالم إلاّ الذي يُؤمنُ أنّ يسوعَ هو ابنُ اللّه!» (١ يو ٥/ ١-٥).

٥ . والقتالُ، بعد اليوم، لن يكون ضدّ أمم غريبة وآلهة تتصارع، كما كان في العهد القديم؛ بل هو قتال ضدّ أعداء ليسوا من لحم ودم. إنّه قتالٌ ضدّ الشيطان وأعوانه[١٥]، وضدّ هجمات قوى العالم الشرّيرة المتمثّلة بروما بابل الجديدة[١٦].

إونجليون على قول ٢ / ٥ ١).

(١٤) يو ١٦ / ٣٣؛ راجع يو ١٢ / ٣١؛ ١٤ / ٣٠؛ ١٦ / ١١؛ ٢٧ و ١ يو ٥ / ٤.

(١٥) راجع : أف ٦ / ١٠-١٢؛ ١ بط ٥ / ٨-٩.

(١٦) راجع : رؤ ١٢ / ١٧-١٣؛ ١٠ / ١٧.

٦. والأسلحة التي يتسلّح بها المسيحيّ ليست أسلحة من حديدٍ ونار، بل هي أسلحة من نور: «سلاح اللّه» (أف ٦/ ١١و١٣)؛ و«ترس الإيمان» (٦/ ١٦)، و«سيف الروح» (٦/ ١٧)؛ و«خوذة الخلاص» (١ تس ٥/ ٨).

٧. يستطيع العالم، في الظاهر، أن يشنّ هجوماً على المسيحيّين، وأن يضطهدهم ويقتلهم (رؤ ١١/ ٧-١٠)؛ ولكنّه يحوز عليهم نصراً موقّتاً. إنّه نصرٌ يمهّد لفوزٍ أبديّ ولقيامة ممجّدة. وإذا ما كان للمسيحيّين من نصرٍ على هذا العالم، فهم على مثال معلّمهم، ينتصرون عليه بالاستشهاد: «ظفروا عليه بدمِ الحمَل، وبكلمةِ شهادتِهم، وتخلّوا عن أنفسهم حتّى الموت» (رؤ ١٢/ ١١).

***

ثالثاً - مع الإسلام عودة إلى اليهوديّة

١. مع الإسلام، عادت شريعة «النَّفْسِ بالنَّفْسِ والعين بالعين، والأنف بالأنف، والأذن بالأذن، والسنّ بالسنّ»[١٧]. لقد عادت الحروب الدينيّة، وحروب اللّه ضدّ الذين لا يؤمنون بوجوده، أو يشركون بوحدانيّته. يأمر اللّهُ

---

(١٧) سورة المائدة ٥/ ٤٥

في القـرآن بقتـال المشركين أيـنما وُجـدوا. وآيات قتـالهم كثيرة، صـريحة، واضحة. لا تحتاج إلى تفـسيرٍ أو تأويل. بها يأخـذ المسلمون، وعلـيها يعـتمـدون في مواقـفهم من المشركين والكافرين كافّة. وإذا مـا هادنوا اليوم قليلاً فلأنّ مانعاً ما يمنعهم؛ أو لأنّ قلبَ الإنسان فيهم يبدو أكثرَ رحمةً من قلبِ اللّه، والإنســانَ أكثرَ تسـامحاً من اللّه الذي يُجـيز قَتْلَهم، وأكثر رأفة من النبـيّ نفسه الذي كان يقاتل من أجل حقوق اللّه لا من أجل حقوق الإنسان.

٢ . جاء في القرآن : «وَاقْتُلُوهُمْ حَيثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (أي وجدتموهم). وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيثُ أَخْرَجُوكُمْ. وَالفِتْنَةُ (أي الكفر والشرك) أَشَدُّ (أي أكـثر خطراً) مِنَ القَتْل»[١٨]. وقال أيضـاً: «فَـخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُـمْ حَيثُ ثَقِفْـتُمُوهُمْ. وَلا تَتَّـخِذُوا مِنْهُمْ وَلِـيّـا وَلا نَصِــيـرًا» (٤ / ٨٩). وردّد: «فَـخُـــذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَـيثُ ثَقِفْـتُمُوهُم» (٤ / ٩١). وقـال: «فَإِذَا لَقِـيتُمُ الّذينَ كَـفَرُوا فَـضَرْبَ الرِّقَـابِ، حـتّى إذا أَثْخَنْتُمُـوهُمْ (أي أكثـرتم فيهم القتل) فَـشُدُّوا الوَثَاقَ (أي ما يوثق ويُقَـيَّد به الأسـرى)» (٤٧ / ٤). وقال أيضـاً: «فَـقَاتِلُوا أئمّةَ الكُفْرِ. إنّهُمْ لا أَيْمَـانَ لَهُمْ... قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ، وَيُخْـزِهِمْ،

(١٨) سورة البقرة ٢ / ١٩٢ و٢١٨؛ سورة الانفال ٨ / ٣٩.

وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيهِمْ، وَيَشْفِ صُدورَ قَومٍ مُؤْمِنين» (٩/ ١٢-١٤). وأيضاً: «قَاتِلُوا الّذينَ لا يُؤمِنُونَ باللّهِ ولا باليَومِ الآخرِ، ولا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللّهُ ورَسولُه، ولا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الّذينَ أُوتُوا الكتَابَ حتّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ» (٩/ ٢٩). وأيضاً: «وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كافَّةً» (٩/ ٣٦). وأيضاً: «يَا أَيُّهَا الّذينَ آمَنُوا! قَاتِلُوا الّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ (أي الأقرب فالأقرب). وَلْيَجِدُوا فيكُمْ غِلْظَةً (شدّة)» (٩/ ١٢٣).

٣ . الجهاد، إذاً، هو المعوّل عليه لانتشار الإسلام. ومَن يتولَّ عن الزحف يومَ يُعلَن الجهاد يرتكب كبيرةً، ويُحسبُ في عداد الكافرين، وهو من الهالكين في نار جهنّم. وعلى المسلمين قتله شرَّ قتلة: «وَمَنْ يَتَرَدَّدُ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ» (٢/ ٢١٧). والذين يقعدون عن القتال منافقون: «وَلْيَعْلَمِ الّذينَ نَافَقُوا وَقيلَ لَهُمْ تَعَالَوا قَاتِلُوا في سَبِيلِ اللّه، أو دَافِعُوا، قَالُوا: لَو نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ. هُمْ لِلْكُفْرِ يَومَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ» (٣٠/ ١٦٧-١٦٩).

٤ . المسلمون جميعاً مدعوّون إلى القتال، صغاراً وكباراً، أقوياء وضعفاء، أغنياء وفقراء، رجالاً ونساء.

وعليهم أن يستنفروا بعضهم بعضاً للزحف والقتال: «انْفُرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً. وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ» (٩/ ٤١). ولا يعفى إلاّ مَن كان به عرج، أو عمى، أو مرض. قال: «لَيسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ، وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ، وَلا عَلَى المَرِيضِ حَرَجٌ... وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً» (٤٨/ ١٧). وباستطاعة النساء أيضاً الاهتمام بالجرحى، وتشجيع المقاتلين، وترهيب الأعداء، ولمّ النصال الصالحة للاستعمال من جديد، وتوفير الرّاحة والمتعة للمجاهدين بتسليتهم ومجامعتهم...

٥ . ليس على المسلم أن يخاف كثرة الأعداء، أو أن يتراجع عن القتال، أو أن يتولّى عن الزحف، لأنّ الاتّكال لن يكون على قدرته الذاتيّة، بل على قدرة الله وبطشه. وإذا ما تولّى أحدٌ عن القتال فلخدعةٍ في الهجوم، أو لانحيازه إلى فئة مقاتلة أخرى، لا لهربٍ أو إدبار : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً، فَلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ. وَمَن يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ، فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ، وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ. وَبِئْسَ المَصِيرُ» (٨/ ١٥).

***

٦ . وجاء في الأحاديث النبويّة في الحثّ على القتال والدعوة إلى الجهاد في سبيل اللّه، قال الرسول :

١ - "إنّ سياحة أمّتي الجهاد في سبيل اللّه"[١٩]؛

٢ - "ورهبانيّةُ هذه الأمّة الجهاد"[٢٠]؛

٣ - "الحجّ جهاد كلّ ضعيف"[٢١]؛

وفي أنّ الجهاد إنّما هو حجّ المؤمنين، قال:

٤ - "رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"[٢٢]؛

٥ - "إنّ الهجرة لا تنقطع ما كان الجهاد"[٢٣]؛

٦ - "والجهادُ ماضٍ منذ بعثني اللّه"[٢٤]؛

٧ - "جاهدوا مع كلّ أمير"[٢٥]؛

---

(١٩) سنن ابن داود، باب الجهاد، ٦.

(٢٠) مسند ابن حنبل، ٣/ ٢٦٦.

(٢١) سنن ابن ماجه، باب المناسك، ٢٨؛ سنن النسائي، باب الحج، ٤؛ مسند ابن حنبل، ٢/ ٤٢١، ٦/ ٢٩٤ و٣٠٣ و٣١٤

(٢٢) سنن الترمذي، باب الإيمان، ٨؛ باب فضائل الجهاد، ٢٢- سنن ابن ماجة، ١٢؛ مسند ابن حنبل، ٥/ ٢٣١ و٢٤٦ و٢٨٤ و٢٨٥ و٢٨٧

(٢٣) مسند ابن حنبل، ٤: ٦٢، ٥/ ٣٧٥.

(٢٤) سنن ابن داود، باب الجهاد، ٣٣.

(٢٥) سنن ابن ماجة، باب الجنائز، ٣١؛ سنن ابن داود، باب الجهاد، ٣٣.

٨ – " لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد "[٢٦]؛

٩ – " تكفَّلَ اللّهُ بمَن جاهدَ في سبيله... بأنْ يُدخلَه الجنّة"[٢٧]؛

١٠ – "إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه "[٢٨].

وفي فضل الجهاد، جاء على لسان الرسول :

١١ – " الجهاد أفضل العمل "[٢٩]؛

١٢ – وقال: " دُلَّني على عملٍ يَعدِلِ الجهاد. قال: لا أجده "[٣٠]؛

١٣ – وقال: "إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها اللّهُ للمجاهدين "[٣١]؛

---

(٢٦) صحيح البخاري، باب الجهاد، ١/٢٧؛ مسند ابن حنبل، ١/٢٢٦ و٣١٦ و٣٥٥؛ ٣/٢٢ و٤٠١؛ ٥/١٨٧؛ ٦/٤٦٦؛ باب الإيمان، ٤١؛ باب الصيد، ١٠؛ باب المغازي، ٥٣؛ صحيح مسلم، باب الإمارة، ٨٥ و٨٦؛ سنن ابن داود، باب الجهاد، ١٢؛ سنن الترمذي، باب السِّيَر، ٣٢؛ سنن النسائي، باب البيعة، ١٥؛ سنن الدارمي.

(٢٧) صحيح البخاري، باب التوحيد، ٢٨ و٣٠؛ باب الجهاد، ٢؛ باب الخمس، ٨؛ صحيح مسلم، باب الإمارة، ١٠٤؛ سنن النسائي، باب الجهاد، ١٤؛ سنن ابن ماجه، باب الجهاد، ١؛ الموطّأ لابن مالك، باب الجهاد، ٢.

(٢٨) مسند ابن حنبل، ٣/٤٥٦ و٤٦٠؛ ٦/٣٨٧

(٢٩) بخاري، جهاد، ١؛ إمارة ١١٠؛ حجّ ٤؛ صيد ٢٦؛ ترمذي، فضائل الجهاد ١؛ ٢؛ نسائي، جهاد ١٧؛ حجّ ٤؛ حنبل ٢/٣٤٤ و٤٢٤ و٤٣٨ و٤٥٩ و٤٦٥.

(٣٠) بخاري، جهاد ١؛ مسلم، إمارة ١١٠؛ ترمذي، فضائل الجهاد ١: ٢؛ نسائي، جهاد ١٧؛ حنبل ٢/٣٤٤ و٤٢٤ و٤٣٨ و٤٥٩ و٤٦٥

(٣١) ألبخاري، ألجهاد ٤: ألنسائي، ألجهاد ١٨: حنبل ٢: ٣٣٥ و٣٣٩

١٤ – وسُئل النّبيّ: "أيّ النّاس أفضل؟ فقال رسول اللّه: مؤمن مجاهد"[٣٢].

١٥ – وقال: "لقد جعل اللّهُ الجهاد مقياساً لصدق إيمان المسلم"[٣٣].

والحديث النبويّ الشهير، الذي رواه المحدّثون الخمسة، عن أبي هُريرة عن النّبيّ، هو خير دليل على شرعيّة الجهاد ووجوبه على كلّ مسلم ومسلمة. إنّه أمرٌ إلهيّ جاء النبيّ به من عند ربٍّ العالمين. قال رسول اللّه:

١٦ – "أُمِرتُ أن أقاتلَ النّاس حتّى يقولوا لا إله إلاّ اللّه. فمَن قالها عصم منّي مالَه ونفسَه، إلاّ بحقّها وحسابه على اللّه"[٣٤].

***

(٣٢) البخاري، الجهاد ٢.

(٣٣) أنظر سورة الحُجُرات ٤٩: ١٥: «إنّما المؤمنون الذينَ آمنوا باللّه ورسوله، ثمّ لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه، أولئك همُ الصادقون».

(٣٤) وبصيغة أخرى عن أنس بن مالك عن النّبيّ قال: "أُمِرتُ أن أقاتلَ النّاس حتّى يشهدوا أنْ لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمّداً عبدُه ورسوله. فإذا فعلوا ذلك حرمتْ علينا دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها. لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم" (عن التاج ٤: ٣٢٦).

٧ . وجاء في السيرة النبويّة أنّ الجهادَ متواصل، والغزوات مستمرّة، والحرب على الوثنيّين والمشركين والمنافقين واليهود والمسيحيّين لا هوادة فيها. هكذا كانت حياة النبيَ محمّد بعد هجرته إلى يثرب، حيث قضى عشر سنين في القتال والجهاد في سبيل اللّه والإسلام.

وفي كتب السيرة أيضاً أنّ النبيّ قام، هو وأصحابه، في ٢٧ غزوة، و٤٠ سريّة، و٢٤ بعثة عسكريّة، أي ما مجموعه ٩١ معركة، بمعدّل ٩ كلّ سنة. ولهذا اعتبر بعضُ المسلمين، ومنهم الخوارج، الجهادَ فرضاً واجباً يتحتّم على كلّ مسلمٍ أن يؤدّيه؛ لأنّ النبيَّ قضى جلَّ حياته فيه، وفي كلّ أنواعه، من جهادٍ في التبشير والتبليغ والإنذار في سبيل الدعوة في مكّة؛ إلى جهادٍ في القتال والغزوات والحروب في المدينة في سبيل اللّه ونشر الإسلام حتّى لا يبقى إلاّ مَن آمن وقال: «لا إله إلاّ اللّه»، ومن قال بالإسلام ديناً وحيداً في الجزيرة العربيّة كلّها.

والجهاد، عند المسلمين، كما يقول السيّد سابق، هو، في النتيجة، «أفضلُ مِن تطوّعِ الحجّ والعمرة، وأفضل من تطوّع الصلاة والصيام... فيه ينتظم كلّ لون من ألوان العبادات... فيه من عبادات الباطن: الزهد في الدنيا،

ومفارقة الوطن، وهجرة الرّغبات، حتّى سمّاه الإسلام: "الرهبانيّة"، في حديث: "رهبانيّة أمّتي الجهاد"... وفيه من عبادات الظاهر: التضحية بالنفس والمال وبيعهما للّه. وهو ثمرة من ثمار الحب والإيمان واليقين والتوكّل، في قوله: «إنّ اللّهَ اشترى من المؤمنينَ أنفسَهم وأموالَهم بأنّ لهم الجنّةَ يقاتلونَ في سبيلِ اللّه فيَقتلون ويُقتلون» (٩/ ١١١)»[٣٥].

٨. وإذا كان هدف الإسلام هداية البشريّة لاعتناق دين اللّه، ودينُ اللّه هو الإسلام، فلا بدّ، إذاً، «للدولة الإسلاميّة من التوسّع والسّعي باستمرار إلى ضمّ شعوبٍ أخرى. ومنذ البدء كان الشاغل الأوّل الذي استأثر باهتمام الفقهاء هو قانون الحرب، أي الجهاد»[٣٦].

٩. لهذا السبب تأبى العقيدة الإسلاميّة «قبول تعايش الطوائف غير الإسلاميّة معها إلاّ ككيانات ثانويّة، وذلك لأنّها بطبيعتها، كدولة عالميّة، لا تتحمّل وجود دولة أخرى غيرها. وكان خلفاء الرسول الأوائل، بعد أنْ أصبحت الكلمة العليا للإسلام في الجزيرة العربيّة، قد عقدوا العزم

---

(٣٥) السيّد سابق، فقه السنّة، ٢/ ٦٢٨.

(٣٦) خدوري، القانون الدولي، ص ١٤.

على المضيّ في فتوحاتٍ لا نهاية لها باسم الإسلام، فأقبلوا على الجهاد كوسيلة لنشر راية الدين في العالم»[٣٧].

١٠ . وإذا كان هدف الإسلام الأقصى هو شمول العالم، فإنّ دار الإسلام كانت من النّاحية النّظريّة في حرب على الدّوام مع دار الحرب... والجهاد هو إذاً أداة لتحويل دار الحرب إلى دار الإسلام...

١١ . «صحيح أنّ المؤمن الذي يحافظ على الأركان الخمسة يوعَد بالجنّة، غير أنّ أيّاً من هذه الأركان لا يضمن له الجنّة كما يضمنها اشتراكه في الجهاد».

١٢ . وعلى المسلمين أن يظلّوا مجاهدين حتّى نهاية العالم، و«حتّى ذلك الحين فإنّ الجهاد سيبقى، بشكلٍ أو بآخَر، فرضاً قائماً ملزِماً للأمّة الإسلاميّة بأسرها. وهذا يعني أنّ بقاء دار الحرب تحرّمه الشريعة الإسلاميّة، وأنّ دار الإسلام ملزمة بالجهاد على الدوام، حتّى تزول دار الحرب من الوجود»[٣٨]...

---

(٣٧) خدوري، السلم والحرب، ص ٧٥.

(٣٨) خدوري، المرجع نفسه، ص ٨٩.

١٣ . يقول القاسمي: «المجاهدون هم مادّة الإسلام، وهم روح الأمّة، ولحمها ودمها وعظمها، وكلُّ حجيرة فيها. ولولاهم لما قامت للإسلام وللمسلمين قائمة، ولَمَا سمع للناس في مشارق الأرض ومغاربها رسالةَ اللّه إلى خاتم أنبيائه، ولا دَروا بها... والمجاهدون هم أعزّ طبقة في الأمّة، وأعلاها، وأرقاها، وأقربها إلى اللّه... إنّ صورة البطولة بأشكالها المختلفة، وإنّ صورة التضحية المثلى، تتجلّى في الجهاد»(٣٩).

***

١٤ . في الختام نقول: إنّ الإسرائيليّين جعلوا اللّهَ يقاتل شعوبَ الأرض من أجلهم؛ والمسيحيينّ رأوا أنّ المسيح جاء ليصالحَ شعوبَ الأرضِ بعضها مع بعض، ويكسر العداوة بينها بصليبه؛ وعاد المسلمون إلى إله التوراة يدعو إلى القتال والحرب والجهاد من أجله.

١٥ . ولكن، والحقّ يُقال، ليس من شكّ أنّ في العهد القديم دعوةً إلى المحبّة بين البشر؛ إلاّ أنّها دعوة للأفراد ليعيشوا بسلامٍ بعضهم مع بعض، وليس دعوة إلى قبول

---

(٣٩) القاسمي، الجهاد، ص ٢٢٩.

الأمم الغريبة. فمحبّة الغرباء هي ممّا علّم يسوع بأنّ «الله يُشرق شمسَه على الأبرار والأشرار»؛ لأنّ البشر جميعهم، في تعاليمه، أبناء الله.

١٦ . وكذلك أيضاً نجد القرآن يكلّمنا عن إله رحمن، رحيم، ودود، توّاب... ولكنّها صفات يمارسها الله مع المسلمين فقط، وليس مع البشر كافّة. فثمّة تصنيف للبشر في الإسلام، بين مؤمنين وكافرين ومشركين وأبناء ذمّة، وتقسيم للعالم إلى دار سلم ودار حرب ودار معاهدة. والكلّ ليسوا سواء.

١٧ . غير أنّ المسيحيّة جعلتْ محبّة الإنسان عديلَ محبّة الله. بل علّمتْ بأنّ الواسطة إلى محبّة الله هي محبّة الإنسان؛ وليس العكس. والكلام على «حروب الله» ضدّ فئة من الناس هو، بعد يسوع، كلام فاسد. كلامٌ يُعيدنا إلى إله قَبَليٍّ، لا يهمّه سوى شعبه الخاصّ؛ فيما هو إله العالم كلّه، خلقهم جميعاً بمحبّة، وخلّصهم كلّهم بمحبّة فائقة وفدائيّة حتّى الموتِ على الصليب.

الفصل ١٢

اللهُ محبّة هو

إنّ قدرة الله العظمى ظهرت في التاريخ في شخص يسوع المسيح، إنّها القدرة على الحبّ. والحبّ الأعظم هو الذي ظهر في آلامه وموته، من أجل خلاص العالم كلّه.

هذا يعني أنّنا، بآلام يسوع وموته، نستطيع أن نعرف معرفةً أكيدةً مَن هو الله وما هي قدرته العظمى؛ كما نستطيع، بسبب هذا الحبّ، معرفة بعضَ الشيء من جوهره الإلهيّ، والدخول في سرّ طبيعته الإلهيّة.

وما تكبّده يسوع من آلام وموت في حياته الأرضيّة، تكبّده الله الآب في عليائه منذ الأزل. وإذا كان يسوع وُجد متروكاً في الأرض وحدَه على خشبة الصليب، فالله الآب أيضاً كان متروكاً لوحده في السماء قبل الخلق.

فسرُّ صليبِ يسوع، إذاً، كان في صميم كيان اللّه منذ الأزل. والجلجلة كشفتْ عن صليبٍ كان اللّهُ يحمله منذ الأزل. ونحن لن نفهم شيئاً ممّا كان عليه اللّهُ منذ الأزل إلاّ من بعد ما نفهم شيئاً ممّا أصبح عندنا، بين ظهرانينا أمام عيوننا.

فمعرفتنا للأمور السماويّة منوطة، إلى حدٍّ بعيد، بمعرفتنا لما يجري عندنا. فكلام يسوع «مَن رآني رأى الآب» يعني: إذا شاء اللّه أن يكشف لنا عن ذاته، عليه أن يكشف ذلك عن طريق يسوع المسيح مصلوباً.

منذ الأزل اختار اللّهُ لنفسه هذا المصير. فحياة يسوع الزمنيّة كشفتْ لنا عن حياة الآب الأزليّة. وآلام يسوع التاريخيّة كشفتْ لنا أيضاً عن آلام الآب الأزليّة. وآلام اللّه الأزليّة هذه كانت في خلقِه الإنسان حرّاً. ولا بدّ، والحال هذه، من أن نعترف بأنّ آلام اللّه وآلام يسوع هي من جوهر إله المحبّة. ولسنا نعرف اللّه إطلاقاً إنْ أنكرنا ذلك.

ثمّ إنّ ذبيحة الحبّ هذه ليست انفعالاً إلهيّا تجاه خطيئة الإنسان؛ كما أنّها ليست قراراً إلهيّا شاءه اللّه بمحض مشيئته، بمعنى أنّه كان يمكن أن يكون وألاّ يكون.

ذاك لأنّ الصليب ليس حدَثاً طارئاً في تاريخ اللّه. فاللّه الذي هو محــبّة؛ كان لا بدّ له من أن يعــبر بالألم والموت إلى هذه المحبّة. بــهذا، تكون الجلجلة إعلاناً صـارخــاً لجوهر اللّه، في عالَمٍ يسوده الشرّ والألم والعذاب والموت.

اللّه مــحبّــة. ولا يمكنه إلاّ أن يكون كــذلك. والمحبّــة تضحــية وعطاء، وإلاّ فهي أنانيّــة وتسلية. والتضحــية في سبيل الآخــرين هي من جوهر اللّه وطبيعــته، وإلاّ فلا يزال اللّهُ داخلَ ذاته، لا يعــمل إلاّ مــن أجل ذاته. من جــوهر اللّه، إذاً، أن يعطي ذاتَه باستمرار. فلــكأنّه في ذبيحةٍ دائمة، وفي تقدمة مستمرّة. بل هو قربانٌ دائم، ومحبّة متواصلة.

كلّ شيء في اللّه مطلق؛ لأنّه كــائن مطلق. لهذا فــهو يقدّم نفسَه عن نـفسه ولنفسه، بمحبّةٍ مطلــقة تشمل كلَّ ما سواه من الكائنات، ليضعه في ذاته، ويُحبّه كما يُحبّ ذاتَه.

وبما أنّ اللّه مــحبّــة كاملة مطلقــة، فهــو، في الوقت نفســه، متجرّد تمامــاً وبالمطلق. إنّه يُحبُّ نفسَه بتــخلّيه عن نفســه. وهذا مــا لا يقــدر عليــه إلاّ اللّه الذي ينفــتح، بهــذا «التلاشـي»، على آخرِ عــبدٍ من عبيده. إنّه مصــيرٌ مأساويّ، أدّى به إلى أبواب الجحيم؛ مــصيرٌ جمع فيه مصــائر البشر كلِّهم، ليقول لهم هذا الكلام: أنا، لشــدّة محبّتي، تألّمتُ ومتُّ

وكان لي هذا المصير حتّى التلاشي. وأنتم، من حيث أنتم، تضعون أيديكم في يدي، لتصعدوا من تلاشيكم إليّ، إلى مستوى المحبّة. لهذا، علينا أن «نتذكّر موتك يا ربّ»، جواباً على رغبتك وطلبك منّا: «أذكروا موتي حتّى مجيئي».

محبّة الله لذاته تنبع من ذاته، وتخرج من ذاته، لتعود إلى ذاته. هذه الحركة المنفتحة في الله من الله وإليه، هي حركة ثالوثيّة. وبكونها كذلك تنفتح على العالم؛ أو أيضاً، بكونها منفتحة على العالم هي ثالوثيّة. فالمحبّة عطاء، وتجرّد، وخروج من الذات. تمتلك ما تعطي. وتسعد بما تعطي. وتضحّي بما تعطي. وهذا هو السبب الذي به سلّم الله ذاته ذبيحةً. ولهذا هو إله حقيقيّ.

على الله، والحال هذه، أن يقدّم نفسَه ذبيحةً ليكون إلهاً حقّاً. عليه أن يمرّ عَبر التاريخ ليكون أزليّاً. عليه أن يحيا كالبشر ليكون ربّهم ومثالهم. عليه أن يكون إنساناً ضعيفاً خاطئاً ليكون إلهاً كلّيّ الكمال.. فلكأنّ الألوهة لا يمكنها أن تنفصل عن البشريّة، والبشريّة لا يمكنها أن تنفصل عن الألوهة: "كان من الضروري أن يصبح الله إنساناً. وليس إلاّ بهذه الطريقة يمكنه أن يصبح حقيقة إلهاً"

"It was necessary for God to be Man, for

.(١)only so could He be truly God"

المحـبة الإلهـيّة لا تكون كـاملةً إن لم تغـمرْ ضـعف البشر حـتّى التلاشـي. وهذا التلاشـي لا يكون من دون ألم. لهذا فـهي تتألّم بما يناقض طبـيعتَـها؛ وإلاّ فـهي لا تتألّم، وبالتالي، لا تكون محبّةً.

ولكن، إذا كان الله مـحبّةً حبّاً مـتألّماً أيمكن أن يكون بما يناقض طبيعتَه حـتّى يتألّم؟! إنْ وُجد الألم في اللّه فهو الشـرّ بعينه. ولكنّ اللّه يـحبُّ ذاتَه والإنسان بطريقـة غيـر نفعـيّة وغيـر أنانيّة؛ لهذا عليـه تحمّلُ الشـرّ الذي يأتيه من غيره. وبتحمّله الشرّ يحوّله إلى خير، ذاك لأنّ المحبّة المتألّمة، التي هي اللّه، تُحرِّر الطاقةَ الخيِّرة في قوى الشرّ كلّها.

ثمّ، إذا كـان اللّه مـحـبّـة في جـوهره، ومنذ الأزل، محـبّةٌ متألّمةٌ ومـضـحّية، يعني أنّ الشـرّ يجب أن يوجد مع اللّه ذاته، وليس فـقط مع الخليقـة. بهذا يكون اللّهُ مـصدرَ الخيـر والشرّ مـعاً: "القـوى الغاشمـة تأتي من اللّه، وهو المسؤول عـنها. الخيـر والشرّ ينـحدران من ينبـوع واحد. ولهـذا، هـمـا شيء واحـد" "Brute force... comes from God and He is responsible for it. Good and Evil

(١) J.Hinton, The Mystery of Pain, Edinbourg, 1866, p. 203

come from the same source and are therefore "precisely the same thing"[٢].

كيف نفهم ذلك؟ نقول: "إنّ الشرّ موجود، لا لأنّ الله أوجده، بل لأنّ اللّه قد رفض خلقه" "Evil exists precisely because He commands it not to exist"[٣]، كما نقول مثلاً: إنّ الله خلق النظام فقضى على الفوضى. وتبقى الفوضى تهدّد النظامَ باستمرار. هكذا الشرّ يبقى يهدّد الخير باستمرار، بالرّغم من قوّة المحبّة الإلهيّة المتألّمة التي كان لها همّ الانتصار عليه، لا همّ إزالته، وهمّ الانتصار على الموت، لا همّ إبادته.

فغبطة اللّه الأبديّة لا تعني إطلاقاً القضاءَ على الألم. بل العكس تماماً: إنّها غبطة بسبب قبول الألم وتحويله إلى سعادة وخير ومجد. قدرة اللّه المطلقة ليست إلاّ رمزاً دينيًا لسلطته المطلقة ولوحدانيّته. إنّ الناس، في عمق أعماق قلوبهم، لا يكرّمون ولا يحبّون إلاّ الإله الجريح، المتألّم، المائت، المنكسر، المغلوب.. هذا هو اللّه الذي يرغبه القلب ويحبّه. ودليلنا على ذلك حشد المؤمنين العظيم يومَ الجمعة العظيمة، ويوم أحزان البشر في ساعات الوداع الأخير.

(٢) op.cit. p.124.

(٣) op.cit. p. 126.

إلهٌ باردٌ، متجلِّد، متبلِّد، لا يحبّ ولا يكره، لا يتألّم ولا يموت.. هو إلهٌ فكرةٌ، لا أكثر ولا أقلّ. إلهُ مقولةٍ فارغة باردة، لا تضرّ ولا تنفع. وكيف للعالم المتألِّم أن يخرج من ورطته هذه؟! العالَم الحقيقيّ يتألّم. وليس هو عالم فكرة. وكذلك هو الله.

أولئك الذين قالوا بوحدانيّة الله وصمدانيّته وتعاليه، والذين قالوا «لَيْسَ كَمِثْلِه شَيْءٌ»، والذين قالوا بأن ليس له صاحبةٌ، ولا وَلَد، ولا شريك، ولا شبيه، ولا ندّ، ولا ضدّ، ولا كفؤ... هؤلاء هم أنفسهم قالوا بأنّ الله رحمن، رحيم، ودود، خالق، يعتني بالعالم ويتوب إليه، يغفر ويسامح ويتكلّم مع نبيّين ورسلٍ وفي كتبٍ منزلة ... أليس في هذا تناقض فاضح؟!..

ولكنّ هذا التناقض يُفهم بأنّ الإنسان يحتاج إلى أن يجد في الله صفات المحبّة والرحمة والحنان. لقد وجدها في نفسه فنقلها إلى الله لكي تخفّ وطأة وحدانيّة الله عليه.

لقد نجح البشر الذين قالوا بآلهةٍ عديدةٍ يتشاركون، أو يتصارعون. بهذا القول أوجدوا لهم عند هؤلاء الآلهة مكاناً. ألزموهم بمحبّتهم. عرّفوهم على خصائصهم، وصوّروا لهم وجوههم. للآلهة المتعدّدة وجه وعقل وقلب

ومحبّة وحنان... هذه الخصائص لا تجوز على الإله الواحد الوحيد الأحد البعيد الصمد...

هذا الإله الواحد الأحد مجهول الصورة والهويّة.

في هذه الأحديّة الإلهيّة تناقض في الدّاخل: إنّها لا تستطيع أن تفسّر لنا كيفيّة انبثاق الحركة من اللاّمتحرّك؟ وكيفيّة ظهور الكثرة من الواحد؟ وكيفيّة تكون المادّة من الرّوح؟.. إنّ الأحديّة المنسجمة مع ذاتها تنفي وجود العالم. والحال، إنّ العالَم موجود، وموجود حرّا، متحرّكًا. لهذا يقع أصحاب الأحديّة في الثنائيّة من حيث لا يدرون.

ففيما هم يشدّدون على لاحركيّة الله وحركيّة العالم، ويفصلون بينهما فصلاً واجباً جذريًا؛ فإنّهم، من جهة، يصفون جوهر الله البسيط بتعابير مأخوذة من غير الجوهر البسيط؛ ومن جهة، يعتمدون على زوال العالم ليؤكّدوا ديمومة الله. وبالتالي، يقولون بالله وبالعالم معاً، أي يؤمنون بثنائيّة. ولَيتّهم قالوا بثلاثة لكنّا عرفنا في الله محبّةً وحرّيّةً وحركةً في ذاته ونحو الآخرين بطريقة أفضل وأصحّ!

وفي الحقيقة، لا أحديّة يمكنها أن تُفسَّر من دون ثنائيّة. والذي يريد أن يحدّد اللّهَ بنفي العالم يجعل الثنائيّة

بين اللّه والعالم غيرَ مقــبولة، ولكنّه يقول بها. وإذا كان هذا صـحيحاً فليس لنا إلاّ أن نذوِّبَ الــثنائيّةَ والأحديّةَ في جدليّة تاريخيّة مستمرّة؛ لا حلّ لها، ولا منفذ فيها نحو شـيء. إنّها مأساة إلهيّة، أين منها القول بآلام اللّه وموته!.

فأيّهم أقـرب إلى الإنسـان وأكثـر نفعاً؟ آلهــة عديدة لهم هويّة؛ أم إلهٌ واحد بلا هويّة؟!

وفـي كلّ حــال، لا الآلهــة الكثيــرة ولا الإله الواحــد يسلّم العقلُ بهــم. فاللّه، في تحديده، لا يخـضـع للعقل، ولا للعدد، لا للكثرة ولا للوحدانيّــة؛ كما لا يخضع للجنس، ولا للزمان ولا للمكان... مقـولة العدد مقولة عقليّــة إنسانيّة، لا تطبّق على اللّه. غـيـر أنّنا، بكوننا في مكان وزمــان وجنس وعــدد، لا نعرف اللّهَ إلاّ فــي أطرها. والأنسب الأهون لنا أن يكون اللّهُ لنا، هنا، ونحن على هذه الأرض، بــالصورة التي ندركه فــيها، أي متــعدِّدَ الظهور والفعل والحــياة... هنا هو كـذلك، مثلّــث الجوانب ليـقــوم بذاته... أمّــا هناك فســوف نعرف، أو لا نعــرف، كيف هو. إنّه سرّ اللّه الذي يبــقى سرّاً ليبقى إلهاً، ونبقى نحن خليقته.

ثمّ ليس من كــائنٍ، إلهاً كــان أم إنسـاناً، يســتطيع أن يكون حرًا، إنْ كــان وحدَه، مقيَّــداً بذاته، محبًّا لذاته، عــاملاً

من أجل ذاته. الحرّيّة قيمةٌ إلهيّة وإنسانيّة. ولا يكون اللّهُ، أو الإنسانُ، حرًّا إلاّ بمواجهة حرّيّة الآخرين. حرّيّة الكائن الواحد الأحد لا معنى لها. لا هي حرّيّة ولا هي استعباد. لا هي محبّة ولا هي بغض. لا تنبئ عن شيء. ولا توصل إلى شيء.

في اعتقادي أنّ اللّه الذي يحبّ خليقته بحبٍّ لا متناهٍ، يشعر بالحبّ والحزن معاً عند موتِ كلّ واحدٍ منّا. وشاء أن يكون له ابنٌ يتألّم ويموت، حتّى يبرهن لنا ما ليس بوسعنا معرفته بنفسنا، وهو أنّه يتألّم حقًّا لآلامنا، ويموت حقًّا لموتنا. وهذه ليست تمثيليّة إلهيّة على الأرض. إنّها حقيقة سماويّة تحقّقتْ مأساتها عندنا. وهذا ما يؤكّد لنا، مرّة أخرى، بأنّنا، في نظر اللّه، كائنات أبديّة، لنا في قلبه مكانة تكاد تكون مطلقة.

آلامنا وأمراضنا وعذاباتنا وهمومنا ومعاناتنا وموتنا تفيدنا بأنّنا كائنات إلهيّة أبديّة. لنا، في قلب الألوهة، عشق. صرخة يسوع من على الصليب: «إلهي إلهي لِمَ تركْتَني» كانت قاسيةً على قلب الآب بالقدر الذي كانت على يسوع نفسه، وأقوى. أقوى لأنّ الآب لم يتحرّك باتّجاه ابنه.

إنّنا أمام أمرَين صعبَين: إمّا أنّ اللّه يترك البشر يتألّمون وهو يتفرّج عليهم؛ وإمّا أنّهم يتألّمون فيتألّم معهم. واللّه الذي يترك الأبرياء يتألّمون نشتكي عليه، إن نجحنا نزيحه من مكانه؛ وإنْ لم ننجح فعليه هو أن يزيلنا من الوجود إلى العدم. وقبل أن يصنع بنا هذا، قد ننتحر؛ وبالتأكيد ننتحر؛ لأن لا مخرج لنا من كونٍ مفسودٍ، سوى بالانتحار... أمّا اللّه الذي يتألّم مع المتألّمين ويموت مع المائتين فهو هو الذي يدافع، لا عنّا فحسب، بل عن نفسه أيضاً. ونجد له في ذلك مبرّر وجوده.

أين هو هذا الإله المتألّم الذي نجد في آلامه مبرّر وجوده؟ لا جواب عندنا إلاّ في الإله المصلوب. الإله المصلوب هو الطريق الوحيد المفتوح نحو معرفة اللّه معرفة حقيقيّة. إنّ سرّ العالم هو في سرّ آلام اللّه. لهذا يتحتّم علينا ألاّ نتكلّم على اللّه إلاّ من خلال اللّه مصلوباً: لا يُعرف الآب إلاّ من خلال الابن. ولا نعرف شيئاً البتّة عن اللّه إلاّ من خلال الابن مصلوباً. وفي غير الصليب نسير في ظلام.

***

الحرّيّة هي الأساس العميق لوجود العالم وتاريخه. لو لم يشأ اللّهُ العالَمَ حرّاً، لما كان، بالنسبة إلينا، لا اللّهُ ولا

العالَم. فلأنّ العالَمَ حرّ فله تاريخ. وبما أنّ الإنسان يستعمل حرّيّته دائماً بطريقة سيّئة، فالتاريخ يتحوّل إلى مأساة. إنّها مأساة الحرّيّة لا مأساة نظامٍ خلقه اللّه بإتقان. والحجّة الوحيدة على أنّ اللّه يتألّم، وأنّ آلامَه تحتلُّ قلبَ العالم، تكمن في أنّ اللّه يريد الحرّيّة.

ولأنّ اللّهَ يريد الحرّيّة، فإنّنا نجد في طبيعته بعض الزوايا المظلمة. وهي تلك الإمكانيّة لأن يكون ما هو وما ليس هو. إنّها إمكانيّة مصيرٍ مأساويٍّ في الحياة الإلهيّة نفسها، إمكانيّة أن لا يكون اللّه واحداً، إمكانيّة الآلام التي بها يكون اللّه إلهاً. ومن دون هذه لا يكتمل العالم، ولا يتحرّر، ولا يبلغ خلاصه، ولا اللّه يبلغ ملءَه.

الإيمان المسيحيّ هو اختبار الحرّيّة اللاّمحدودة الناتجة عن الحركة في صميم الحياة الإلهيّة. ومَن ينكر الحركة في الطبيعة الإلهيّة ينكر الثالوث الإلهيّ أيضاً. وينسف الإيمان المسيحيّ من أساسه؛ لأنّ سرّ المسيحيّة يكمن في معرفة ثالوثيّة اللّه، ومعرفة ثالوثيّة اللّه تكمن في كونه حبّاً متألّماً إلى آخر حدود الألم والتلاشي.

الحركة في اللّه تُفهَم بحنين اللّه الداخلي نحو كائنٍ آخر بإزائه، الذي هو، بالنسبة إليه، موضوع محبّته

السامية واللاّمحدودة. إنّ في اللّه شوقاً نحو آخر بإزائه وبمستواه، أي نحو ذاتٍ أخرى. والذات الأخرى هي «صورته»، أي الإنسان. وإذا كان له هذا الشوق فليس بسبب نقص في كيانه، كما هو حالنا؛ بل بسبب فيضٍ من ملئه الخالق. والحركة الخلاّقة هي آية مميّزة لكمال الكائن. إنّ اللّهَ يتوق إلى ذاته الأخرى ليحرّك محبّته الخلاّقة. بهذا تسقط كلّ مقولة بأنّ الحركة، في اللّه، علامة نقص. فهي، إنْ كانتْ نقصاً، بالنسبة إلينا، فهي ليست كذلك بالنسبة إلى اللّه.

إنّ توق اللّه إلى ذاته في داخل ذاته هو في الحقيقة مفتاح لغز الكون. لولا هذا التوق لما كان ما كان. محبّة اللّه للكون لا تكفي لكي يكون الكون. قد تكون حاجةً فيه، لا كمالاً. إنّما محبّة اللّه للكون انطلقتْ من توقٍ داخليٍّ فيه. لهذا كان الكون آيةً من آيات محبّة اللّه، لا آيةً من آيات كماله.

في الثالوث المسيحيّ تفسير رائع لهذا التوق الإلهي: الآب يُحبّ الابنَ منذ الأزل. إنّه حبّ لذاته، لا لغيره. ومع حبّه لذاته كان حبُّه لغيره. والحبّ هو نفسه لذاته ولغيره. خلق اللّهُ الآبُ العالَم لشدّة حبّه لابنه. الخلق، في أساسه،

إذاً، ليس عملاً خارج اللّه؛ بل في داخله، في صميم الألوهة، في التبادل الثالوثي.

وخلْقُ العـــالم ليس إلاّ تاريخ الحبّ الإلهـي بين اللّه والكون؛ إنطلاقاً من حبٍّ داخليٍّ نفـذ إلى الخارج. هذا الحبّ الدّاخلي الذي نفذ إلى الخارج يتضـمّن، بالقوّة، تجسّد اللّه. لهذا، فإنّ تجسّد ابن الـلّه لم يكن جواباً على خطيئة، بل هو، في حـقيـقتـه، كمـال شوق اللّه الأزلي، في أن يلتـحم، من جديد، بصـورته، في أن يصير إنسـاناً، وفي أن يصنع من كلّ إنسانٍ إلهـاً، إلهاً آخرَ يشتـرك بحياة اللّه ويتـجاوب مع محبّتـه. فلكأنّ الثالوث أصبح اللّه والكون كلّه، لا عن طريق الحلول، الذي يبطل كلّ شيء، بل عن طريق القول بوحدانيّة اللّه ووحدانيّة كلّ ذاتٍ لها في قلب اللّه وجود مميّز.

إنّنا، هنا، ندرك ثالوثيّـةَ اللّه جـيّداً. ويحـبّنا ونحبّـه بسبب ذلك. أمّا هناك فندركه واحداً يتمـيّز عنّا بامتياز، بعد أن ننال منه مـيزة وحـدانيّتـنا وفرادتنا. ولولا هذا لما كـان للخلاص والسعادة والحياة الأبديّة معنى.

❊❊❊

إنّ إلهاً يتّصف بالمحبّة، ويتميّز، بسبب محبّته، بالألم والموت.. لا يمكن أن نتّهمـه بصنع أيّ شيء يميّز إنساناً عن

إنسان، وبنوع خاصّ، لا نتّهمه بصنع أديان ومذاهب، ولا بإنزال شرائع وكتبٍ وإنبياء ورسلٍ وحقائق سماويّة، جعلت الناس يختلفون في ما بينهم بسبب تمييز اللّه لهم، أو بسبب اختيار اللّه له شعباً من دون سائر الشعوب.

إنّ اللّه الحبّ المتألّم لا يمكن أن يفرض ذاته على الإنسان الذي أحبّه حبّاً كاملاً.. لهذا، فإنّ كلّ ما اتُّهم اللّه به من تدخّل في تاريخ البشر، غير تدخّله بالحبّ والألم والموت والنزول إلى أعماق الجحيم، أللّه منه بريء.

لا يمكن للّه أن يناقض ذاته إلى هذا الحدّ، فيتدخّل في الإنسان، من جهة، ليميّزه عن غيره، ثم يتدخّل فيه لمحبّته له، من جهةٍ ثانية.

إنّ في القول بأنّ اللّه صنع كلّ هذه الأديان، وبالتالي كلّ هذه الاختلافات بين البشر، تطعن في اللّه نفسه، لأنّ اللّه، في طبيعته، محبّة. ولا يمكن أن تكون محبّة بين بشرٍ مختلفين على اللّه نفسه. وليس الدّين، في حقيقته، إلاّ إثباتٌ لإله يتناقض مع المحبّة. إنّه إله عنصريّ، فئويّ، يميّز إنساناً عن إنسان.

لا حلّ عندنا، لمعرفة اللّه معرفةً صادقة وحقيقيّة، إلاّ في إلغاء الأديان المتجمّدة بشرائع جامدة، لا تتطوّر ولا

تطوّر معــها الإنسانَ والمجتمــع. وقد آن الأوان وحان الحين لتحرير اللّه والإنسان معــاً من الشرائع والثوابت والحقائق الجامدة، تلك التي تقيّد الإنسانَ وتكبّله باسم اللّه.

الفصل ١٢

اللّهُ أبٌ

تقدّم لنا الأناجيلُ يسوعَ إبناً للّه؛ كما تقدّم لنا اللّه أباً له. هكذا بدأ مرقس إنجيلَه، حيث قال: «بَدْءُ البُشْرى بيسوعَ المسيحِ، ابنِ اللّه» (مر ١/ ١). وهكذا أنهى يوحنّا إنجيله، كهدفٍ سعى إليه في تأليفه، فقال: «لِتُؤمِنوا أنّ يسوعَ هو المسيحُ، ابنُ اللّهِ» (يو ٢٠/ ٣١).

وتجرّأ الإنجيليّون كلّهم على تسمية يسوع «ابناً للّه»، واللّه «أباً له»، لأنّهم فهموا جيّداً مسيرة يسوع في كلامه، وسيرته، وعمله، وبشارته. فحياتُه كلُّها كانت حياة «ابنٍ» مطيعٍ لأبٍ شاء خلاصَ البشر بأكبر حبٍّ يمكن أن يحمله

إليــهم. لـهـذا ذكـروا وركّـزوا على أنّ يســوع هو «ابن اللّه» حوالى ١٧٠ مرّة.

***

يقدّم العهد القديم اللّهَ «أباً»؛ إلاّ أنّ مفهوم الأبوّة فيه ليس كما هو في العهد الجديد. إنّما هنا فتُفهم بطريقة مغايرة تماماً:

فاللّه أبٌ، ليس بكونه والداً، بل بكونه خالقاً محبّاً متفانياً في حبّ الإنسان[1].

ولم يهتمّ اللّهُ بخلاص إسرائيل من عبوديّة مصر إلاّ لأنّه يتمتّع بصفات الأبوّة[2].

ومحبّة اللّه لشعبه، أثناء تاريخه معهم، هي كمحبّة أبٍ لأبنائه[3].

ومع هذا، فتسمية اللّه «أباً» لم تكن من دون حذر، وذلك خشية أن تُفهم هذه الأبوّة بمفهوم بيولوجيّ، أو ميتولوجيّ.

---

(١) ر. تث ٣٢, ٦؛ ملا ٢/ ١٠.

(٢) رَ خر ٤/ ٢٢؛ أش ٦٣/ ١٦؛ إر ٣١/ ٩.

(٣) رَ. هو ١١: ١ ـ ٤ و٨.

يُطلق العهد القديم تسمية «أب» على اللّه حوالى ١٥ مرّة[٤]: الملك، في إسرائيل، هو الذي يحتفظ بعلاقة بنوّة مع اللّه (٢ صم ٧ / ١٤). ويُقال بأنّ اللّه يُولد الملك عند اختياره له وتتويجه، يقول له: «أنتَ ابني وأنا اليومَ ولدتك» (مز ٢ / ٧).

ومع سفرَي الحكمة وابن سيراخ القريبَين من العهد الجديد، أصبح اللّه أباً لكلّ فرد، وله علاقة أبوّة مع كلّ واحد: «أيّها الربُّ، أبو حياتي، وسيّدُها» (سي ٢٣ / ١)، أو «أيّها الربُّ، أبو حياتي وإلهُها» (سي ٢٣ / ٤).

ويسمّي سفر الحكمة اللّهَ أباً بوضوحٍ تام؛ يقول: «لكنَّ عنايتَك، أيّها الأب، هي التي تقودُه» (حك ١٤ / ٣). وكان ذلك، وكأنّه مقدّمة لما سيكون عليه العهد الجديد.

***

ترد تسمية اللّه «أباً» في العهد الجديد حوالى ٢٥٠ مرّة؛ حيث لم يعد اللّه «أباً» لإسرائيل وحده فحسب، بل هو «أب» لجميع البشر. وهو بنوع خاصّ، «أب» لابنٍ وحيد، هو يسوع المسيح، وبطريقةٍ مميّزة. وأصبح اسمُ اللّه، في العهد

---

(٤) تث ٣٢ / ٦: ٢ صم ٧ / ١٤: ١ أخ ١٧ / ١٣: ٢ / ١٠: ٢٨ / ٦: مز ٦٨ / ٦: ٨٩ / ٢٧: أش ٦٣ / ١٦ (مرّتان): ٦٤ / ٧: إر ٣ / ٤ و١٩: ٣١ / ٩: ملا ١ / ٦: ٢ / ١٠.

الجديد: «الأب»، ولا يعرف على لسان يسوع إلاّ بهذا الاسم. وهو بهذا الاسم يتميّز عن آلهة الأمم كافّة.

لقد باتت تسمية اللّه «أباً» مألوفة عند يسوع في العهد الجديد. وليس أقلّ من ١٧٠ مرّة ترد في الأناجيل: ٤ مرّات في مرقس؛ ١٥ مرّة في لوقا؛ ٤٢ مرّة في متّى؛ ١٠٩ مرّات في يوحنّا. ونلاحظ استعمال الكلمة تصاعديّاً، أي بمقدار تقدّم التقليد الكنسي. وهذا ما يعني أنّ الإنجيليّين أنفسهم أدركوا بُعد هذا الأسم فوضعوه على لسان يسوع.

ومع هذا، نستطيع القول بأنّ التسمية تعود إلى يسوع نفسه. فاللّه «أبٌ» بالمطلق[٥]؛ وبنوع خاصّ «أبي»[٦].

ثمّ إنّ دعوة يسوع للّه بكونه «أباً» هي دعوة مألوفة ومستمرّة. وهو يصلّي له لكونه كذلك[٧].

مرّة واحدة فقط لم يدعُ يسوع اللّهَ أباً، وهو على الصليب؛ لأنّه استشهد بكلمات من المزمور (٢٢ / ٢)، حيث

---

(٥) مر ١٣ / ٣٢؛ لو ١١ / ١٣)؛ أو «أبوكم» (مر ١١ / ٢٥؛ متى ٥ / ٤٨؛ لو ٦ / ٣٦ و٣٢؛ ١٢ / ٣٠

(٦) متى ١١ / ٢٧ وما يقابلها: لو ١٠ / ٢٢؛ مر ٨ / ٣٨

(٧) ر: مر ١٤ / ٣٦ وما يقابلها في متى ٢٦ / ٣٩؛ لو ٢٢ / ٤٢؛ وفي متى أيضاً ٢٦ / ٤٢، وهو خاصّ به؛ وفي لو في مناسبتَين لو ٢٣ / ٣٦ و٤٦؛ وفي يوحنّا تسع مرّات: يو ١١ / ٤١؛ ١٢ / ٢٧ و٢٨؛ ١٧ / ١ و٥ و١١ و٢١ و٢٤ و٢٥

يدعو اللّه باسمه: «إلهي! إلهي! لمَ تركتني»[٨].

ثمّ إنّ يسوع، في مرقس، كان يتوجّه إلى اللّه «أبيه» باسمه الآرامي: «أبَّا» abba (مر ١٤/٣٦). وهي تسمية حميمة نابعة من القلب.

وكذلك استعمل القدّيس بولس اللفظة الآراميّة، فقال: «فلأنّكم أبناء، أرسلَ اللّهُ إلى قلوبنا روحَ ابنِه صارخاً: «أبَّا، أيّها الآب!» (غل ٤/٦). وبهذا الرّوح عينه، روح البنوّة لا روح العبوديّة، «نصرخُ: أبَّا، أيّها الآب!» (رو ٨/١٥).

إنّ لفظة «أبَّا» التي استعملها يسوع، ليدعو اللّهَ بها، هي لغة الأطفال مع آبائهم. وهي لفظة لا تليق باللّه عادةً، لا في المجتمع اليهودي، ولا في المجتمع اليونانيّ. ومع هذا، فاستعمالها، على لسان يسوع، يبدو أكيداً.

ثمّ إنّ يسوع يشكر اللّهَ أباه عمّا أظهر للأطفال[٩]؛ ثمّ يقول إنّ كلّ شيء له هو من اللّه أبيه[١٠]. ويسوع أخذ «كلَّ شيء» من أبيه؛ فيما الفرّيسيّون والكتبة أخذوا من الأقدمين (مر ٧/٣ و٩).

---

(٨) مر ١٥/٣٤ وما يقابلها في متى ٢٧/٤٦.

(٩) متى ١١/٢٥-٢٦ وما يقابلها في لو ١٠/٢١.

(١٠) متى ١١/٢٧؛ لو ١٠/٢٢.

ثمّ إنّ المعرفة بين الابن والآب متبادلة؛ لأن «لا أحد يعرف الابن إلاّ الآب، ولا أحد يعرف الآب إلاّ الابن»[١١]. هنا، نفترض محبّة الأب لابنه، ابنه الحبيب[١٢]، ومحبّة الابن لأبيه بطاعته وخضوعه له[١٣]؛ لأنّ يسوع هو الذي يعرف الآب، ويكشفه لنا، بل يكشفه للأطفال وللبسطاء[١٤].

هذا المفهوم للّه كأب يبلغ ذروته عند يوحنّا: «الإبنُ الأحدُ اللّهُ، الكائن في حضن الآب، هو هو خبّر» (يو ١/ ١٨).

ومثل يوحنّا مثل سائر الإنجيليّين، حيث إنّ يسوع هو ابن اللّه، واللّه، بالتالي، هو «أبوه»[١٥]. ونحن، إذا ما دعونا اللّهَ «أبانا»، فلأنّ يسوع حثّنا على ذلك[١٦]. ونحن نتوجّه إليه، بإلهام من الروح القدس، بكونه «أبًا»[١٧].

ويبقى فرقٌ بيننا وبين يسوع بالنسبة إلى اللّه: صحيح أنّ اللّه «أب» ليسوع، و«أب» لنا، ولكن ليس في ذات

---

(١١) متى ١١/ ٢٧ ب ج، وما يقابلها في مر ١٠/ ٢٢ ب ج.
(١٢) متى ٣/ ١٧؛ مر ١/ ١١.
(١٣) لو ٢/ ٤٩؛ متى ٢٦/ ٣٩؛ مر ١٤/ ٦
(١٤) متى ١١/ ٢٥-٢٦ وما يقابلها.
(١٥) مر ١/ ١؛ يو ٢٠/ ٣١.
(١٦) متى ٦/ ٩؛ لو ١١/ ٢.
(١٧) رو ٨/ ١٥؛ غل ٤/ ٦.

العلاقة: «أصعد إلى أبي وأبيكم» (يو ٢٠/١٧). ولكنّ محبّة الله كـ«أب» هي نفسها محبّته لنا ولابنه يسوع. وهذا ما قاله يسوع أيضاً، فقد صلّى لأبيه: «ليكونَ فيهم حبُّكَ لي» (يو ١٧/٢٦).

في كلّ هذا دليل ساطع على أنّ اللّه لا يُسمّى إلاّ باسم واحد، ولا يوصف، بالنسبة إلى البشر، إلاّ بصفة واحدة، هي صفة الأبوّة. وغير هذه الصفة يدلّ على علوّ اللّه وسيادته على الخليقة. وهذا ما ينفي أيّة علاقة حبّ بينه وبين الإنسان. ولهذا درجت المسيحيّة، عبر تاريخها، وفي تعاليمها، على تسمية اللّه «أب».

مع اعترافنا بأبوّة اللّه لنا وليسوع المسيح، يتحطّم أمامنا كلّ ما علّمته وتعلّمه الأديان. فلكأنّ أبوّة اللّه في المسيحيّة تناقض إله الأديان. وهو فعلاً كذلك، لأنّ الأبوّة تعني إلغاء كلّ الحدود بيننا وبين اللّه، فيما الدّين يرسم حدوداً عاليةً جداً، ويسنّ شرائع أزليّة، أبديّة، ثابتة، لا يهزّها أيّ تطوّر أو تقدّم أو تغيير.

***

هناك تناقض كبير بين مفهوم الدّين للّه ومفهوم المسيح والمسيحيّين: اللّه الذي تقول به الأديان كافّة هو إله مشترع، يميّز شعباً عن شعب. يختار شعباً ويرذل شعوباً عديدة. بل هو يساعد شعبَه المختار على قتل سائر الشعوب.

أمّا اللّه عند يسوع فهو إله لكلّ البشر. إنّه أب يعتني بخلقه أجمعين، ويهمّه خلاص الجميع، لأنّ جميع البشر هم أبناؤه. وكلّهم يستحقّون محبّته وحنانه وسعادته. وليس إنسانٌ محروماً من محبّة اللّه ورحمته وحنانه وعطفه.. وإلاّ كان اللّهُ إلهاً ظالماً شرّيراً، إلى أبعد حدود الظلم والشرّ.

مع هكذا إله نتساءل إذا ما لم يكن الانتحار هو الحلّ، أي انتحار الإنسان المظلوم ظلماً عظيماً، من إلهٍ قدير كلّ القدرة.

إله الأديان كافّة هو هذا الذي يختار شعباً من دون شعب، ويفضّل إنساناً على إنسان.. أبسط ما يمكن أن نقول: إنّ هذا الإله، أي إله الأديان، لا يتّصف بالأبوّة إطلاقاً؛ بل هو إله شرّير بامتياز.

الفصل ١٤

قيل لكم... أمّا أنا فأقول لكم

تعبيرٌ فريد في الإنجيل، ورد على لسان يسوع، في الفصل الخامس من إنجيل متّى، ستّ مرّات[١]. ورد ذلك في بداية رسالة يسوع، وفي عرضه لشرعة الملكوت، في خطبة الجبل، حيث نجد "أهمّ ما علّم يسوع، ومختصرَ برنامج الملكوت الجديد، وتصوّراً لتلميذ هذا الملكوت"[٢]. ملكوت هو غير ملكوت اليهود تماماً. وقد لا يشبهه بشيء:

«قيل لكم.. أمّا أنا فأقول لكم»: تعبير فريد في صيغته الجدليّة، أي في الموازاة بين تعاليم التوراة وتعاليم يسوع، بين ما قاله الأنبياء للآباء الأوّلين، وما قاله يسوع لتلاميذه ولنا. لكأنّها مواجهةٌ بين العهدَين، العهد الجديد

(١) متى ٥/ ٢١-٢٢؛ ٢٧-٢٨؛ ٣١-٣٢؛ ٣٣-٣٤؛ ٣٨-٣٩؛ ٤٣-٤٤.

(٢) أنظر: مقدّمة «أونجليون»، ترجمة الكسليك، ص ٣٨.

والعهد القديم، بين تعاليم التوراة وتعاليم يسوع، أو أيضاً بين موسى ويسوع، من على جبلَي سيناء وطابور. مواجهة هي عنوان العهد الجديد، ومضمون الإنجيل، ومختصر الرؤية المسيحيّة لله وللملكوت. ظهرت في الأسلوب والمضمون، وفعلت فعلَها عندما وقف يسوع من اليهود موقفَ توبيخ وتبكيت وإنكارٍ لما هم فيه من رياء وتدمير للإنسان الذي خلقه اللّهُ حرّاً، وعندما حكم رؤساءُ اليهود، من كهنة ورؤساء كهنة وكتَبَة وفرّيسيّين، على يسوع بالموت.

هذا الكلام هو من الكلمات الجريئة جداً والمشكِّكة الواردة في الإنجيل على لسان يسوع نفسه...

ولكنّ متّى، كمؤلِّفٍ بارعٍ، شاء أن يخفّف من حدّة المجابهة، فمهّد لكلامه بقوله بأنّ يسوع جاء يكمّل موسى، وبأنّ الإنجيل هو استمرارٌ للتوراة. فجعلَ يسوعَ يقول: «لا تَحْسَبُونِي جِئْتُ أُبْطِلُ التَّوراةَ أو الأنْبِيَاءَ. مَا جِئتُ أُبْطِلُ، بَلْ أُكَمِّلُ» (متى ٥ / ١٧). هذا الإكمال حبكَه متّى جيّداً عندما صوّر لنا أنّ يسوع جاء في خطّ موسى... إلاّ أنّ ذلك لم يكن، على ما يبدو، إلاّ لطمأنة اليهود قليلاً.

والمقصود، كما جاء في "طوبَيَات الجبل"، كان في

تعاليم لا شبيه لها في تعـاليم اليهود، ولا في تقاليدهم، ولا في توراتهم، وتفاسـيرهم لها... وقـد يكون من الحكمة أن يُتْـبِعَ مـتّى هذا الكلام الخـارج عن مـألوفِ التّـوراة بكلامٍ يَطمئنُّ إليـه اليهود ورؤسـاؤهـم. إذ ليس من الفطنة إطلاقاً أن يفتحَ يسوعُ النّارَ عليه، في بداية رسالته، من دون بعضِ الحذر من الشعب اليهودي ورؤسـائه. فلهذا قال: «مَا جِئْتُ لأبطِلَ، بلْ لأكَمِّلَ».

وعندما اطمأنَّ اليهودُ قليلاً، لم يتمالك يسوع مِن أن يوجِّه إلى رؤسـائهم من فرّيسيّين وكـتبة ما يشـعر به من واجبٍ في أداء رسالته. فأتْبَعَ قولَه مبـاشرةً بتحدٍّ يُعلِنُ فيه المجابهة بيـنه وبين رؤساء اليهود، فقـال: «لَكُمْ أقُول: يَرْبُو بِرُّكُم عَلَى بِرِّ الـكَتَبَـة والفَـرِّيسـيِّين، أو لنْ تَـدْخُلُوا مَلَكوتَ السَّـمَـاوَات» (مـتى ٥/ ٢٠). لكأنَّ البِـرَّ لـن يكونَ بحـفظِ الناموس، بل بـ "اتِّبَاع" يسوع نفـسِـه والاقـتداءِ به. هكذا قال لتلاميذه.

هذه الجدليّة بين القديم والجـديد، بأسلوبٍ غير ليّن، تنذر مُسبـقاً بما ستكون عليه المواقـف بين يسوع ورؤساء اليهـود. أسلوب يحمل، من الآن، بوادر المأسـاة التي سوف تتحقّق. والمتـقصّي معاني النّص ينتبه جـيّداً إلى أنّ اليهود

لن يسكتوا عن يسوع، ويسوع لن يسلمَ من أيدي اليهود. وموضوعات الخلاف كثيرة. والمصير محتوم. ولا شيء يشير إلى أنّ معالجةً سليمةً قد تحدث، أو مصالحةً بين الطرفَين ممكنة.

وكم حاول متّى أن يصوّر لليهود أنّ يسوعَ هو نفسه المسيح الموعود به، وهو ابن الوعد لإبراهيم، وسليل الملك داود، ووارث عرشه، ومرتجى الآباء، وهو الذي "قيل عنه في الأنبياء" ما قيل، وهو الذي جاء ليُتمّ ما قيل فيه عندهم، وهو الذي حقّق النّبوءات، وأتمّ الآيات، وفسّر الكتب التي تحدّثتْ عنه، وقرأها قراءةً صحيحة، وهو موسى الثاني الذي قاد مسيرة شعبه نحو أرض الميعاد.

غير أنّ ذلك كلّه لم يكن، على ما يبدو، إلاّ حنكة وحكمة، شاءهما متّى ليمرّر إلى اليهود شرعةَ يسوع الجديدة: صحيح أنّ يسوع هو موسى، ولكنّه موسى جديد، بتعليمٍ جديد، وعملٍ جديد، وعهدٍ جديد، وحتّى إلهٍ جديد. هذا الإله هو «أبٌ»، مُحبٌّ، مُخلِّص، لا يعرفه إلاّ الابن، ومَن يشاءُ الابنُ كَشفَه له (متى ١١ / ٢٧). هذا الإله «الآب» لا يعرفُه اليهود، ولو كانوا عرفوه لما صَلبوا يسوع.

نحن، هنا، مع متّى، وكأنّنا مع "عملٍ مسرحيٍّ كبيرٍ

في سبــعة فصـــول. والموضوع واحد: يـسوع الملك المخلّص الموعود "[٢]. والعـمل المســرحيّ، عــادةً، يقوم علــى عقــدةٍ محبوكة، وأسلوبٍ شيّقٍ يُخـفي أكثرَ ما يُظهر، وحلٌّ طريفٌ غيرِ متوقّع. وهذا ما يوجَد فعلاً في إنجيل متّى الذي يضيعُ القارئُ فيه بين أن يكون يـسوعُ موسى جديداً، أو أن يكونَ خصماً لموسى، يتراشقان التّهم.

ويتبــيّن لنا ذلك في مــا سمّــاه المفسّرون "الـلّوحة الثانية" (فصول ٣-٧)، حــيث "شرعة الملكوت" التي ابتدأ بها يسوع رســالتَه:

فبعد أن اعــتمد على يد يوحنّا (٣/١٣-١٧)، وخرج إلى البرّيّة (٤/١-١١)، وجــال بين اليهود والأمم (٤/١٢-١٧)، ودعا تلاميـذَه الأوّلين (٤/١٨-٢٢)، وأراهم أعماله، وأسمعهم تعاليمه، وذاع خـبرُه في كلّ سورية، وتبعه جمعٌ كثــير (٤/٢٣-٢٥)... صــعدَ إلى الجـبل، وأعلنَ لتلامــيذه وحدَهم (٥/١-٢) شرعةَ الملكوت الجديد. وحدَهم التلاميذ كانوا هناك، لأنَ الجموع، عادةً، لا تستطيعُ قبولَ ما يخالف تقاليدها وأعرافها وموروثاتها.

---

(٢) تفسير «أونجليون»، ص ٢٧.

وما سمعه التلاميذُ في خطبة الجبل[٤]، لم يسمعْه اليهودُ مِن قَبلُ إطلاقاً. ليس هو من تعاليم موسى، ولا التّوراة، ولا الأنبياء، ولا من أيِّ سِفْرٍ من أسفارِ العهد القديم. إنّه مختصر السلوك المسيحيّ.

في هذه الخطبة، نجد "أهمّ مقوّمات الدّعوة المسيحيّة، وفضائل أبناء الملكوت: إنّها شرعة الملكوت الجديد"[٥]. هذه "الطوبَيات" ترسمُ خطّة يسوع، وتوجيهَه، وهمومَه، وفحوى بشارته. ولن يكون اليهودُ منها على اطمئنان.

بيد أنّ متّى طَمأنهم فَوراً، وطمأن التلاميذَ أيضاً، بأنّ يسوع لم يأتِ ليُبطلَ القديم. وشدّد وأكّد أنّ السماء والأرض تزولان وحرفٌ من الناموس لا يزول. فاطمأنّوا.

إلاّ أنّ يسوع، بعد أن طمأنهم، عرفَ ما يجب أن يقول لهم، بداءة ذي بدء، لكي يستطيعَ أن يباشر رسالتَه، وتمرَّ عندهم، ويقبلوها، ولا يقفوا ضدّها منذ بدايتها. فتحمّلوها، ولكن على مضض. وها هو يُسمعهم ما يشكّكهم:

---

(٤) متى ٥/٣-١٢.

(٥) أنظر «أونجليون»، ص ٥٩

لقد عـرضَ أمامَـهم موضوعـاتٍ تمسّ مقـدّساتِهم. خالفَ مـا كانوا يتوقّعـون من المسيح المنتظر، فجـاء يسوعُ مسـيحاً متـواضعاً متـألّماً، بدلاً من أن يجيء مسيحـاً قويّاً يحرِّر شعبَه مـن الاحتلال الأجنبيّ. لهذا لم يؤمنوا بما علّم، ولا هو علّم مـا به يَقـبلون. بل نسـبـوا تعاليـمَـه إلى روح شرّير. ولم يَقـبلوا بأنّ الملكوتَ أصبح للجـميع، وليس لهم وحدَهم. ولم يَفـهموا أنّ محبّـة الإنسان تعادل محـبّةَ اللّه. ولم يصـدِّقـوا أنّ طـهـارةَ القلب هي المطلـوبة لا الطهـارة الخارجيّة...

ثمّ علّمهم أنّ ما قيل لهم في القـتْل والمصالحة (متى ٥/٢١-٢٦) هو غير ما جاء على لسـان آبائهم الأوّلين؛ وأنّ مـا قـرأوه في كـتـبـهم عن الـزّنى (٥/٢٧-٢٩) ليس هو الصحيح؛ وأنّ ما قـيل في الطلاق (٥/٣١-٣٢) هو فجور؛ وأنّ قَسَـمَهم بما خلق اللّه هو احـتقارٌ للّه نفسـه (٥/٣٣-٣٥)؛ وأنّ ما علّمـتهم التّوراة إيّاه في شـريعة العَين بالعين والسِّنّ بالسِّنّ (٥/٣٨-٤٢) هو تعليم فـاسد؛ وأنّ محـبّـةَ الأعداء هي من شِيم الأخلاق...

في هذه الموضـوعات، وفي غيـرها أيضاً ممّـا نقرأه في الصـدقة (متى ٩/٢-٤)، والصلاة (مـتى ٩/٥-١٥)،

والصّوم (متى ٦/١٦–٨)، والتجرّد (متى ٦/١٩–٣٤)، وعدم دينونة الآخرين (متى ٧/١–٥)، والإيمان بسخاء اللّه (متى ٧/٧–١١)، وأنّ الأعمال يجب أن ترافق الأقوال (متى ٧/٢١–٢٣)... كلّها تعاليم لم يألفْها اليهود، لا في توراتهم، ولا في تقاليدهم، ولا عند أنبيائهم. بل عندهم تعاليم تخالف ذلك تماماً. ولا يمكن لهم أن يَقبلوا غيرَها، ولا أن يقبلوا قائلَها. وابتدأتْ، منذئذٍ، المجابهة.

وبهذه المجابهة بين موسى ويسوع، بين «ما قيل لكم... وما أقول لكم»، ابتدأتِ المأساة. وعرفَ يسوعُ بأنّه ذاهبٌ إلى الموت لا محالة. وحكمُ النّاموس في مَن يخالفه واضح: الموت. والذي يعلّم غيرَ ما في النّاموس مصيرُه الموت.

إنّ ما وضعَه متّى على لسانِ يسوع أنّه لم يأتِ ليُبطلَ التّوراة بل ليُكمّل، ليس إلاّ مِن قبيل طمأنة اليهود قليلاً، لكي يَسمعوا ما يخالف تعاليمهم مخالفةً أدّت بهم إلى رفضِ يسوع ورفضِ تعاليمه، والحكم عليه بالموت.

❋❋❋

في الختام نقول: إنّ مصيرَ يسوع كان واضحاً منذ البدء. وطمأنة اليهود بأنّه جاء يكمّل التّوراة لم تفدْه شيئاً.

ولم تخلّصه من حكمهم عليه بالموت. وفي كلّ حال، حتّى متّى نفسه لم يكن يؤمن بأنّ يسوع جاء ليتمّم التوراة، بدليل أنّ كلّ ما في إنجيله يُختصَر بما لا نجده عند أحدٍ من كَتَبة العهد الجديد، وهو تصوّره لموسى ويسوع يتراشقان من على جبلَين، بأسلوبٍ تفرّد به: «سمعتم ما قِيل... أمّا أنا فأقول...». وكانت بداية المأساة. وخاتمتها معروفة سلَفاً.

إنّ إنجيل متّى يُظهِر يسوع قد أتمّ، في شخصه وتعاليمه وأعماله، تدبير اللّه الخلاصيّ، أتمّه إتماماً ظاهراً وخفيّاً معاً...

ولكن جميع النبوءات ما تمّت في يسوع بنوع ظاهر جَليّ: كان اليهود يتوقّعون ملكاً زمنيّاً يحرّر شعبه سياسيّاً، ويحكمه، فإذا بيسوع يبشّر بملكوت روحيّ يحرّر الإنسان من الخطيئة، ويعدّه لنعيم أبديّ. بشّر يسوع شعبه بملكوت غير ملكوتهم، فإذا هو سبب شكّ، وحجر عثرة، وتحوَّلَ كلّ شيء إلى مأساة: رفض الشعبُ المختار أن يؤمن بيسوع مسيحاً، لأنّه كان ينتظره ملكاً متوّجاً، لا لصّاً مصلوباً، ولعنةً على خشبة.

تمّت حكمة اللّه في شخص يسوع وأعماله وتعاليمه بنوع يخالف حكمة البشر، لأنّ العهد القديم نفسه أنبأ

بمسيح قويّ جبّار، وأنبأ أيضاً بمسيح متواضع متألّم.

في العهد القديم تيّاران متناقضان، تيّار القوّة والنّصر، وتيّار الألم والفشل؛ وكلاهما قد تمّا في يسوع، في شخصه وتعاليمه وأعماله؛ فالتبس الأمر على اليهود، ونبذوا ملكهم ومخلّصهم:

١. **في شخصه:** نبذوا خادم اللّه المتألّم، والمتواضع، على ما مثّله آشعيا، فاضطهدوه طفلاً، واضطرّوه إلى الهرب، واضطهدوه شابّاً، فعذّبوه وصلبوه؛ وتلاميذه أنفسهم باعوه وأنكروه وتركوه.

٢. **في أعماله وتعاليمه:** لم يؤمنوا بأعماله، لم يؤمنوا بآياته، ونسبوها إلى روح شرّير. ولم يؤمنوا بتعاليمه: لم يؤمنوا بملكوت روحيّ يبدأ حقيراً، ويُغالب الاضطهاد، يؤخذ اغتصاباً، ولا يفهمه الحكماء، ويدخله جميع الناس. ولم يؤمنوا بأنّ التقوى في القلب، لا في التظاهر بها، تزمّتاً ورياءً، وبأن طهارة القلب أهمّ من الطهارة الخارجيّة، والجوهر أهمّ من المظاهر.

تعاليم يسوع هذه وأعماله تُلغي حكم إله الأديان والمذاهب، وتُعطي مفهوماً جديداً، بل مغايراً لما علّم يسوع. ولذلك طارده الأحبار وحكموا عليه بالموت.

هذا المصير لم يكن مـفاجئاً. لقد كـان يسـوع يعلم ما سيصل إليه، لأنّه لـم يُبقِ من سلطة الأحبار المتكلّمين باسم اللّه شيئاً... فلكأنّ المسيحيّة جاءت نقيضاً لليهوديّة برمّتها.

الفصل ١٥

مؤمنٌ وملحدٌ في آن!

أنا مـؤمن وملحد في آن : مـؤمن بإله عرّفني علـيه يسوع المسـيح، وملحد بآلهة الأديان والفلسـفات جميـعها؛ وعلاقتي مع ذاك، لا مع هذه. قبلتُ هذه أم رفضـتُها سيّان. ومع ذاك أجد بيني وبينه تجـاوباً وحواراً ومحبّةً مـتبادلة. هذا الإله يهمّه أمـري؛ فأنا، بالتالي، يهمّني أمـره، لكثرة ما أحتاج إليه.

١. ذاك الله الذي يبرهن عنه الفـلاسفة ويتفـرّجون عليه من بعـيد، لا يعنيني ولا يهمّني، ولا عـلاقة لي به، ولا هو، حيث هو، في عليائه، يهمّه أمـري. إنّه إله اخترعه العقلُ ليرتاحَ من قلقـه الوجوديِّ القاتل. إلهٌ **يحتـاج إلى الإنسان** ليدلّ الإنسانُ عليه، فيما لو كـان إلهاً حقيقيّاً لكان هو الدليل على الإنسان، ولكان الإنسان هو الذي يحتاج إليه...

٢. **إله العقل بعـيدٌ جداً**. إنّه واحدٌ أحدٌ صـَمَد. قابعٌ وراء السمـاوات، متـربّع فوق الغـيوم، يتنزّه بين الـنجوم. يُشرف على الأرض من فوق. يتطلّع إلى الإنسان من علُ. لا يسـمع إلاّ الأصـوات القـويّة. لا تـهـزّه إلاّ العـواصف. أمّـا النسيمات الصـباحيّة الهادئة الناعمة فـلا يهتزّ لها؛ بل تمرّ عليه وتلامسه ولا يعلم بها.

٣. إله **نكتـشف وجودَه من الأدلّة الفلسـفيّـة**، ومن قلق العقل، ومن الحاجـة إليه ليفسّر لنا لغـز الموت والحياة، وسرّ الحـياة بعد الموت، ومعـضلة الشرّ، ومسـألة الحرّيّة، وسرّ الوجود، ومعاني الأشـياء... إلهٌ يفسّر كلّ هذه هو إلهٌ يتسمّع علينا ليعرف منّا كـيف نفسّرها. أي هو الذي يحتاج إلينا ليعرف ما نطلب منه وما يستطيع أن يُعطينا.

٤. إلهٌ **يحتـاج إلينا**، أي : إلى صلواتنا وابتـهالاتنا، وإلى قـرابيننـا وذبائحنا، وإلى زهدنا بما وهـبنا إيّاه، وإلى إماتة نفـوسنا قبل مـوتنا.. إلهٌ لا يكافئ إلاّ بعد أن يـبرّحنا الألم ويخضّنا العذاب. إلهٌ يطرب لمرأى الدمـوع المنهمرة من المآقي. ويفـرح لحـزن الحـزانى، وبكاء الثكالـى. إلهٌ ينتظر الإنسانَ عند باب القبر ليطالبه ويحاسـبه. هو، في الحقيقة، إلهٌ اخترعناه كقوّةِ ردعٍ باطشة.

٥. إلهٌ **سريع الانفعال، قليل الصبر**، بليد الرّوح، طويل اليد، قصير الباع، عدّاء، يراقب. يحاسب. يعاقب. لا ينتظر. لا يهادن. لا يغمض له جفن. سهرانٌ على كرامته. مدافع عنها. يتمتّع بعزّة وعنفوان. يعامل الآخرين بعنفٍ وانتقام... هذا الإله سوف نحاسبه نحن على انفعالاته هذه غير المنضبطة.

٦. إلهٌ **كلّف النّاس ليدافعوا عنه**، ويتقاتلوا من أجله، ويهرقوا دماء بعضهم بعضاً للحفاظ عليه، ويجاهدوا مستميتين ليبقى، ويتلصلصوا بعضهم على بعض ليرتاح، ويسرقوا أموالَ بعضهم بعضاً ليوقفوها له، ويرفعوا أقواص المحاكم لأنّ واحداً شتمَه... إلهٌ يعتنوا هم به، ويشيدوا له القصور والهياكل، ويمنعوا آخرين من ارتياد أقداسه.. هذا إلهٌ شرّير فلّتَ الناسَ بعضهم على بعض ليهنأ هو في عليائه.

٧. إلهٌ **ينزّلُ علينا من السماء أحكاماً**؛ ويرسم لنا حدوداً؛ ويسنّ لأعمالنا شرائع؛ ويضع ملفّاتٍ ضابطة لوقائع متحرّكة؛ ويرسل إلينا تعاليمَ من فوق؛ ويدبّر لنا حقائق من عالَمٍ غير عالمنا؛ ويقيّد حرّيّتنا؛ ويبعث إلينا رسلاً وأنبياء؛ ويصنع لنا أدياناً ومذاهب؛ ويحشو رؤوسَنا

بمعتقدات جاهزة؛ وينزِّل علينا كتباً سماويّة، وَسَمَهَا بوسم الثبات والديمومة، وقال لنا بأنْ لا شيء فيها يتغيّر أو يتبدّل، مهما تغيّر الزمان وتبدّل.. هذا الإله يستحقّ منّا أن نُلغيه، ليس من عقلنا فحسب، بل من الوجود أيضاً.

٨. إلهٌ **نزّل علينا كتاباً بعد كتاب،** وشريعةً بعد شريعة، وديناً بعد دين.. حدّدَ لنا فيها رسومَه وقوانينَه ومتطلّباته، ودوّن فيها أعماله وحروبَه وتمييزَه النّاس بعضهم عن بعض، واعتبار بعضهم من شعبه المختار، وبعضهم الآخر أعداء له.. إلهٌ، لو تملّكتُ منه، لسجنتُه بين كتبي التي، في أسوأ حال، تظلّ أفضل من كتبه الجامدة.

٩. إلهٌ لا يريد أن يوسّخ يديه بتراب أرضنا؛ ولا يتنازل نحونا قليلاً؛ ولا يُبتلى بما ابتلانا به من أمراضٍ وعذاباتٍ؛ **ولا يموت كما نموت**؛ ولا يُدفَن كما نُدفَن؛ ولا يهترئ جسمه؛ ولا يترمّد لحمه وعظمه.. إلهٌ يخشى مقارعةَ الفرّيسيّين والكهنة ورؤساء الكهنة والكتبة وحفّاظ الناموس والسبت والختان؛ ويتجنّب الصراعَ مع الباعة والتجّار ومحبّي المال وظالمي اليتامى والأرامل، وراجمي الزواني.. هذا الإله يبدو لي فاسداً ومفسوداً ويدعو إلى الفساد، ولا يعلّم إلاّ الفساد.

١٠. إلهٌ يُسَرُّ بالبقاء بعيداً عنّا، **فيرسلُ إلينا الأنبياء**، نبيّا بعد نبيٍّ. واللّهُ أعلم كيف اختارهم! وما هي القاعدة عنده في اختيارهم!.. وأرسل إلينا مع كلّ نبيٍّ تعاليمَ تختلف عن تعاليم نبيٍّ آخر.. أنبياء: منهم كبار ومنهم صغار؛ منهم له ومنهم للبعل؛ منهم مصلِحون ومنهم مبلبلون؛ منهم مسالمون ومنهم محاربون؛ منهم كتبة ومنهم حكواتيّة؛ منهم مثاليّون ومنهم سافلون؛ منهم متبتّلون ومنهم نكّاحون مُكثرون... هذا الإله الذي يكلّمنا برسلٍ وأنبياء، نردّ إليه رسلَه وأنبياءَه؛ ولا نريد منه، بعد اليوم، لا رسولاً ولا نبيّا. فليتفضّل هو، وينزل إلينا ليشعر معنا بالألم والحزن والمرض والدموع والموت والحاجة، التي فرضها علينا.

١١. **إلهٌ يحتاج دائماً إلى ملائكة** ليكشفوا لنا عمّا يريد؛ ويكلّف واحداً منهم للبشارة، وآخر ليحرسَ أبوابَ الجنّة، وثالثاً ليلاحق الأشرار، ورابعاً ليقاتل ويدافع عنه، وخامساً ليرافق المسافرين، وسادساً ليقبض الأرواح، وسابعاً ليوقد نيران جهنّم... إلهٌ عنده ربوات في ربوات من السارافيم والكاروبين والجلاّس والسادات والسلاطين، يخضّون السماء... هذا الإله الذي يريد، على ما يبدو، أن

يتسلّى مع ملائكته هؤلاء؛ ولا نعرف نحن المساكين كيف نسلّيه! هذا الإله لا يحبّ ولا يريد أن نزعجه. فليبقَ مع ربواته مغبوطاً في عليائه.

١٢. إلهٌ خلق **الشياطين والأبالسة**، وكلّفهم بزَجِّنا في عمل الشرّ. إلهٌ خلق كائنات متخصِّصة بالشرّ، وشرّيرة بطبيعتها، ولا ذرّة خيرٍ فيها. هذا الإله شرّيرٌ، بما خلق، وأكثر شرّاً ممّن خلق. إنّه شرّيرٌ متمكِّنٌ في الشرّ كالكائنات التي أوجدها.

أيُعقَل ألاّ يفسَّر الشرّ في الكون إلاّ بوجودِ كائناتٍ شرّيرة إلى هذا الحدّ من الشرّ؟! أوَيُعقل أن يكون إبليس رئيسَ ملائكة الجنّة تجبّر على اللّه وعصا، فهوى شرّيراً إلى الأبد؟! هذه، حقًّا، ملامح إلهٍ شرّير كبير.

١٣. إلهٌ خلق **ملوكاً وسلاطين**، إقطاعيّين مستبدّين، كهنة ورجال دين، متكلّمين باسمه، ومشترعين، يعمل بواسطتهم، ولا يعمل إلاّ بواسطتهم، ويدّعون أنّهم يمثّلونه على الأرض، ويحكمون بسلطته، ويقضون بشرعه، ويُهلكون بمشيئته... هذا الإله، إنْ كان، حقًّا، سلّم سلطانَه لهؤلاء، فليسلّمهم أيضاً ذاته، ويصبحوا هم آلهة.. ويرتاح. ونحن نعرف كيف نتعامل معهم مباشرةً.

١٤. إلهٌ يطلب منّا دائماً **التسابيح** والتماجيد والتهاليل والتكابير والتقاديس.. قد يحقّ له ذلك؛ ولكن، ليس على حساب البشر المساكين الذين خلقهم فقراء يبحثون عن لقمة العيش؛ وهو يريدهم أن يكفّوا عن الاهتمام بنفوسهم، ليهتمّوا بتبجيله وتكبيره وتعظيمه ليلَ نهار... هذا الإله لا يهمّني أمره؛ بل ما يهمّني هو أن أبحث عن حياةٍ سعيدةٍ بعضَ الشيء لأعيشها؛ وليبحث هو عمّن يهتمّ بتسبيحه وتمجيده وتكبيره وتعظيمه.

١٥. إلهٌ **صانع العجائب**، ومخربط نظام الكون، يشفي الكسلانَ من كسله، والفقيرَ من فقره، والمريضَ من مرضه، والقائد الغبيَّ من غباوته، والعاشق من عشقه... هذا الإله هو إله عجيب غريب. إله للفرجة. نتفرّج نحن عليه، ويتفرّج هو علينا، لأنّه، مثله مثل تلميذٍ، يحبّ الفوضى، فيبلبل النظام، ليُثبتَ شخصيّتَه أمام بناتِ صفِّه.

١٦. إلهٌ **يسدُّ الفجوات**، ويملأ الفراغات. يحلّ المشاكل. يفكّ العقد. يسنّ القوانين. يصالح المتخاصمين. يطفي نيران الحروب. يقضي على الثورات. يقلب الظالمين عن كراسيهم. يُبطل جشع الجشعين. يكفي الميسورين. يشبع الجائعين. يشفي المرضى. يقيم الموتى... هذا الإله

الذي لا يطيق معه لا طبيباً ولا أستاذاً ولا عالماً ولا خبيراً.. هو إله يخشى أن يتخطّى العلمُ حدودَه. إنّه إلهٌ يُميتُ فينا الطموحَ والبحثَ والتنقيب. لعلّه، والحال هذه، يخافُنا!

١٧. **إلهٌ واحدٌ أحَدٌ صَمَد**، إلهٌ عظيم كبير جدًا جدًا. إنّه إلهٌ مُطلَق كامل، كلّيَ القدرة والعلم والحياة. أزليَ أبديَ. لا ضعفَ فيه ولا حدود له.. لا أحد معه، لئلاّ يقاسمه الكمال، فلا يعود أحدٌ منهما كاملاً. لا أحد بمستواه لئلاّ يُحبّه. والذي يُحبّ يشعر بحاجة إلى مَن يُحبّ. إنّه، إذاً، إلهٌ واحدٌ في طبيعته، أحَدٌ في ذاته، صَمَدٌ لا تُخرَق ألوهيّته. هذا الإله لا أجد لي معه أيّة علاقة. أوُجِد أم لمْ يوجَدْ؛ فهو لا يعنيني؛ لأنّي لا أشعر بمحبّتي له، ولا هو يحتاج إلى محبّتي. إلغائي له أحسن لي وله.

١٨. إلهٌ واحدٌ أحَدٌ صَمَدٌ. **مُغلَقٌ على ذاته**. لا يَقول عن ذاته ما قاله للإنسان الأوّل: «لا يَحْسُنُ أنْ يكونَ الإنسانُ وَحْدَهُ. فَلأصْنَعَنَّ لَـهُ عَوناً يُنَاسِبُه» (تك ٢/١٨).. هذا إلهٌ لا يَعرِفُ ولا يُعرَف. لا يُحِبُّ ولا يُحَبّ. لا يريدُ أن يجدَ شيئاً «حَسَناً» خارجاً عن ذاته. لا يريد معه، لا «عَقلاً»، ولا «نفساً»، ولا «كلمةً»، ولا «ابناً»، ولا «روحاً»، ولا أيّة واسطة بينه وبين هذا الكون. هو إلهٌ، على ما يبدو، لا

يطمئــنَ إلى أحد. لهذا يرفــضُ أن يكون معه أحــد. إلهٌ أغلقَ عليــه الأبواب، فــقبع في علــيائه. لا نعلم كــيف هو، ولا مــا يعمل، ولا بما يهتمّ، ولا عمّــا إذا كان يُحِبّ أو لا يُحَبّ. لهذا، قد يستغني عنّا. وعلينا أن نستغني نحن أيضاً عنه.

١٩. إلهٌ واحدٌ أحــد صمد، إذا مــا تراخى قليلاً، يظنّ أنّه يُهــان. ويظنّ أنّه، إذا مــا أحبّ أحداً، أو تــقرّب من أحــد، نقصتْ قيمتُه. ويظنّ أنّــه، إذا ما تألّم وتعذّب ومات، فسُدتْ ألوهتُه.. إنّنــا نسأل هذا الإله الذي لا يموت، كيــف أوجد لنا الموت ولم يذقْه! وكيف أوجد لنا المرض والألم ولم يرد ذلك لنفــســه!.. هذا الإله لا يهــمّني أبداً. إنّه إلهٌ فــقيــر، تعــيس، إنعزالــي.

٢٠. إله لا يُكرَّم إلاّ حــيث الأبّهــة والعظــمــة، وفي ألواح الفن، ورسوم المصوّرين والنّحاتين، ولا يُعبَد إلاّ حيث الطرب والرقص.. إلــهٌ لا يحــتــفَى به إلاّ في الكــاتدرائيّــات والهياكل والجوامع والخلوات الخــاصّة... إلهٌ لا يتقرّب منه إلاّ أحبار وكــهنة ومشايخ... إلهٌ لا نتقــرّب منه إلاّ بعد غسلٍ ووضــوءٍ وتطهيــرٍ وطأطأة رؤوس وأعناق... إلهٌ لا تظهــر صورتُه ولا يُســمع له صوت إلاّ في زحــمة دخان البــخور والمحــرقات... إلهٌ لا يرحم ولا يــدير بالَه إلاّ على أناس ركّعٍ

سجَدٍ بكّائين نائحين تائبين حامدين... هذا الإله سوف أطرده من بيتي. وليذهب إلى الجيران حيث يجد مَن يمتّع خراشيمَه بأنواع البخور واللّبان.

***

٢١. إلهٌ يفضّل **اليهود** على سائر مَن خلق من بشر، وصيّرهم شعبَه المختار، وصنع معهم عجائب لا تحصى؛ وشرّفهم بما بعث إليهم من آباء وأنبياء ورسل وحكماء وقضاة وملوك؛ وميّزهم بما أنزل عليهم من كتبٍ وشرائع، وبما أبرم معهم من عهود، وبما أغدق عليهم من وعود.. هو إلهٌ مفسودٌ كالذين ميّزهم واختارهم، وجعلهم مقتنعين بأنّهم أسمى من البشر أجمعين.

٢٢. إلهٌ خصّ **المسيحيّين** بابنِه الوحيد؛ ومكثَ معهم في روحه القدّوس؛ وأسّس لهم كنيسةً لن تقوى عليها جحافل الأبالسة؛ وأنعم عليهم بلحمه مأكلاً ودمه مشرباً، غذاءً أبديّاً؛ ووهبهم المقدَّسات والأسرار ليتقدّسوا.. هذا الإله اعتبره المسيحيّون أنّه جاء إليهم وحدَهم، فيما هو جاء يخلّص الجميع من دون استثناء، لأنّه هو خالق الجميع. وقد أخطأوا في حصْرِهم اللّهَ في دينٍ؛ وكأنّه جاء ليؤسّس لهم ديناً كسائر الأديان. وها هي خطيئتهم.

٢٣. إلهٌ نزّل على **المسلمين** كتاباً أزليًا أبديًا، فيه الحقّ كلّ الحقّ؛ ولديه حلول مشاكل العالم المعقّدة كلّها؛ وعنده العلم كلّ العلم.. إلهٌ طلب من أتباعه الجهادَ في سبيله، وقتالَ المشركين، وأسْرَهم وتعذيبهم، وسبي نسائهم، والنكاح بما ملكتْ أيمانهم، وقطع يد السارق، ورجم الزاني، وجلد شارب الخمرة، وتجميد كلّ تطوّرٍ وتقدّم يصل إليه العالم... هذا الإله سيّءٌ لأنّه، بدل أن يدافع عن الناس، يطلب هو من الناس أن يدافعوا عنه، ويجاهدوا في سبيله الجهادَ العظيم! فأيُّ إلهٍ محبٍّ هو هذا؟!

٢٤. إلهٌ **ميّز الدروز** فتجلّى لهم اثنتَين وسبعين مرّة؛ وكشف لهم عن نفسه؛ وعرّفهم بتوحيده حتّى أصبحوا، بسبب ذلك، يُسمّون «بني معروف»، لأنّهم، في ظنّهم، عرفوا اللّه من دون سواهم...

وإلهٌ **ميّز النّصيريّين** فتجلّى لهم أيضاً، سبع مرّات؛ وتركهم من دون شريعةٍ أو كتابٍ يتبعونه... هذا الإله، على ما يبدو، تدخّل في النّاس من أجل الطعن بإله المسلمين وكتابهم... فهو، بالتالي، إله فتنة وشجار.

٢٥. إلهٌ، لم تكن في الأرض **حروب إلاّ بسببه** ومن أجله؛ ولم يندفع أحدٌ على أحد إلاّ باسمه. ولم يتقاتل الناس

بشـرٍّ ما تقـاتلوا إلاّ وهو كان الدافع إلى كلّ قـتال وحـرب وشرٍّ وثورة... لقد دمّـرْنا حضارات البشريّة كلّها بسـببه. وحرقنا أشـجار الجنّة نكايةً فيه. واخـترنا القنابل النوويّة والسموم الفتّاكـة والصواريخ العابرة القارّات للدفاع عنه.. هذا الإله، كيف نتعامل معـه، نحن المسالمين الذين شبعنا من الدماء والدمـار؟! إنّنا نرفضه رفْضَنا للشـيطان الرّجيم؛ إنْ لمْ يكنْ هو الشيطان الرّجيم.

٢٦. إلهٌ لا يُظهر **قدرَتَه إلاّ في الضعفاء**؛ ولا يفتخر بغناه إلاّ مع الفقـراء؛ ولا يتجبّر ويتكبّـر إلاّ أمام المساكين.. إلهٌ لا يلين قلبه إلاّ عند دموع الباكـيات النائحات؛ ولا يُفيض مـراحـمـه إلاّ على اليـتـامى والأيامـى؛ ولا يعطف إلاّ على الأرامل والثكالى؛ ولا يفـرح إلاّ في ارتداء الملابس السـود؛ ولا يستـيقظ إلاّ عند قـرع الصدور والطبـول؛ ولا يظهر إلاّ في العواصف الهـوجاء؛ ولا يبيّن عـدم رضاه إلاّ بالزلازل والبراكين؛ ولا يتقـرّب إلى مَن يحبُّ إلاّ في اللّيالي المظلمة... إلهٌ لا يُسَرّ إلاّ بتذليلنـا أمام عوامل هذا الدهر... هذا الإله آن لنا أن نُخـيفَـه نحن بما نختـرع من وسائل للعـيش الهني؛ وسائل نحاربه بها حتّى لا يعود هو إلى تخويفنا وإذلالنا.

❋❋❋

٢٧. هذا هو الإله الذي يرفضه الملحدون. وأنا منهم وأوّلهم. عكسه الإله–المحبّة الذي يقبله المؤمنون. وأنا منهم وأوّلهم. هذا الإله–العكس مَن هو؟ وكيف هو؟ وما هي صفاته؟ وأين نجده؟ وهل، حقّاً، نطمئنّ إليه؟... فلنبحثْ عنه.

٢٨. فليطمئنّ المؤمنون بأنّ اللّهَ الذي نؤمن به، قد لا يكون كذلك. وهو، حقّاً، ليس كذلك. وقد يكون كذلك لأنّ المطمئنّين المنذهلين أرادوه كذلك.. أمّا أنا، الذي لا أرتاح إلى صورةٍ من صور الإنسان عن اللّه، فلا أزال قلقاً، مضطرباً، باحثاً. لم أجدِ اللّهَ بعد. ومع هذا، لستُ بملحدٍ ولا بكافرٍ. لم أجدْه لأنّه كلّي الكمال وأنا لستُ كذلك؛ ولأنّه كلّي القدرة، وأنا لستُ كذلك؛ ولأنّه خارج الزمان والمكان، وأنا لست كذلك؛ ولأنّه حيٌّ، وأنا ميت؛ ولأنّه مطلق، وأنا نسبيّ؛ ولأنّه هو الذي هو، فيما أنا لستُ بعدُ أنا.. فكيف أعرف هذا «الآخَر» الذي لا أستطيع أن أدنو منه؟!

٢٩. عندي أملٌ واحدٌ لا غير لمعرفةِ شيءٍ عن هذا «الآخر»: أن يدنو هو منّي. فأنا، لضعفٍ في جبلّتي، لا يمكنني أن أدنوَ منه؛ لأنّ ما أنا عليه من ضعفٍ وشرّ ومحدوديّة يمنعني من ذلك.

الشـرّ والضـعف يكمنان فيّ بسـبب مـا عندي من حرّيّة الخـيار. هذه الحرّيّة، مشكلتـنا معها عظيـمة: هو اللّه إيّاه الذي خلقـها فـينا؛ وهو نحن إيّانا الذين نتـمسّك بهـا. فاللّهُ، الذي يشاء كلَّ شـيء، -وكلُّ شيء رهنَ ما يشاء-، لا يشاء أن يُنقِصَ من حرّيّتنا شيـئاً؛ ولا يشاء أن يفرضَ علينا حتّى وجودَه.

٣٠. ومع هذا، لا نزال نسأل: كـيف نحن أحرار مع إلهٍ كلّيّ الـقـدرة والعلم؟! أو مع إلهٍ قـريبٍ منّا أكـثـر منّا لنفـوسنا؟! أو مع إلهٍ نحنُ حـاضرون أمـامَـه في ماضـينا وحاضـرنا ومـستـقبلنا؟! مع إلهٍ لا أزمنة عنده ولا أوقـات تتعاقب؟! نقـول: إنْ كان اللّهُ إلهاً حقّاً، فعليـه هو أن يتحمّل هذا الوضع الذي أوجـدنا فيـه. فـإنْ هو دنا منّا، فعليـه أن يحـافظ على حرّيّتنا؛ وإنْ هو نأى عنّا، فـعليه هو أيـضاً ألاّ يجعلنا فاقدي الأمل قاطعي الرّجاء. وهو الذي يعلم جيّداً أنّ قطع الرّجاء يؤدّي حتماً إلى الانتحار.

٣١ . الانتحار جائز، هذه المرّة، لأنّه وقعَ بسبب ظلمٍ قاهرٍ شـاءه اللّهُ نفسه لنا. إلهٌ بعـيدٌ جدّاً، ومـتطلّبٌ جدّاً، هو إله ظالمٌ وأيّ ظلم، قاهرٌ وأيّ قهـر! إلهٌ «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ»، هو إلهٌ يُلغي أيَّ شـيءٍ يشاء أن يكونَ مـثله. إلهٌ لا يريد أحداً

مثله. وعلى كلّ أحدٍ، إن كان كافراً، أن يخلّص نفسَه؛ وإنْ كان مؤمناً، أن يقتلَ نفسَه. لا حدّ وسط: إمّا الكفر فالحياة؛ وإمّا الإيمان فالموت. وأحسن الموت الانتحار، نكايةً في اللّه نفسه.

٣٢. والأنكى من كلّ شيء أنّ الإنسانَ نفسَه، إرضاءً للّه الذي به يؤمن، وضعَ شرائع باسم اللّه، وكلّف نفسَه بها؛ وأنزل من عنده كتباً، وأنبياء ورسلاً، وأنشأ أدياناً ومذاهب.. كلّ هذه حتّى لا يكونَ حرّاً فيقتل نفسَه بسبب حرّيّته هذه؛ أو أيضاً، بسبب حرّيّته ذاتها، يحتجّ بأنّه لا يعرف مشيئةَ اللّه فيه.

٣٣. لكأنّ الأديان كلّها كانت من أجل ألاّ يستعملَ الإنسانُ حرّيّتَه فيقضي بها على نفسه. هذا واقعٌ منطقيّ، تجرّنا إليه الأديانُ كلّها والكتب المنزلة والأنبياء المرسلون...

وحتّى لا يكون الأمرُ كذلك، لعلّنا نُلغي الأديانَ والأنبياء والكتب، فنرتاح. ولكنْ يصعب، بل يستحيل، على ما يبدو، تحمّل عبءَ الإلغاء هذا...

لو يتحمّل اللّهُ نفسُه عنّا، أو معنا، بعض المسؤوليّة، لأصبحنا، حقّاً، أسعد خلقه. فهل له أن ينتحرَ عنّا ويريحنا؟!

إنِ انتحر لا تُحسَب عليه خطيئة؛ وإنْ سلّم نفسَه للموت، فله

القدرة الذاتيّة على القيـامة.. إنّه اللّه. بهذه الخطّة والطريقة، يخلّصُ نفسَه ممّن تكلّموا باسمه، وادّعوا معرفَته؛ ويخلّص حرّيّتنا ممّا قيّدَتْنا به الأديان والمذاهب والأنبـياء من حقائق وشرائع.

***

٣٤. هذا هو سـرّ يسـوع المسـيح الذي لم يتّـبعْ إلاّ هذه الخطّة : لقـد جـاء ليخلّصَنـا من شرور وشـرائع، من قيـود وحدود؛ ممّن كلّمونا باسم اللّه؛ وتحـدّثوا عنه كأنّهم لمسوه ورأوه وحاوروه وأخضـعوه لما يريدون. جاء يسوع ليعـيدَ لنا حرّيّتَنا ممّا قُيّـدتْ به باسمه. جاءَ مـتألّمًا لأنّه هو خلق الألم. جـاء ليـمـوت لأنّه هـو خلق الموت الذي زعـزع كيانَنا ووجودَنا.

٣٥. وهل، بعد هذا كلّه، أن يعجب مـتعجّبٌ بأنّ اللّه يموت؟! هو الذي خلق الموت، فـمات به. وكان لموتـه معنى. فيما نحن نموت، لولاه، من دون مـعنى. معه نموتُ بمعنى. نموتُ من أجل قضيَة، قضيّةٍ كبيرةٍ جدًّا، بقدر ما الموت شرٌّ كبيرٌ جدًّا. وهل تكون القضيّة الكبيرة جدًّا غير حياةٍ سعيدةٍ إلى الأبد؟!

***

٣٦. في منطوق الفلسفة نقول: إنّ اللّه لا يتغيّر. لا يتألّم. لا ينفعل. لا يتحرّك. لا يموت... وإذا ما خضع لحالٍ من حالات التغيّر، لما كان إلهاً، أي لما كان كائناً يتّصف بالكمال والخير المطلق... أمّا الإيمان المسيحيّ فيقول: إنّ اللّه تألّم. وتعذّب. وصُلب. ومات. ودُفن.. وتعرّض في حياته على الأرض إلى حالات النّاس جميعهم... وهل من مسيحيٍّ يكون مؤمناً حقًا إنْ لمْ يؤمنْ بآلام اللّه الخلاصيّة هذه؟. اللّهُ نفسُه متورّط في آلام ابنه، وإلاّ ليس لهذه الآلام أيّ معنىً خلاصيّ.

٣٧. بإزاء هذا التناقض بين أن يكون اللّه لا يتألّم، كما يقول العقل؛ وبين أن يكون خاضعاً للآلام، كما يقول الإيمان المسيحيّ؛ قام لاهوتيّون يستعملون تعابير عويصة، مثلا: «آلام اللّه الذي لا يتألّم». ومع هذا يبقى التناقض قائماً. ومثل هذه الفذلكة لا تُجدي نفعاً. ونحن، حتّى اليوم، وبالرّغم من وعينا لآلام يسوع وأهمّيتها الخلاصيّة، والاحتفال بها يوميًا في ذبيحة القدّاس، نظلّ نقول إنّ اللّهَ لا يتألّم. في الممارسة تتغلّب آلام يسوع على ما سواها؛ وفي العقل يتغلّب اللّه الذي لا يتألّم.

٣٨. حتّى هذه الساعة، وبالرّغم ممّا نمارسه

ونؤمن به، لا نزال نعتبر اللّهَ الذي لا يتألّم أكثر كمالاً من اللّه الذي يتألّم... ولكن، ألا يعني هذا أنّ اللّهَ لم يصبح، بعدُ، مسيحيًّا! وأنّنا نحن لم ندخل، بعدُ، في منطق الإيمان المسيحيّ؟! الحقّ يُقال، إنّنا بقدر ما نشدّد على أنّ اللّهَ لا يتألّم، بقدر ذلك نعتبر آلام يسوع مأساةً إنسانيّة لا معنىً لها؛ وأيضاً إيمان المسيحيّين، من أساسه، غير صحيح.

٣٩. مَن يقول بأنّ آلام يسوع لا معنى لها، وليست هي إلاّ آلام إنسانٍ عاديٍّ من النّاصرة؛ فهو، في الوقت نفسه، يعترف بأنّ ما هو نسبيّ بسيط وكأنّه مطلقٌ لا حدود له. بهذا تكون الكنيسةُ قد أعطتْ آلامَ يسوع معنًى أكثر ممّا يجب؛ ويكون اللّهُ، بالتالي، قاسَى، من أجل الإنسان، أكثر ممّا يجب. أي يكون قد تخطّى حدودَه، وألزمَ نفسَه بما لا يلزم. فلا هو مطلوب منه ذلك؛ ولا الإنسان يستحقّ معاناة أيّ مخلوقٍ، فكم بالأحرى معاناة اللّه وآلامه وموته؟!.

***

٤٠. هذه الخواطر توجب علينا أنْ نكتشفَ سرَّ اللّهِ في آلام يسوع؛ كما توجب علينا أيضاً أن نضعَ آلامَ يسوع في اللّه. فلكأنّ سرَّ اللّهِ وآلام يسوع، والحال هذه،

متلازمان. ومتلازمان، فقط، من أجل خلاص الإنسان. يعني: لا معنى للّه ولآلام يسوع وموته إنْ لم يكن خلاصُ الإنسان هو المقصود.

٤١. ومع هذا، وإذا كان الأمر كذلك، فنحن لا نزال نتساءل: لماذا حافظتِ الكنيسةُ في لاهوتها على عدم تألّم اللّه، فجارتِ العقلَ والفلسفةَ في قولهما؟! ولماذا حافظتْ أيضاً على الاحتفال، منذ نشأتها، بسرِّ الصليب والآلام والموت، حتّى إنَّ الكرازة، منذ البداية، كانت دائماً ولا تزال تضع في صميم موضوعاتها آلام يسوع وصلبه وموته؟!

٤٢. نجيب أوّلاً: أنَّ القول بعدم تألّم اللّه هو ما يميّز اللّهَ عن الإنسان بامتياز. وهذا مطلوبٌ في العقل البشري، لئلاّ يكون الناقص كالكامل، والأزليّ الأبديّ كالخاضع لتحوّلات الزمان والمكان... بهذا يسلم اللّهُ في ألوهيّته، ويسلم الإنسان في عدم مشاركة اللّه في ألوهيّته.

ونجيب ثانياً: أنَّ القول بتألّم اللّه في يسوع، هو ما يميّز اللّهَ أيضاً عن سائر الآلهة. يعني أنّه «أخلى ذاتَه في يسوع»، ليشرك الإنسان في حياته الإلهيّة؛ أي تألّم ومات ليشركه في سعادته وحياته.

٤٣. في القول بأنَّ اللّه لا يتألّم يتميّز اللّه عن

الإنسان بامتياز؛ وفي القول بأنّ اللّه يتألّم في يسوع يتميّز اللّه عن سائر الآلهةِ بامتياز. والمسيحيّة لا يهمّها ما يتميّز به اللّهُ عن الإنسان، فهذا تحصيل حاصل؛ بل يهمّها ما يتميّز به عمّا هم عليه سائر الآلهة. فليس الإنسان المسكين هو الذي يحارب اللّه، بل الآلهة التي اخترعها الإنسان هي التي تحارب اللّه. لهذا كان «تخلّي اللّه في يسوع» من أجل خلاصنا، لا من خطيئتنا نحوه؛ بل من آلهة اخترعناها فحجبتْنا عنه. وكان موت اللّه في يسوع، لا لأنّه إلهٌ سادوميّ؛ بل لأنّه إله يُحبّ إلى آخر حدود الحبّ: لقد بذل ذاتَه من أجل الإنسان الذي يحبّ خلاصَه، وإشراكَه بحياته. وهذا يكفي.

٤٤. فلكأنّ اللّهَ في يسوع جاء ليقلب الأدوار. ليمحو آلهةً ويُسقطهم؛ ويؤلّه الإنسانَ ويُعليه. هذا الإنسان الذي شاء إرضاء اللّه بما أنزل باسم اللّه من شرائع؛ شاء اللّهُ في يسوع أن يُرضي الإنسانَ، ويرفعه إليه. ويقضي على كلّ روحٍ فوقَ السماء وتحت الأرض، أكانتْ آلهةً أم ملائكةً أم أدياناً أم شرائع سماويّة ثابتة.

٤٥. نقول: إنْ كان اللّهُ لا يتألّم ولا يموت، فهو، أيضاً، وبكلّ تأكيدٍ، لا يُحبّ. ليس فقط لا يحبُّ سواه؛ بل لا

يحبّ نفسَـه أيضاً. يعني: لا حركـة في طبيعـته، في داخله، أي، بحسب تعابيرنا البـشريّة: لا أمومة، لا أبوّة، لا بنوّة، لا أخذٌ ولا عطاء، لا مـيلٌ نحو أحـد، لا رحمة فـيه ولا حنان... بهـذا، يظلّ مـسيطراً على الآلام الـتي تنتج عن الحبّ. ومَن يحبّ يتألّم، لأنّ الطرفَ الآخَر مختـلفٌ حتماً عنه. والمختلفُ دائماً سببٌ للآلام.

٤٦. هذا هو سرّ الحبّ وسـرّ الآلام المتلازمان أبداً. فالله لا يتـألّم كالإنسانِ بسـبب نقصٍ في كيـانه؛ بل يتألّم بسبب كـمالٍ في مـحبّتـه التي هي كمـال كيـانه. أوريجان عرف ذلك وتجـرّأ فقال تعليـقاً على (رو٨/ ٣٢): «هُوَ الّذِي لَمْ يُوَفِّـرِ ابْنَهُ الحَبـيب؛ بَلْ سَلَّمَـهُ مِنْ أَجْلِنَا كُلِّنَا»: "إنّ الله، تألّم بسبب رحمته. وهو، حقّاً، ليس من دون شعور".

وقال أيضـاً: "هو (المخلّص) نزل إلى الأرض شفـقةً على الجنس البشري. لقد تحمّل آلامنا؛ وذلك قبل آلامه على الصليب، وقبل تجسّده أيضـاً؛ لأنّه، لو لم يتألّم مِن قَبْلُ، لما كان دخل في مسيرة الحياة البشريّة. لقد تألّم أوّلاً، ثمّ نزل وأصبح مرئيّاً".

ما هي هذه الآلام التي تحمّلهـا يسوع من أجلنا؟ هي المحبّة. والآب نـفسه، إله الكون، ألَمْ يتألّم هو أيضـاً بطريقة

من الطرق؟ ألا تعلم بأنّه عندما ينحني نحو البشر يتحمّل آلام البشر؟.. الآب ليس بليداً Ipse Pater non est impassibilis عندما ندعوه، ينحني، يتقاسمنا الآلام. إنّه يتحمّل آلاماً بسبب المحبّة. إنّه يصبح ما ليس في استطاعة طبيعته أن يصبح. ويتحمّل بسببنا آلام البشريّة".

عندما يتكلّم أوريجان على آلام الله فهو يفكّر بآلام المحبّة، بالحنان الذي في طبيعة الرّحمة. كلُّ رحيمٍ يشترك، لا محالة، في آلام الآخرين، يتحمّل آلامهم. ويتألّم من أجلهم.

ويبدو، بحسب أوريجان أيضاً، أنّ معاناةً ما موجودة بين الآب والابن قبل وجودها بين الله والبشر. وقد لا يجوز لنا الكلام على الآلام الإلهيّة إنْ لم يكن اللّهُ ثالوثاً. الوحدانيّة لا تجيز لنا الكلام عن الآلام الإلهيّة أبداً. في الألم يخرج اللّهُ من ذاته. يدخل في لقاء مع سواه. لهذا، فالخطيئةُ تنال من قداسته، لأنّه يحبّ فيتألّم. ولهذا طلب منّا أن نصلّي: «لِيَتَقَدَّسِ اسْمُكَ».

إنّ اللّهَ البليد Impassible يعني أنّ موقفه من الفقير والغني، من البارّ والشرّير، من الضعيف والقويّ، سواء بسواء. فهو لا يشعر مع أحد؛ أي : لا يحبّ أحداً ولا يرفض

يعرف لا الحبّ ولا البغض.

إنّ الآلام الإلهيّة هي التي تسمح لنا بمعرفة شيء عن الله. ونحن نفهمه ونحبّه انطلاقاً منها، لا انطلاقاً من وحدانيّته وصمدانيّته وعلوّه وجبروته.. نحبّه لأنّه تعاطف مع أحداث التاريخ. لهذا كان له معنا تاريخ، أي كان له معنا أحداث في التاريخ.

إنّ تاريخ العالم يجد بدايته في سلسلة تخلّياتِ اللّه عن ذاته: في الخلق، في إبرام العهود، في خروجه مع شعبه، في السبي، في ظهوراته، في وحيه، في إعلان مشيئته.. وأخيراً في إعلان ذاته... كلّ هذه أنواع من هذا التخلّي الإلهي. وسيستمرّ هذا التخلّي حتّى نهاية العالم.

تُعتَبر التخلّياتُ الإلهيّة انفصاماً في ذات اللّه. ولن تعود إليه لحمته إلاّ باستعادة وحدانيّته. وكانت صلاة اليهوديّ دعوته الدائمة: «وَحِّدوا اللّه»، أي: اجمعوه. أعيدوا إليه لحمتَه. فوحدة اللّه مشروع في طريق التمام. وليست هي الآن ناجزة. ونحن نفهم اللّه الآن ثالوثاً وليس واحداً. وسوف نعرفُ وحدانيّتَه في ما بعد، من بعد معرفته ثالوثاً.

خاتمة الكتاب

لو لم يكن ليسوع الناصريّ موقف حاسم صارم من الأديان ورافض لها ولرجالاتها وشرائعها وتعاليمها لما تجرّأتُ على كتابة هذه الأسطر والقول بتبرئة اللّه من الأديان جميعها، ومن كتبها المنزلة، ومن شرائعها الجامدة، ومن عقائدها وتعاليمها الثابتة، ومن أنبيائها المرسَلين، ومن رجالاتها المعصومين...

فلكأنّي، بتبرئة اللّه هذه، ووضعِها على عاتق يسوع نفسِه وعلى كاهل مؤلّفي الأناجيل والرسائل، وعلى مسؤوليّة الكنيسة وتعاليم آبائها ومجامعها، أرفع عن نفسي كلّ مسؤوليّة الكفر والإلحاد. لهذا قمتُ بنقلِ كلّ ما ورد في الأناجيل والرسائل من مواقف وتعاليم جريئة في تبرئة اللّه ممّا نُسب إليه من أديانٍ، وكتبٍ، وشرائعَ، وحقائق، وعقائد، وتعاليم جامدة، ولو بتفصيلٍ وترداد مملَّين...

***

لكنّني لم أكن من دون حذَرٍ من قولي بتبرئة اللّه من الأديان، حذَرِ الخـوف من الوقوع في فراغ، فلا نعـود نجد للبشريّة مرجعاً ترجع إليه، حذَرٍ يقوم على ما يجب أن يحلّ مـحلّ الأديان وتعـاليـمـهـا، هي التي سـاهمتْ في إنشـاء حضاراتٍ، وفي إغناء التاريخ، وفي تطوّر الإنسان ورقيّه...

إنّ ما حقّقـته الأديان للبشر لا يُستهـان به. فهو هذا الذي سـاهم في تطوّر الإنـسـان، وتقـدّم العلـم، وتنوّع الثـقافـات، وإرسـاء الحـضارات، وبناء الأخـلاق، وتثبـيت القوانين والشرائع ما جعل البشريّة تتطوّر وتتقدّم أشواطاً.

إلاّ أنّ تجميد هذه الأديان والشرائع والتعاليم ساهم أيضاً في تجـميد الإنسـان وتأخّره بما لا يُحـدّ، حتّى باتتِ البشريّةُ تعاني من هذا الجـمود وهذا التأخّر وهذه الحروب الدامية والمستمرّة.

هذه الأديان، في جمود شـرائعها وتعاليمـها، كانت، حقّاً، سبباً عظيماً في اندلاع الحروب على الأرض، منذ فجر التاريخ حتّى اليـوم. وكانت سبباً أيضـاً في ادّعاء الإنسان المتمادي في إدراك طبيعة اللّه وهويّتـه، وفي معرفة صفاته وتصرّفاته، وفي كنه أسرار الموجودات والماورائيّات كلّها.

كلّ ذلك كان ولا يــزال سبب اختــلاف واقتــتال في تاريخ البشــريّة، وسبب عـداوة وخصام بــين الناس. أقول الدِّين، لا غــيـره، هو الســبـب الرئيـسيّ لهـــذه الحـروب والعداوات المستمرّة بين الناس...

لهذا تجـرّأت في أن أقوم بحـملةٍ إيمانيّة مـسيحـيّة طاحنة بتجريد اللّه وتبرئته من كلّ دين وتشريع وتنزيل.

أقول «حـملةً إيمانيّة»، أي تسـتند إلى الإيمان لا إلى العقل، أي مـرتبطة مبـاشرة بتعـاليم يسوع الواضــحة في صرامتــها؛ وأقول «حملةً مسيــحيّة» لأنّ لا دِين من الأديان التي تحكمنا اليــوم، كاليهـوديّة والإسلام وغيـرهما، يسلّم بتبرئة اللّه، كما هو الحال في المسيحيّة الأصوليّة.

***

ويجب أن نعـرف، والحــال هـذه، أنّه إذا مــا التــغتِ الأديان من العــالم، وبرّرنا ذمّــةَ اللّهِ منهــا، فلا خـوف على رقيّ البـشــريّة وتطوّرها. ذاك لأنّ المجـتـمـعـات المدنيّــة، والقوانين الوضـعيّة، وشرعة الأمم المتّحدة، ودساتير الدول، وأنظمة المؤسّســات، تحلّ محلّها، وفي طليعتهـا كلّها تعاليم الكنيســة التي تواكب الإنسانَ في تطوّره وتراقب مســيرته وتقوّم اعوجاجه، في مختلف مراحل التاريخ.

هذا هو البديل عن تعاليم الأديان الجامدة: الكنيسة، في تعاليمها، ودساتيرها، ومجامعها، وقوانينها، وأنظمتها، المستوحاة مباشرةً من تعاليم يسوع ومواقفه. هذه الكنيسة، كمؤسّسة عالميّة، هي التي تتولّى شؤون العالم، وتحلّ مشكلاته وقضاياه، وتتعاون مع هيئة الأمم المتّحدة...

***

وكم كنتُ أودّ أن ألغي من قاموس اللبنانيّين تعبير «الحوار بين الأديان»، أو «الحوار بين المسيحيّة والإسلام»...

الحوار، بالرغم من كونه قيمةً إنسانيّة رفيعة، بما يعني من انفتاح على الآخَرين، وقبول لهم، ومحبّتهم... هو حوار طرشان، لا يفيد شيئاً، لا يقدّم أيّ حلّ لأيّ مشكلة؛ بل يزيد الاختلاف اختلافاً ويعمّقه، لأنّ الإنسان متعصّب جدّاً لما يربطه بعمد السماء وبالمشيئة الإلهيّة والتعاليم المنزلة عليه وليس على غيره.

الحوار كلمة حضاريّة رائعة، ولكن حوار حول مَا؟ ومع مَن؟ ومن أجل أيّ هدف؟ وما الغاية منه؟ وما هي المواضيع التي يجب أن يتحاور فيها المتحاورون؟ وهل من

مساحةٍ تُعطى للمتحاورين حتّى يلتقوا على ما هم عليه يتحاورون؟!

العجب كلّ العجب في المجتمع السياسيّ اللبنانيّ، الذي، في بناء المجتمع والدولة وسنّ القوانين، يضع فشله كلّه على الدِّين والطائفيّة ورجال الدِّين، لا على فساد المسؤولين أنفسهم ولاأخلاقيّتهم ولامبالاتهم في رقيّ الإنسان وتطوّره...

كأن لا أديان ولا طوائف ولا مذاهب موجودة في العالم، إلاّ في لبنان...

ألا فليعِ كلُّ إنسان أنّ الشرّ موجود في فشل المسؤولين السياسيّين في بناء دولةٍ لا في اختلاف الأديان، التي ساهمتْ بدورها هي الأخرى في تجميد الإنسان وتأخيره. هذه الأديان التي ساهمت بعض الشيء في تقدّم البشريّة؛ إلاّ أنّها أخّرتْ مسيرة السلام تأخيراً عظيماً...

ومفهومنا الخاطئ للدين هو الذي قوّى السياسيّين في فشلهم؛ بل أعطاهم الحقّ في تماديهم في الفساد...

شرّ آخر يوجد في مجتمعاتنا الشرقيّة، يكمن في ادّعائنا معرفة اللّه، وفي أنّ كلّ واحد منّا يملك هذه المعرفة، فيُخضع اللّهَ لمعطياته هو، وللصفات التي يمنحه إيّاها...

كيف أقول لهؤلاء المتديّنين إنَ الله لا يُدرَك، ولا يعرفه أحد، لأنّه غير خاضع للعقل وبراهينه، غير مرتهن بمقولات البشر... الله لا يعرفه أحد، ومن يقول إنّه يعرفه فهو الكافر والملحِد، لأنّه نزّل الله إلى مستواه.

لهذا أقول أيضاً إنّ سببَ إلحادِ الملحدين كثرةُ إيمان المؤمنين، وسببَ القلق الوجوديّ بين البشر كثرةُ اطمئنان المطمئنّين، وسببَ اقتتال البشر وحروبهم فيما بينهم ادّعاءُ كلّ إنسان معرفة الله وامتلاكه له. لهذا نردّد دائماً مع يسوع الناصريّ: إنّ الله لم يعرفه أحد. وحدَه الذي كان عند الله، هو يعرف الله، ويكشفُ سرَّه لمن أراد.

ونردّد أيضاً مع المفكّر الوهّابي النشأة، الملحد اليوم، عبدالله القصيمي: «إنّ احتلال الإله لعقولنا أفدح أنواع الاحتلال»، كما جاء في عنوان فصل كامل من كتابه «هذا الكون ما ضميره؟».

إنّه، في الحقيقة، حالنا اليوم مع الله ومع البشر جميعهم: علماً أنّ اللّهَ بريء كلّ البراءة من هذا الاحتلال. فالإنسان، الذي لا يريد أن يقرّ بعجزه وضعفه، ينسب ذلك إلى أنّ الله هو الذي شاء له ذلك.

فهرس الكتاب